مِن توجيهات
الشريعة الإسلامية

بقلم
الدكتور أحمد عمر هاشم
عميد كلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر - الزقازيق

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر
ت : ٩٣٦٢٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

مِن توجيهات

الشريعة الإسلامية

مِن توجيهات
الشريعة الإسلامية

بقلم
الدكتور أحمد عمر هاشم
عميد كلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر - الزقازيق

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر
ت : ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مكتبة الثقافة الدينية
لصاحبها : أحمد أنس عبد المجيد
الإدارة والمركز الرئيسى : ٥٢٦ ش بور سعيد   الظاهر
فـــرع : ١٤ ميـــدان العتبـــة
تليفون : ٩٣٦٢٧٧   ٩٢٢٦٢٠

(أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد

فإن الشريعة الإسلامية الغراء ، تتسم بالعموم والخلود والبقاء ، فهى خاتمة شرائع السماء ، ورسولها صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء ودستورها وهو القرآن الكريم ذكر للعالمين ، وتبيان لكل شىء ، وهو المصدر الأول لها ، والسنة النبوية المطهرة هى المصدر الثانى للتشريع .. وفى هذا الكتاب بيان لأهمية هذين الأصلين الكريمين للشريعة الإسلامية .. وبيان لأهم الجوانب التى وجهت إليها الشريعة ، لبناء حياة إسلامية جديرة بأمة وصفها القرآن بأنها خير أمة أخرجت للناس .

كما تناولت فى بحوث هذا الكتاب توضيح منهج الإسلام فى العبادة والعمل والأخلاق ..

لتتضح توجيهات الشريعة ، التى اتسمت بالسماحة واليسر وعدم الحرج أو المشقة .

« وماجعل عليكم فى الدين من حرج »

كما توضح فصول هذا الكتاب توجيهات الشريعة الاسلامية لمرحلة الطفولة باعتبارها الأساس الأول لبناء الشخصية ، ومرحلة الشباب باعتبارها المرحلة القوية التى تتسم بالنشاط والحيوية والعمل والعطاء ، وكان الفصل الأخير من هذا الكتاب عن الإسلام والأسرة باعتبار أن الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع وعلى عاتقها تقع المسئولية الأولى لبناء الأجيال ..

وأسأل الله تعالى أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به إنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

أ.د. أحمد عمر هاشم

الفصل الأول

القرآن والسنة

ان الدين عند الله الاسلام

قال الله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » [1] .

ولهاتين الآيتين إرتباط بما سبقهما من آيات ، فقد امتدحت الآيات السابقة لهاتين الآيتين أحباب الله وأصفياءه الذين اتبعوا الدين وساروا على النهج المستقيم ، كما أبرزت ما كان عليه أعداء الدين من الكافرين والجاحدين فبعد أن بينت الآيات هذا كله عقب سبحانه على ذلك ببيان الدين الحق والعروة الوثقى .. فقال تعالى : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » .. ثم أكد الله تعالى قضية التوحيد ، مبينا أن الدين الذى ارتضاه هو الاسلام ولا يرضى غيره ، فقال تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » وهو يتناول فى اطلاقه جميع الرسالات التى جاء بها الرسل لأنه روحها الكلى الذى اتفقت فيه على اختلاف فى بعض التكاليف والأعمال ، وشرع الله تعالى الدين لتصفية الروح والعقل من اية شائبة من الشوائب فيسلم العقل وتسلم الروح من اية خرافة تتراءى أو اعتقاد مزيف يمكن أن يكون .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ - ٢٠ .

كما شرع الله تعالى الدين ليصلح الظاهر والباطن والقلب والعمل ، والسلوك والنية ، أخرج ابن جرير عن قتادة قال : الاسلام شهادة ان لا اله الا الله ، والأقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله تعالى الذى شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى الا به .

وهذا هو المراد بقول الله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »

والاسلام في معناه اللغوى هو الانقياد والطاعة وله فى اصطلاحات العلماء عدة اطلاقات :

أولا : يطلق الاسلام على معنى العمل الظاهرى وهو بهذا يغاير الايمان كما جاء فى حديث جبريل ، فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الاسلام هو شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج وأن الايمان هو التصديق : أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر

ثانيا : يطلق الاسلام على معنى يرادف الايمان فيسمى كل واحد منهما باسم الآخر ، وذلك كما فى حديث وفد عبد القيس حيث قال لهم : « هل تدرون ما الايمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمسا من المغنم »

ثالثا : يكون بمعنى التداخل ، وذلك بان يطلق أحدهما ويراد به مسماه فى الأصل ومسمى الآخر ، وذلك كما فى الآية الكريمة التى معنا:

« إن الدين عند الله الاسلام » فقد أطلق الاسلام وأراد به التصديق والعمل ، ومن ذلك ما رواه ابن ماجه ، قال صلى الله عليه وسلم : « الايمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان »

والدين يشمل العقيدة والشريعة والأحكام والأخلاق التى شرعها الله لعباده ، وقد جاءت كل الرسالات والأديان به « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب »[١] .

وقد روى على بن ابراهيم عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه قال فى خطبة له : لأنسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلى ، الاسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الاقرار ، والاقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، ثم قال : إن المؤمن من أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه ، ان المؤمن من يعرف ايمانه فى عمله وان الكافر يعرف كفره بانكاره أيها الناس دينكم دينكم فان السيئة في خير من الحسنة فى غيره إن السيئة فيه تغفر وأن الحسنة فى غيره لاتقبل أ.هـ .

« وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاء هم العلم بغيا بينهم »[٢] وقد قيل : أن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، أو من

---

(١) سورة الشورى (١٣) .

(٢) سورة آل عمران (١٩).

أرباب الكتب المتقدمة ، وقيل : هم قوم موسى اختلفوا بعده ، وقيل : هم النصارى اختلفوا فى أمر عيسى عليه السلام ، والأظهر أنها عامة تشمل الجميع ، فلا تختص بفريق دون غيره .. وما كان هذا الاختلاف الا بعد وضوح الأدلة ، ومعرفة الحقيقة ، وكان مبعث هذا الاختلاف هو الحسد فيما بينهم وطلب الرئاسة ، فلم تكن هناك شبهة أو أمر خفى عليهم ومن هنا فقد كان لهم هذا الوعيد الشديد على كفرهم ، واختلافهم : « ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » والمراد بآيات الله : الحجج ، وقيل : التوراة ، وقيل : هو الانجيل ، وقيل القرآن ، وقيل : آياته الناطقة بأن الدين عند الله الاسلام ، والأظهر أنها عامة تشمل أى آية كانت ، وسرعة الحساب هنا تقتضى إحاطة العلم والقدرة ولذا أفادت هذه الجملة الوعيد ولم يقل « ومن يكفر بالآيات » أو من يكفر بآياته ، بل نص على اظهار اسم الله فقال : « ومن يكفر بآيات الله » وذلك لبيان المهابة وادخال الروعة وتعظيم الأمر . وفى هذه الآية من العظات ما ينبغى الوقوف عندها ، فان الواجب علينا أن نبتعد عن مواطن الخلاف فى الدين وألا نتفرق شيعا وأحزابا ، فان نهاية التفرق الخذلان « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن أتبعن » أى أن جادلوك بعد بيان الحق وأقامة الأدلة والبراهين الساطعة « فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » أى أقبلت عليه بكليتى ، وانما عبر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ، ومظهر القوى والحواس « فان أسلموا فقد اهتدوا » حيث أخرجوا أنفسهم من الظلمات الى النور ومن الجهالة والضلالة الى العلم والهداية . أما اذا

أعرضوا فان اعراضهم لا يضيرك فى شئ فما على الرسول الا البلاغ والله تعالى هو البصير بعباده يعلم المهتدى فيهم فيكون له الوعد جزاء هدايته ، ويعلم الضال منهم فيكون له الوعيد على ضلاله وما ربك بظلام للعبيد .

والاستفهام فى قوله :« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم» ؟ استفهام للتقريع ..

وفى هذه الآية ما يدل على أنه ليس عليهم بمسيطر وأنه لا يكره أحدا على الدخول فى الدين « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد أستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم »(١) وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تسلما ، فاختصموا الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فأنزل الله تعالى : « لا اكراه فى الدين .. » .

والناظر الى الدعوة الاسلامية فى نشأتها وسيرها عبر التاريخ يجد أنها قامت بدعوة الناس الى الاسلام وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكره أحدا ولم يحمل السلاح على أحد للدخول فى الاسلام بل كان يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة .

---

(١) سورة البقرة (٢٥٦).

الاسلام دعوة كل الرسل

ان الاسلام هو دعوة كل الرسل ويتناول أطلاقه جميع الأديان التى أمر الله تعالى رسله أن يبلغوها للناس ، لأنه روحها الكلى ، على أختلاف فى بعض التكاليف والأعمال وينضوى الانسان تحت راية الاسلام عندما تصح عقيدته ، وتخلص من كل شائبة من شوائب الشرك والنفاق... ويخلص فى ايمانه وعمله لله تعالى ..وهذا هو المراد بقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »[١] .

فالاسلام بمفهومه القرآنى المشرق اسم للدين الالهى الذى جاء به جميع الأنبياء والرسل وانتسب اليه أتباعهم جميعا. يقول نوح لقومه : «وأمرت أن أكون من المسلمين »[٢] ويوصى يعقوب بنيه قائلا : « فلا تموتن الا وأنتم مسلمون »[٣] ويجيب أبناء يعقوب أباهم قائلين : « نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون »[٤] ويقول موسى عليه السلام لقومه : « إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين »[٥] ويقول بعض أهل الكتاب حين سمع القرآن : « قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين »[٦] .

---

(١) سورة آل عمران (٨٥).
(٢) سورة يونس (٧٢).
(٣) سورة البقرة (١٣٢).
(٤) سورة البقرة (١٣٣).
(٥) سورة يونس (٨٤).
(٦) سورة القصص (٥٣).

وقد وجه القرآن الكريم الأمة الاسلامية ، الى بيان هذه الحقيقة فى قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه »(١) كما خاطب الله تعالى الرسل جميعا مبينا ان الاسلام والتوحيد قد أمر به كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام وكافة الأمم كأُمَّة واحدة ، متحدة فى أصول الشرائع لا تتبدل بتبدل العصور ، قال تعالى : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »(٢) .

وتتلخص دعوة الملة القيمة فى التوحيد الخالص لله الواحد الأحد : البعيد عن العقائد الزائفة ، مع اتباع جميع الأحكام المنوطة باتباع الاسلام، كما قال تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة . ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة »(٣) .

وقال تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(٤) .

فعلاقة الاسلام اذا بالأديان الأخرى علاقة الشئ بنفسه ما دام جوهره هو جوهر كل الرسلات ، ودعوة رسوله هى دعوة كل الرسل . وأما ما اختصت به العقيدة الاسلامية الخاتمة من شرائع وأحكام فهذا مدلول معين

---

(١) سورة الشورى (١٣).

(٢) سورة المؤمنون (٥٢).

(٣) سورة البينة (٨٥).

(٤) سورة البقرة (١٣٦).

على شريعة معينة . وعلاقة الاسلام كشريعة للرسول صلوات الله وسلامه عليه بالأديان الأخرى تقوم على أساس تصديق القرآن لما بين يديه من الكتب والهيمنة عليها .

وهذه العلاقة تأخذ اتجاهين واضحين : الاتجاه الأول : علاقة الاسلام بالشرائع السماوية قبل تطورها وتغييرها والاتجاه الثانى : علاقته بها بعد تطورها وتغييرها : أما عن الاتجاه الأول فالقرآن جاء مصدقا لما قبله من الكتب ، وقد أخذ رب العزة سبحانه على كل نبى اذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره .. وتصديق الكتب المتأخرة للمتقدمة لا يعنى أنها لا تغير منها شيئا . فهى مع أنها مصدقة لها الا أنها تغير منها كما حدث أن جاء الانجيل بتعديل أحكام التوراه - عَلَى رَأْى - ، فأعلن عيسى عليه السلام أنه جاء ليحل لبنى اسرائيل بعض الذى حرم عليهم .. وأيضا فقد جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الانجيل والتوراة اذ أعلن أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، جاء ليحل للناس كل الطيبات ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . وليس فى هذا تناقض من اللاحق للسابق ، ولا انكار منه له وانما هو توافق وتناسب للزمن الذى تعيشه كل أمة ، ليتواءم مع ظروفها وطبيعتها وأطوارها المختلفة ، فان الذى يتناسب مع أمة من الأمم فى طورها الأول قد لا يتناسب معها فى الطور الثانى ، والذى يتناسب معها فى الطورين الأولين قد لا يتناسب معها فى الطور الثالث وهكذا .. نعم هناك من الأمور ما تأذن الشريعة اللاحقة بابقائه واستمراره فى نطاق ظروفه

السابقة: كالوصايا العشر مثلا ما عدا الوصية العاشرة التى تحرم العمل يوم « السبت » ، فمثل ذلك من التشريعات مؤقتة بآجال طويلة أو قصيرة فهى تنتهى بانتهاء وقتها ، وتأتى الشريعة اللاحقة بما يوافق الأوضاع مصداقا لقوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »[١] اذا ففى كل شريعة من الشرائع عنصران ضروريان للدعوة : عنصر مستمر . يربط حاضرها بماضيها.

وآخر غير مستمر . ويقوم بالتجديد بما يتناسب مع تطورها فى كل زمان ومكان فمثلا نرى شريعة التوراة تنص ضمن قوانين السلوك الأخلاقى على النهى عن القتل والسرقة .. الخ . ومن أهم ما تبرزه : طلب العدل والمساواه . - مع اليهود - ونرى شريعة الانجيل تقرر هذه المبادئ وتزيد عليها - عند من يرى الانجيل شريعة منفصلة عن شريعة التوراة - ففيه : « لا تراء الناس بفعل الخير » و « أحسن الى من أساء اليك » وأوضح ما فيها التسامح والإحسان فتأتى شريعة القرآن فتقرر المبدأين معا : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان »[٢] « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله »[٣] وقال تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »[٤] .

وقد أضافت الشريعة الاسلامية كل مكارم الأخلاق ، فلم تدع جانبا من جوانب السلوك فى التحية ، والاستئذان ، والمجالسة ، والمخاطبة وما

---

(١) سورة البقرة (١٠٦).
(٢) سورة النحل (٩٠).
(٣) سورة الشورى (٤٠).
(٤) سورة النحل (١٢٦)

الى ذلك من الآداب السامية ، والأخلاق الرفيعة كما هو موضح فى سورة النور ، والحجرات ، والمجادلة .

اذا فالشرائع كلها بمثابة اللبنات فى بناء الدين ، ومهمة اللبنة الأخيرة : اكمال البناء وإمساكه ، وبلوغه الكمال الخلقى كما قال عليه الصلاة و السلام : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقد وصف الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأكمل وصف ، وأعظم خلق اذ يقول سبحانه وتعالى للرسول عليه الصلاة والسلام « وإنك لعلى خلق عظيم »[١]. ويقول القرآن الكريم فى بيان إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية على العباد على يدى خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »[٢] .

ويوضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الأنبياء السابقين عليه كرسول خاتم – فيقول : « ان مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » رواه البخارى .

وأما عن علاقة الاسلام بالأديان السماوية الأخرى بعد تطويرها وتغييرها : فقد عرفنا أن القرآن الكريم ، جاء « مصدقا » لما بين يديه من الكتب و « مهيمنا » على تلك الكتب ، والهيمنة تعنى الحراسة الأمينة

---

(١) سورة القلم (٤) .

(٢) سورة المائدة (٣).

عليها ، والحماية الواعية لها ، من الدخيل الذى يدس فيها ، ويطرأ عليها، وابراز ما تدعو اليه الحاجة من حقائق قد أخفيت عنها ، وتأييد ما خلده التاريخ من حق وخير .

وهكذا كانت مهمة القرآن الكريم .. فنفى وجود الأمور الزائدة وتحدى ادعاء وجودها فى الكتب : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين »[١] وابراز ما أخفوه « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب »[٢] فعلاقة الاسلام اذا بالأديان الأخرى فى طورها الأول علاقة تأييد كلى ، وأما فى طورها الأخير المتطور فهو تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية وتصحيح لما طرأ من البدع والاضافات الغريبة عنها .

وقد أمر الاسلام أتباعه بالتعامل الحسن ، حتى مع أبعد الأديان عنه، قال تعالى : « وأن أحد من المشركين أستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[٣] ان سماحة الاسلام لتتفسح جوانبها ، وتمتد ظلال الأمن فيها وارفة فتجير المشرك وتؤويه وتكفل له الأمن ، وتقدم له الرشد الناجع ، والتوجيه السديد بالحكمة والموعظة الحسنة كما قال تعالى: « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[٤] بل وتكفل له الحماية والرعاية والأمان من كل غائلة .. كما

---

(١) سورة آل عمران (٩٣).
(٢) سورة المائدة (١٥).
(٣) سورة التوبة (٦).
(٤) سورة النحل (١٢٥).

ندب الاسلام أتباعه أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف بر ورحمة وقسط وعدل :«لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » . (١) .

وما أروع قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه - يوم الحديبية : «والله لا تدعونى قريش الى خطة توصل بها الأرحام ، وتعظم فيها الحرمات الا أعطيتهم اياها » .

---

(١) سورة الحجرات (٩).

القرآن دستور الاسلام

ان أعظم ما يقف عليه المسلم فى القرآن : حديث القرآن عن نفسه وما أروع حديث القرآن عن نفسه ، انه حديث الصدق فى أسمى درجاته ، وحديث الطهر فى أنقى صوره ، لأنه مصون عن كل المؤثرات ، محفوظ من التبديل والتغيير .

قال الله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »[١] . وقد أقسم الله تعالى ، على ذلك ، فقال : « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين »[٢] .

وقد ضرب الله الأمثلة على عظمة القرآن ، وأنه لو أنزل على جبل لخشع وتصدع من خشية الله ، قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »[٣] .

هذا وان القرآن الكريم لهو أجل النعم الالهية وأولها ولذا صدر القرآن به حديثه عن النعم الوافرة . وذكرها قبل نعمة النطق وغيرها من النعم والآلاء .

فقال : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان»[٤]

---

(١) سورة الحجر (٩).
(٢) سورة الواقعة (٧٥).
(٣) سورة الحشر (٢١).
(٤) سورة الرحمن (١-٧).

وحين سمع الامام على كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن .. الخ . سأله عن المخرج من الفتن ، فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن أبتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر، ومن أعتصم به هدى الى صراط مستقيم » .

واذا تبين لنا مما سبق عظمة القرآن ومنزلته التى تمثلت : أولا : فى الهداية ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ، قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »[١] وقال : « وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه »[٢] وقال : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »[٣] .

كما بين القرآن نتيجة من أعرض عنه فى قوله : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى »[٤] .

---

(١) سورة النحل (٤٤).
(٢) سورة النمل (٦٤).
(٣) سورة الاسراء (٩).
(٤) سورة طه (١٢٤ - ١٢٦) .

ثانيا : فى الاعجاز وما اشتمل عليه القرآن من كونه معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، جاء به فى وقت أكتملت فيه كل ملامح القوى البلاغية ووسط قوم ملكوا زمام الفصاحة والبيان فجاءهم بمعجزة من نوع ما برعوا فيه فعجزوا عن الاتيان بمثله . قال تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين »[1] . بل ان التحدى كان للانس والجن معا فكان عجز الانس والجن عن الاتيان بمثله واضحا قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[2] .

عن ابى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما من الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ،وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[3]. ولقد حفظ الله كتابه فى القديم وفى الحديث ، من بين يديه ومن خلفه « و إنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »[4] .

وقد حاول بعض المعاندين ان يثيروا حول القرآن الكريم بعض الشبه وأن يقولوا تنزلت به الشياطين ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : « وماتنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون »[5]

(١) سورة البقرة (٢٣).
(٢) سورة الاسراء (٨٨).
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤)سورة فصلت (٤٢).
(٥) سورة الشعراء (٢١٢).

اما تنزل الشياطين فلا يكون الا على أهل الافك والكذب والزور:« قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟تنزل على كل أفاك أثيم »(١).

ولما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يجلس عند المروة الى مبيعة غلام نصرانى يقال له جبر ، زعم اعداء الدين ان جبرا هذا هو الذى يعلم الرسول اغلب ما يأتى به وحاولوا ترويج تلك الفرية فنزل قوله تعالى: « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين »(٢) .

بل إنهم تخبطوا فى ضلالات كثيرة وأثاروا حول القرآن شبها عديدة لا يثبتون على حال ولا يهدأ لهم بال شأن كل متحد فمرة يقولون عنه : إنه خلط من أخلاط الأحلام وأخرى يقولون عنه : إنه افتراء ، وأخرى : بل هو شاعر . « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون »(٣) .

وعندما فكر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الالتقاء بوفود العرب والقبائل فى موسم الحج يدعوهم الى الله ، اجتمع بعض المعاندين من قريش الى الوليد بن المغيرة يتشاورون ، وقالوا : ماذا عسى أن يقال فى شأن محمد للعرب القادمين الى موسم الحج ، حتى لا يختلف بعضهم على بعض ويكذب بعضهم بعضا ، واقترح بعضهم أن يقولوا أن محمدا كاهن ، فرد الوليد هذا الرأى : ان ليس ما يقول محمد بزمزمة الكاهن - أى كلامه الخفى - ولا بسجعه واقترح آخرون أن يزعموا أن محمدا مجنون ، فرد الوليد هذا الرأى بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة واقترح غيرهم أن يتهموا محمدا بالسحر ، فرد الوليد بأن محمدا لا ينفث فى العقد ولايأتى من عمل السحرة شيئا . وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاج

---

(١) سورة الشعراء (٢٢٢) .
(٢) سورة النحل (١٠٣) .
(٣) سورة الأنبياء (٥) .

من العرب إن هذا الرجل ساحر البيان وأن ما يقوله سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته .[١] أ.هـ.

وفى صدد بيان تلك الفرى التى أفتراهاأعداء الاسلام يتحدث القرآن الكريم عنها ، ويفندها ويبددها فى قول الله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين أم يقولون افتراه قل انْ افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم »...[٢] الخ الآيات .

وجاءت هذه الآيات الكريمة لتقرر قضية الوحى الالهى فى أجل صورها وأسماها وهى آيات الله البينات التى اشتمل عليها القرآن الكريم وقد عالجت هذه الآيات ذلك الموضوع الهام المتعلق بأمر الوحى ، بعد أن تصدت الآيات السابقة لها من صدر سورة « الأحقاف » الى تقرير عقيدة التوحيد عن طريق بيان ما أنزل الله من كتاب ، وما خلق من السماوات والأرض وما بينهما ، وكتاب الكون المفتوح بما فيه من شواهد العظمة الالهية والقدرة القوية شاهد على صدق الكتاب المنزل الذى يهدى للتى هى أقوم ، وكلاهما يتضافران فى بيان أوضح الأدلة على وحدانية الله تعالى .. ومن عجب بعد كل هذا الوضوح أن يعرض الذين كفروا عن تلك الحقيقة الواضحة التى لا لبس فيها ولا غموض « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .

---

(١) حياة محمد الأستاذ محمد حسين هيكل

(٢) سورة الأحقاف (٧ ، ٨) .

ثم أخذت الآيات بعد ذلك تطرح تساؤلاتها القوية والحجج المفحمة وتتحدى من يعبدون أحدا غير الله ، وتبين عجز الجميع أن يخلقوا شيئا «أرونى ماذا خلقوا من الأرض » .

إن نهايتهم ونهاية ما عبدوا فى الدنيا عجز ومهانة .

واما نهايتهم فى الآخرة فهى وقوع العداوة بينهم وبين معبودهم وتبرؤهم منهم وكفرهم بهم : « واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وهكذا أبطلت الآيات السابقة عقيدة الشرك وأثبتت قضية التوحيد فى جلاء ووضوح ..

بعد هذا أخذت الآيات فى اثبات قضية الوحي الالهى فبينت كيف جاء القرآن وحيا جليا وآيات بينات ، ومع هذا فانهم لا يملكون أمام اعجاز القرآن الا أن يقولوا : « هذا سحر مبين » .

ثم بينت ما آل اليه أمرهم من التخبط والتضارب فيقولون : افتراه ، وهنا يبرز القرآن هذه الفرية الأخرى لا فى صورة الخبر بل على صورة الأستفهام لان هذا لا ينبغى أن يقول به عاقل ، ومن المستبعد أن ينطق به انسان ومعه عقله . « أم يقولون افتراه » وهنا تأتى الاجابة أمرا من عند الله تعالى يتضمن أستبعاد تلك الفرية على طريق التدرج معهم حتى يأتى عليها من القواعد ، فعلى فرض ما ادعيتم فهل يكون مفترى من أجل أن تؤمنوا ، وماذا يجدى أيمانكم لو آخذنى ربى ؟ « قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا » .

ولكن الحقيقة واضحة ، ويعلم الله ما تندفعون فيه من طعون زائفة

وكفى به شهيدا على صدق ما جئت به وعلى افتراء ما تطاولتم به « هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم » .

وفى وسط هذا الجو الخانق لديهم ، ومع هذا الحوار الشديد يكشف القرآن عن أسرار الرحمة الالهية ، ويشعرهم بحلم الله عليهم رغم تلك الجرائم والافتراءات فيقول : « وهو الغفور الرحيم » فقد تتداركهم هداية الله فيهديهم وقد يثوبون الى رشدهم فيرحمهم ، وبعد مناقشة المشركين فى ضوء تلك الآيات البينات وبيان أنها حق أخذت فى مناقشتهم عن طريق من أنزل عليه القرآن وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فهو لا يختص نفسه بشئ ولا يصدر فى أمر الا عن وحى الله ، ان قلبه واثق من ربه فلا يمد عينيه الى سر ما من الأسرار وأنه ليس أول رسول جاء برسالة ربه فقد سبقه من قبل الرسل « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولابكم أن أتبع الا مايوحى إلىّ وما أنا الا نزير مبين » أما ماأشارت إليه الآية « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » فالمراد به ما لم يكن عليه من وظائف النبوة كالحوادث والوقائع الدنيوية أما ما يحدث فى الآخرة من ثواب وعقاب أو غير ذلك فإنه علم مثل هذا من شئون النبوة ووظائفها ولذا ختمت الآية الكريمة بما يبين انذار الرسول صلى الله عليه وسلم بعقاب الله تعالى لهم : « وما أنا الا نذير مبين » .

كما أخذت الآيات بعد ذلك فى اثبات صدق القرآن عن طريق أحد بنى اسرائيل ، كواحد من جنس المعاندين . انه استدل على صدق الآيات من نفس القرآن ، ثم استدل على صدقها أيضا عن طريق واحد من نوع

المعاندين وجنسهم وهو : « عبد الله بن سلام » لما سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فنظر الى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبى المنتظر ، فقال له : انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبى : ما أول شرائط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع الى أبيه أو الى أمه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام اما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق الى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فان سبق ماء الرجل نزعه وان سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول الله حقا ، فقام ، ثم قال : يارسول الله ان اليهود قوم بهت فان علموا باسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك . فجاءت اليهود فقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام : أى رجل عبد الله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال : أرأيتم ان أسلم عبد الله ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج اليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. فقالوا : شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال هذا ما كنت أخاف يارسول الله وأحذر . قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض أنه من أهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزل : « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين » .

ورحم الله البوصيرى اذ يقول :

آيات حق من الرحمن محكمة
قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا
عن المعاد وعن عاد وعن ارم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة
من النبيين اذ جاءت ولم تدم
ما حوربت قط الا عاد من حرب
أعدى الأعادى اليها ملقى السلم

نفعنا الله تعالى بالقرآن الكريم ووفقنا الى العمل به إنه سميع مجيب .

مفهوم السنة

تعرف السنة عند أهل الحديث : بأنها أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وصفاته وسيره ومغازيه وبعض أخباره وبهذا يتبين لنا أن للسنة النبوية الشريفة أنواعا كثيرة .

فمنها ما كان قولا وهو أكثر أنواعها، ومثاله : قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب فان نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وان أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » .

ومنها السنة الفعلية ، وهى أفعاله صلى الله عليه وسلم التى رواها الصحابة عنه ، مثل أدائه الصلوات الخمس بأركانها وسننها وهيئاتها وأدائه مناسك الحج والصوم والزكاة وغير ذلك من أعماله الشريفة صلى الله عليه وسلم ، ومن أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله ، مثال ذلك : ما روى عن عطاء بن يسار أن رجلا قبل امرأته وهو صائم فوجد من ذلك وجدا شديدا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين فأخبرتها فقالت أم سلمة : « ان رسول الله يقبل وهو صائم فرجعت المرأة الى زوجها فأخبرته ، فزاده ذلك شرا ، وقال : لسنا مثل رسول الله يحل الله لرسوله ما شاء فرجعت المرأة الى أم سلمة فوجدت رسول الله عندها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مابال

هذه المرأة ؟ فأخبرته أم سلمة ، فقال : « الا أخبرتها أنى أفعل ذلك » ؟ فقالت أم سلمة قد أخبرتها فذهبت الى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال: لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما شاء فغضب رسول الله ثم قال : « والله انى لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده » (١).

٣ - القسم الثالث : « السنة التقريرية » وهى ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم مما رآه من بعض الصحابة ، فعلا كان أو قولا ، بأن يقع ذلك فى حضرته فلا ينكره ، بأن يسكت عنه ، أو يوافق عليه مظهرا استحسانه وتأييده ، فيعد ذلك اقرارا ، من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه خرج رجلان فى سفر وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرا ذلك له فقال للذى لم يعد : « أصبت السنة » وقال للآخر : لك الأجر مرتين » (٢).

---

(١) الموطأ ص١٤٢ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، وقال الزرقانى فى شرح الموطأ ج٢ ص ٩٢ : « وصله عبد الرزاق باسناد صحيح عن عطاء عن رجل من الأنصار » ، ورواه الشيخان : فتح البارى ج٤ ص١٣١ ، ومسلم فى صحيحه ج١ ص٣٠٥ من حديث عمر بن سلمة ، وأخرجه الامام أحمد فى المسند بنحوه ج٥ ص٤٣٤ ، وفى مجمع الزوائد ج٣ ص١٦٦ قال الهيثمى « ورجاله رجال الصحيح » ، وأخرجه الدارمى ج١ ص٣٤٥ بنحوه تحقيق السيد عبد الله يمانى .

(٢) رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى ج١ ص٩٣ بتحقيق الأستاذ / محمد محى الدين ٢ وسل السلام ج١ ص٩٧ ورواه النسائى .

النسبة بين السنة ، والحديث ، والخبر ، والحديث القدسى

سبق بيان أن المراد بالسنة هنا ما أراده المحدثون ، وهى مرادفة للحديث عند جمهورهم وهذا هو الذى سنسير عليه فى جميع بحوثنا من رسالتنا هذه .

وأما الخبر : فهو عند علماء هذا الفن مرادف للحديث فيطلقان على المرفوع وعلى الموقوف ، وعلى المقطوع وقيل : الحديث ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والخبر ما جاء عن غيره ، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة محدث وبالتواريخ ونحوها اخبارى [١]، وقيل بينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل حديث خبر ولا عكس (وقد يسمى المحدثون المرفوع والموقوف من الأخبار أثرا الا أن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر) [٢].

وأما الحديث القدسى فهو كل قول أضافه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل ، ويسمى حديثا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يحكيه ويرويه عن ربه كما يروى الأحاديث ونسبته الى القدس بمعنى الطهارة والتنزيه ، وتسب الى الله ، لأنه صدر عنه تعالى .

---

(١) تدريب الراوى ص٦.
(٢) المرجع السابق .

وللعلماء فى الأحاديث القدسية رأيان :

الرأى الأول : أنها من كلام الله تعالى وليس للنبى صلى الله عليه وسلم الا حكايتها عن ربه سبحانه ، وذلك لأنها أضيفت الى الله فقيل عنها قدسية والهبة وأنها أشتملت على ضمائر التكلم الخاصة به تعالى ، كقوله : (ياعبادى ..) ، وأنها تروى عن الله تعالى متجاوزا بها النبى صلى الله عليه وسلم فتارة يقول الراوى : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه) وتارة يقول : (قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم) والمعنى فيهما واحد .

والرأى الثانى : (أنها من قوله صلى الله عليه وسلم ولفظه كالأحاديث النبوية وممن قال ذلك أبو البقاء وعبارته : (ان القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى،وأما الحديث القدسى فهوما كان لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام) واختارالطيبى [١] هذا الرأى أيضا ، وحكمة اضافة الأحاديث القدسية الى الله على هذا الرأى زيادة الاهتمام بها ، والتوجيه الى ما احتوته من آداب ومعان ومواعظ ومن بيان لعظمة الله تعالى واظهار رحمته .

وأرجح الرأى الثانى ، وهو أنها من قوله صلى الله عليه وسلم ولفظه اذ لم ينزل باللفظ من قبل الله تعالى الا القرآن الكريم لتميزه عن بقية أنواع الوحى بأنه معجز من أوجه كثيرة :منها اعجازه اللفظى والبيانى

---

(١) قواعد التحديث ص ٦٦

، فلا تصح روايته بالمعنى ، لأنه معجزة خالدة على مر الزمان محفوظ من التبديل والتغيير قال تعالى « قل لئن أجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١) .

وأما رواية الأحاديث القدسية عن الله تعالى واضافتها اليه واشتمالها على ضمائر التكلم الخاصة به سبحانه فهذا على معنى أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : افعل كذا ، وأمر بكذا ... فيبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، بألفاظ من عنده (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى) (٢).

الفرق بين الأحاديث القدسية والقرآن :

١ - ان الأحاديث القدسية ما كان لفظها من عند النبى صلى الله عليه وسلم على رأى البعض ومعناها من عند الله بالالهام أو بالمنام بوحى جلى أو لا ، ،أما القرآن فهو ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى بمعنى: أن ينزل به جبريل عليه السلام بلفظه من عند الله سبحانه فى اليقظة وليس فى المنام ولا بالالهام .

٢ - الأحاديث القدسية تصح روايتها بالمعنى أما القرآن فتحرم قراءته بالمعنى .

---

(١) سورة الأسراء ٨٨

(٢) سورة النجم (٣ - ٥).

٣ - الأحاديث القدسية لا يتعبد بقراءتها أما القرآن فيتعبد بقراءته، ويتعين فى الصلاة ولا كذلك الأحاديث القدسية .

٤ - ان القرآن الكريم معجزة خالدة متواتر اللفظ فى كلماته وحروفه وأساليبه أما الأحاديث القدسية فليس لها هذا التواتر ، وليست بمعجزة .

٥ - ان القرآن يحرم على المحدث مسه ، وعلى الجنب تلاوته ومسه بخلاف الأحاديث القدسية .

الفرق بين الحديث القدسى والنبوى :

هو أن الحديث القدسى مقطوع بنزول معناه من عند الله تعالى لما ورد فيه من النص الشرعى على نسبته الى الله بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى كذا ... » فلذا سمى قدسيا ، أما الحديث النبوى فلم يرد فيه مثل هذا النص لأن منه ما هو مستنبط بالاجتهاد والرأى من كلام الله والتأمل فى حقائق الكون وهذا ليس كلام الله ، ومنه ما هو « توقيفى » جاء به الوحى الى الرسول صلى الله عليه وسلم فبينه للناس بكلامه وهذا القسم وان كان مرجعه الى الله تعالى الملهم والمعلم الا أنه لما كان من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ووضعه كان حريا أن ينسب اليه ويطلق على القسمين حديثا نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به [١] .

---

(١) النبأ العظيم / محمد عبد الله دراز طبع مطبعة السعادة ص ١٠ ، ١١

منزلة السنة فى الدين

السنة هى الأصل الثانى من اصول الاسلام أجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم الى يومنا هذا الا من شذ من بعض الطوائف على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثانى للدين بعد القرآن الكريم فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها ، وقد تضافرت الأدلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وبين أنه عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن ، وذلك بعد أن عصمه من الخطأ والهوى فى كل أمر من الأمور « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى » [١] كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ما أنزل اليه قال تعالى : « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين » [٢] .

فهو اذا قد مهد لرسوله طريق الدعوة وذلل له مهمة تبليغها فبين سبحانه وتعالى للناس ما يأتى :

أولا : وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : ان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة النجم ٣ - ٥ .

(٢) المائدة (٦٧).

وهذان الأمران متلازمان فى اثبات حجية السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام لأنه مبين للناس ما أنزل اليهم ، قال الشاطبى : (فإذا عمل المكلف على وفق البيان أطاع الله فيما أراد بكلامه وأطاع رسوله فى مقتضى بيانه ، ولو عمل على مخالفة البيان عصى الله تعالى فى عمله على مخالفة البيان اذ صار عمله على خلاف ما اراد بكلامه وعصى رسوله فى مقتضى بيانه) (١).

وسأتناول الحديث عن هذين الأمرين وهما وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى يبين للناس مانزل اليهم :

أولا : وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم :

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وورد الأمر بها فى القرآن الكريم على وجوه تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم ، فمنهم اليهودى الذى يحتاج الى كثرة الأدلة ، والمنافق الذى يحتاج الى اسلوب التهديد ، والمؤمن الذى يقبل الأمر ويعرف هداية الله من أقرب طريق . وقد سلكت آيات القرآن الكريم فى بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيما :

١ - فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول ، بالأمر بالايمان بالرسل و هذا يستلزم وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه و سلم ، من ذلك قوله

---

(١) الموافقات (٤ : ١٩)

تعالى « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله » (١) وقال تعالى « فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم اجر عظيم » (٢) فالأمر بالايمان بالرسل مع الايمان بالله لا يكون الا اذا كان مع الايمان تصديق لما يبلغه الرسول عن الله واذعان وطاعة لهديهم وعلى هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يجب الايمان به للأمر بالايمان بالرسل وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الامر بالايمان بهم .

٢ - ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم باقتران الأمر بالايمان به مع الأمر بالايمان بالله سبحانه قال الله تعالى : « يأأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل » (٣) وقال الله تعالى : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ، والله بما تعملون خبير» (٤) وقد أظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فنص على الايمان به ، ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه ، وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاقتضت الحكمة أن يخص بمزيد عناية ، ويفهم من ذلك الأمر بطاعته قال الامام الشافعى رضى الله عنه : (وضع

---

(١) سورة النساء آية ١٧١ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٧٩.
(٣) سورة النساء آية ١٣٦ .
(٤) سورة التغابن آية ٨

الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه لما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الايمان برسوله مع الإيمان به فقال تبارك وتعالى : (فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد) [(١)] وقال : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) [(٢)] .

فجعل كمال ابتداء الايمان الذى ما سواه تبع له : الايمان بالله ثم برسوله [(٣)] أ.هـ .

٣ - كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم بايجاب الله تعالى طاعة الرسل قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » [(٤)] فطاعة الرسل اذا هى الهدف من أرسالهم، ورسولنا صلى الله عليه وسلم كواحد من الرسل داخل فى مضمون الحكم العام فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لا سيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فشريعته عامة وخاتمة ، لذا كانت طاعته آكد وألزم .

٤ - اقتران الأمر بطاعة الرسول بالأمر بطاعة الله قال تعالى : « قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » [(٥)] وقال

---

(١) سورة النساء اية ١٧١
(٢) سورة النور اية ٦٢
(٣) الرسالة للامام الشافعى ص ٧٣
(٤) سورة النساء اية ٦٤ .
(٥) سورة ال عمران اية ٣٢ .

تعالى « يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (١) والناظر الى الآيات الواردة فى وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يرى ان منها ماجاء الأمر بطاعة الله مقرونا بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالآية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما ، أو بطريق العطف بها مع اعادة العامل حيث يفيد ذلك تأكيد عموم الطاعة فى كل ما يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما جاء بتكرار العامل فى شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل كقوله تعال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » بدون تكرار العامل فى عطف أولى الأمر .

وهذا يدل على أن أولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة ، وليس لهم تشريع خاص يصدر عنهم « وإنما يطاعون فيما شأنه أن يتلوه ويباشروه فى اطار من الدين الذى شرعه الله قرآنا كان أو سنة »(٢) فطاعة الرسول اذا واجبة فى كل ما أتى به سواء كان فى الكتاب الكريم أو ليس فيه .

٥ - أمر الله بطاعة الرسول على الانفراد قال الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدون فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٣) وقال تعالى : «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون» (٤) وقال تعالى : «وماآتاكم

(١) سورة النساء اية ٥٩.
(٢) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع ص (٥٨)
(٣) سورة النساء اية ٦٥
(٤) سورة النور اية ٥٦

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»[١] ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمه واتباعه ، وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته ، ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى اخذوه عن رسولهم صلى الله عليه وسلم ، حيث كان يبين لهم ما أنزل اليهم ، وحيث كان كذلك يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن ، فهو اذا كان يطبق لهم الاحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله له «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم »[٢] وقد حث الله على الاستجابة لما يدعو له الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »[٣] ولم يبح الله لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أو امره قال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا »[٤] وقد كان المسلمون ملتزمين حدود أمره ونهيه ومتبعين له فى عباداتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول الا اذا

---

(١) سورة الحشر آية ٧

(٢) سورة الاعراف آية ١٥٧.

(٣) سورة الانفال اية ٢٤.

(٤) سورة الاحزاب آية ٣٦.

كان هناك امر غريب عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته فى أمر « الا اذا كان فعله أو قوله اجتهادا منه فى أمر دنيوى كما فى غزوة بدر حين راجعه الحباب ابن المنذر فى مكان النزول » (١) ومثل هذا انما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى فى الاسلام .

واذا كان الحال هكذا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه ايضا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل الى الرفيق الأعلى بعد ان اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الأمانة الالهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » (٢) كما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وبعد مماته كما فى الحديث السابق ووجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته ، لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولا بصحابته دون غيرهم ولأن العلة جامعة بينهم وبين من يأتى من بعدهم وهى انهم اتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته (٣) لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها الى من بعدهم .

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٦٦.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك وفى جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص.١٨والموطأ شرح الزرقانى ، والترغيب والترهيب.

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٦٧ .

ثانيا : منزلة السنة من القرآن وبيانها له :

تبين من البحث السابق أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة على المسلمين وأنهم تقبلوا منه السنة كما تقبلوا القرآن مستجيبين لله الذى أمرهم باتباع النبى وطاعته ،وذلك لأن للرسول صلى الله عليه وسلم مهمته وهى التبليغ وبيان ما فى القرآن من أحكام وقواعد وغير ذلك فرسالته ليست قاصرة على التبليغ ، وانما لابد مع التبليغ من البيان ، وهو الأمر الثانى فى اثبات حجية السنة .

فالقرآن الكريم جاء بالأصول العامة ، ولم يتعرض للتفاصيل والجزئيات ، ولم يفرع عليها الا بالقدر الذى يتفق مع تلك الاصول ويكون ثابتا بثبوتها ، لا يعتريه تغير او تطور باختلاف الأعراف والبيئات ومرور الأزمان ، لأنه الكتاب الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اشتمل على العقائد والشرائع وعلى الآداب والأخلاق فكان تبيانا لكل شئ ، وجاءت السنة الشريفة توافق الكتاب الكريم وتتعرض للتفصيلات والجزئيات . ففسرت مبهمه وفصلت مجمله وقيدت مطلقه وخصصت عامه وشرحت أحكامه كما أتت السنة كذلك بأحكام لم يرد فى القرآن نص عليها وجاءت بهذا متممة ومطبقة لما فى القرآن الكريم فكانت مرتبتها بعد القرآن . « وأيضا فان السنة اما أن تكون بيانا للكتاب أو زيادة عليه ، فان كانت بيانا فهى فى الاعتبار بالمرتبة الثانية عن المبين ، فان النص الأصلى أساس والتفسير بناء عليه وان كانت زيادة فهى غير معتبرة الا بعد أن لا توجد فى الكتاب وذلك دليل على تقدم اعتبار الكتاب » (١) وكل ما جاء فى السنة النبوية .

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٢٤ .

على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم انما يتبع فيه ما يوحى اليه قال تعالى : « قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى » (١) ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له ، وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٢) ، وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٣) اذا فالرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس ما نزل اليهم لا يصدر فى بيانه من تلقاء نفسه وانما يتبع ما يوحى اليه ، وقد امتن الله تعالى على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب . ليشرح ما جاء فيه ، ويظهر المراد منه فقال تعالى : «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (٤) . وروى المقداد بن معد يكرب قال : « حرم النبى صلى الله عليه وسلم أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكة يحدث بحديثى فيقول بينى وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه و ان ما حرم رسول الله مثل ماحرم الله »(٥) .

---

(١) سورة الانعام آية (٥٠)
(٢) سورة النساء آية (٨٠)
(٣) سورة الحشر آية (٧)
(٤) سورة النحل آية (٤٤)
(٥)رواه الترمذى (٢ : ١١١) وابن ماجه (١ : ٥) والدارمى (١ : ١١٧) تحقيق السيد عبد الله يمانى ورواه الامام أحمد فى المسند(٤ : ١٣٠)وهو حديث صحيح كما قال الترمذى

وينقسم بيان السنة الى اقسام :

الأول : بيان التقرير ، وهو ان تكون السنة موافقة لما جاء به القرآن ومؤكدة له ، ومن ذلك : ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة والحج ، وصوم رمضان » [(١)] فانه يوافق قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » [(٢)]وقوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » [(٣)] وقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » [(٤)].

الثانى : بيان التفسير لما جاء فى القرآن ، وهذا القسم أغلب الاقسام وأكثرها ورودا ، فمنه بيان المجمل : كالاحاديث التى بينت العبادات وكيفيتها كفريضة الصلاة مثلا فقد فرضها الله تعالى فى القرآن من غير أن يبين أوقاتها وعدد ركعاتها وأركانها وكيفيتها ، فبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذلك كله بصلاته وتعليمه الناس وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » [(٥)] ومثل ذلك فى الحج والزكاة وغير ذلك من

---

(١) فتح البارى ج١ ص٥٥ ، ورواه مسلم من طريق سعد بن عبيدة بتقديم الصوم على الحج ج١ ص.١٥ط الشعب ورواه أيضا بتقديم الحج على الصوم ص١٥١ ورواه الترمذى ج٤ ص١١٩ وقال حديث حسن صحيح ، والمسند ٣٦٤/٤.

(٢) سورة البقرة (٨٣) .

(٣) سورة البقرة (١٨٣)

(٤) سورة آل عمران (٩٧) .

(٥) أخرجه البخارى ج١،ص١٢٥حاشية السندى ، وأخرجه الدارمى ج١ص.٢٣ بتحقيق السيد يمانى ٢ وأخرجه الامام أحمد والنسائى ج٢ ص٥٩ بنحوه والشافعى فى مسنده ص١٩.

العبادات التى وردت فى القرآن مجملة وفصلتها السنة النبوية . ومن هذا القسم تقييد المطلق : كالاحاديث التى بينت المراد من اليد فى قوله «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » (١) فوضحت السنة أنها اليد اليمنى وان القطع من الكوع لا من المرفق . (٢)ومن هذا القسم أيضا تخصيص العام ، كالأحاديث التى خصصت الوارث والمورث فى قوله تعالى: « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » (٣) فخصت السنة المورث بغير الأنبياء قال صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » (٤) كما خصت السنة الوارث بغير القاتل ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس للقاتل شئ وإن لم يكن له وارث فوارثه أقرب الناس اليه ، ولا يرث القاتل شيئا » (٥).

الثالث : أن تكون السنة ناسخة لحكم ثبت بالقرآن على رأى من يجوز نسخ الكتاب بالسنة وهذا مثل حديث « لا وصية لوارث »(٦) فهذا الحديث نسخ حكم الوصية للوالدين والأقربين الوارثين الثابت بقوله « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين

---

(١) المائدة (٣٨) .

(٢) الحديث والمحدثون ص٣٨.

(٣) سورة النساء (١١)

(٤) فتح البارى ج٦ ص٢٨٩ صحيح مسلم ج٣ ص١٣٧٨ ، مسند أحمد ج١ ص٣٣٤ شاكر والموطأ ص ٢٦٤ .

(٥) رواه أبو داود فى سننه (٣١٣:٤) من طريق محمد بن راشد باسناد صحيح . ورواه الترمذى (١٤:٢) ، سنن ابن ماجه : (٧٤:٢) .

(٦) سبق تخريجه ص٦ .

بالمعروف حقا على المتقين » [١] والنسخ من قبيل البيان لأنه بيان انتهاء امد الحكم ولذلك يطلق عليه بعض علماء الاصول بيان التبديل » [٢] .

الرابع : ان تكون السنة دالة على حكم لم يرد فى القرآن وهذا القسم اختلف العلماء فيه ، فذهب الجمهور الى أن السنة أثبتت أحكاما جديدة على طريق الاستقلال . وذهب صاحب الموافقات وآخرون الى أنها أثبتت أحكاما داخلة تحت نصوص القرآن ولو بتأويل وقال الشافعى رحمه الله فى القسمين الأول والثانى : « والوجهان يجتمعان ويتفرعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل مانص الكتاب والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما » [٣] ، ثم ذكر الامام الشافعى هذا القسم الذى دلت السنة فيه على حكم لم يرد فى القرآن فذكر اختلاف العلماء فيه قال « فمنهم من قال جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . ومنهم من قال لم يسن سنة قط الا ولها أصل فى الكتاب كما كانت سنته لتبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع لأن الله قال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »[٤] : وقال « وأحل الله البيع وحرم الربا » [٥] فما أحل و حرم

(١) سورة البقرة .١٨٠.
(٢) الحديث والمحدثون ص.٤٠ .
(٣) الرسالة ص ٩٢ .
(٤) سورة النساء (٢٩) .
(٥) سورة البقرة (٢٧٥) .

فانما بين فيه عن الله كما بين الصلاة ، ومنهم من قال « بل جاءته به رسالة الله فأثبتت سنته بفرض الله » ومنهم من قال « ألقى فى روعه كل ما سن وسنته الحكمة التى ألقى فى روعه عن الله . فكان ما ألقى فى روعه سنته » [١].

ويتضح من كلام الامام الشافعى السابق أن أصحاب الرأى الأول والثالث والرابع يرون أن السنة تستقل بالتشريع فى بعض الأمور ، أما أصحاب الرأى الثانى فيرون أنها لا تستقل بالتشريع وانما تدخل أحكامها ضمن نصوص القرآن .

أدلة القائلين بالاستقلال :

استدل القائلون باستقلال السنة بالتشريع فى بعض الامور بأنه قد ورد فى القرآن الكريم ما يوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » [٢] وقال تعالى « وماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » [٣] فدلت الآيات على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وينهى عنه ، دون تفريق بين السنة المبينة أو المؤكدة أو المستقلة ، وهكذا كل أدلة القرآن تدل على أن ما جاء به الرسول و كل ما أمر به ونهى فهو لاحق فى الحكم بما جاء فى القرآن فلابد أن يكون زائدا عليه » [٤] كما وردت بعض الأحاديث

---

(١) الرسالة للامام الشافعى ص٩٣ .
(٢) سورة النساء (٨٠) .
(٣) سورة الحشر (٧)
(٤) الموافقات (٤ : ١٣)

الدالة على وجوب الأخذ بما فى السنة من الأحكام كما يؤخذ بما فى الكتاب مثل قوله صلى الله عليه وسلم « يوشك بأحدكم أن يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه وماكان فيه من حرام حرمناه الا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذى حدثه » (١).

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتبليغ أحكامه من أى طريق سواء كان بالكتاب أو غيره ، وعصمه من الخطأ فلا مانع من استقلال السنة بالتشريع .

وأما قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» (٢) فلا تفيد الآية قصر مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم على البيان ، بل يستفاد منها ومن قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أن الرسول يبين للناس كتاب ربهم واذا جاوز البيان الى الأحكام التى لم يتعرض لها القرآن فانه حينئذ لا « ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » وقد صرح بذلك بعض علماء السلف فمن ذلك ما يروى عن عبد الرحمن بن يزيد انه رأى محرما عليه ثيابه فنهاه فقال : أئتنى آية من كتاب الله تنزع ثيابى ؟ فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٣).

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر .
(٢) سورة النحل (٤٤) .
(٣)جامع بيان العلم جـ ٢ ص ١٨٩ ، الحديث والمحدثون ص ٤٤

أدلة المنكرين للاستقلال :

وقد استدل أصحاب هذا الرأى بأن السنة بيان للقرآن ، كما قال تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » وأجابوا عن أدلة القائلين باستقلال السنة بأن الآيات التى تفيد وجوب طاعة الرسول يقصد منها وجوب طاعته فى بيانه وشرحه « ولا يلزم من افراد الطاعتين تباين المطاع فيه باطلاق فلا دليل فيها على أن ما فى السنة ليس فى الكتاب ، واذا كانت هناك أحكام زائدة فليست بزائدة بزيادة شئ ليس فى القرآن بل زيادة الشرح على المشروح » [١] وعلى هذا الرأى تكون الأحكام الواردة فى السنة اشتمل عليها القرآن بطريق الاجمال فصح أن تكون السنة بيانا للقرآن عن طريق الالحاق أوالقياس أواستنباط القواعد العامة من الجزئيات أما الالحاق فقد ينص القرآن على حل شئ وحرمة شئ آخر ويكون هناك شئ ثالث لم ينص على حكمه وهو أخذ من كل منهما بطرف فيكون ثم مجال للاجتهاد فى إلحاقه بأحدهما فيعطيه النبى صلى الله عليه وسلم حكم أحدهما ومثال ذلك : أن الله تعالى أحل صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرم الميتة فيما حرم من الخبائث فدارت ميتة البحر بين الطرفين وأشكل حكمها فقال صلى الله عليه وسلم : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »[٢] وأما القياس فقد ينص القرآن على حكم شئ فيلحق به الرسول صلى الله عليه و سلم ما يشاركه فى العلة قياسا عليه ، و مثال ذلك أن

(١) السنة ومكانتها فى التشريع ص٤٣٢ بتصرف يسير .

(٢) اخرجه اصحاب السنن : سنن ابى داود بتحقيق محمد محى الدين ج١ ص٢١ ، والترمذى ج١ ص٤٧ وقال هذا حديث حسن صحيح ورواه الامام مالك فى الموطأ ص ٤٣ط المجلس الاعلى والدارمى ج١ ص١٥١ كلهم برواية ابى هريرة .

الله تعالى حرم الجمع بين الأختين ثم قال : « وأحل لكم ما وراء ذلكم »[١] ثم جاء نهيه صلى الله عليه وسلم عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى » [٢]وأما طريق استنباط القواعد العامة من نصوص القرآن الجزئية فذلك بأن تأتى نصوص من القرآن فى معان مختلفة لكن يشملها معنى واحد فتأتى السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد فيعلم أنه مأخوذ من مجموع تلك النصوص ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل إمرئ ما نوى»[٣] فهاتان قاعدتان تؤخذان من الآيات التى تحث على الاخلاص مثل قوله تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » [٤] وقوله تعالى « الا لله الدين الخالص » [٥]وقوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » [٦].

---

(١) النساء (٢٤) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج٣ ص٥٦٢ ، الموطأ ص١٧٧ ، الام ج٥ ص٤ ، نيل الاوطار ج٦ ص٢٨٥ سنن أبى داود ج٢ ص٢٢٤ ، جامع الترمذى ج٢ ص٢٩٧ وقال : حديث صحيح ، وابن حبان بزيادة فأنكم اذا فعلتم قطعتم أرحامكم وهو المعنى الذى حرم الجمع بسببه .

(٣) فتح البارى ج١ ص٩ المسند ج١ ص٣٠٢ ورواه مسلم ج٦ ص٤٨ والترمذى ج٦ ص٤٨ وهو حديث حسن صحيح .

(٤) البينة (٥)

(٥) الزمر (٣)

(٦) الكهف (١١٠)

ويمكن الجمع بين ما ذهب اليه الفريقان بأن الجميع متفقون على : وجود أحكام فى السنة لم ينص عليها فى القرآن ولكن القائلين بأن السنة لا تأتى بأحكام زائدة عما فى القرآن أرادوا أن القرآن اشتمل على جميع الأحكام اجمالا أو تفصيلا فعلى رأيهم أن الأحكام داخلة تحت النصوص من الوجوه ، وأما القائلون بأنها تأتى بأحكام زائدة فأرادا بذلك الأحكام التفصيلية التى لم يرد فيها نص صريح فعلى رأيهم أن السنة تستقل بالتشريع لأنها أثبتت أحكاما جديدة ، فكل واحد من الفريقين متفق على وجود أحكام زائدة عما فى القرآن وانما الخلاف فى مخرجها فالخلاف اذا لفظى لأن النتيجة واحدة وهى وجود أحكام جديدة سواء سمى ذلك استقلالا أم لا (١)

(١) الحديث والمحدثون ص٤٥ السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٣٣.

الفصل الثانى

منهج الاسلام فى العبادة والعمل والأخلاق

قال الله تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وقال سبحانه: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال « وما جعل عليكم فى الدين من حرج »

وقال الامام مسلم رحمه الله : حدثنا زهير بن حرب واسحاق بن ابراهيم قال زهير : حدثنا جرير عن منصور عن ابراهيم عن علقمة قال : سألت أم المؤمنين عائشة قال : قلت : ياأم المؤمنين كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان يخص شيئا من الأيام ؟ قالت : كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع .

وقال الامام مسلم : وحدثنا ابن نمير حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سعيد أخبرنى القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى عليه وسلم : أحب الأعمال الى الله تعالى أدومها وإن قل ، قال : وكانت عائشة اذا عملت العمل لزمته .

وروى الامام البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة تذكر من صلاتها ،قال : مه عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين اليه ما داوم عليه صاحبه ، وجاء فى رواية الامام

مالك أن المرأة المذكورة من بنى أسد ، وفى رواية الامام مسلم انها الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى من رهط خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وقيل عنها : إنها كانت لا تنام الليل .

وأما ذكر السيدة عائشة رضى الله عنها للمرأة ومدحها لها مع النهى عن المدح فلعلها أمنت عليها الفتنة فلذلك مدحتها فى وجهها ولكن رواية حماد بن مسلمة عن هشام فى هذا الحديث تدل على أنها ما ذكرت ذلك الا بعد أن خرجت المرأة أخرجه الحسن بن سفيان فى مسنده من طريقه ولفظه « كانت عندى إمرأة فلما قامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه ياعائشة ؟ قالت يارسول الله هذه فلانة وهى أعبد أهل المدينة الحديث . وكلمة مه مبنية على السكون وهى اسم فعل بمعنى اكفف وهذا النهى متجه الى السيدة عائشة حتى لا تمتدح المرأة بما ذكرت كما يحتمل أن يكون نهيا عن الفعل المذكور وهو قيام الليل كله وقد قال بعض الأئمة بكراهة صلاة جميع الليل ومعنى عليكم بما تطيقون أى افعلوا من الأعمال ما يمكنكم أن تداوموا عليه ومنطوقه : يقتضى الأمر بأن يقتصر المسلم على ما يطيقه من العبادة ومفهومه : يقتضى النهى عن تكلف ما لا يطاق ولئن كان سبب ورود هذا الحديث خاصا بالصلاة الا أن لفظه عام وجاء الخطاب به عاما فى قوله عليكم مع أن المخاطب النساء ومعنى « لا يمل الله حتى تملوا » الملال هو استثقال الشئ والنفور عنه بعد محبته وهذا المعنى لا يمكن أن يستقيم بالنسبة لله تعالى بل هو محال ولكن جاء التعبير به على جهة المقابلة اللفظية مجازا كقوله تعالى « وجزاء سيئة

سيئة مثلها » وقال الهروى معناه لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا سؤاله فتزهدوا فى الرغبة اليه وقيل ان حتى بمعنى الواو وعليه فيكون التقدير لا يمل وتملون والأولى أنه من باب المقابلة ومعنى « أحب الدين اليه ما داوم عليه صاحبه » المحبة من الله تعالى إرادة الثواب أى أكثر الأعمال ثوابا أدومها لأن بدوام العمل القليل تستمر الطاعة والإخلاص والإقبال على الله بخلاف الكثير الشاق فان العمل الدائم ولو كان قليلا ينمو ويصبح أكثر من الكثير المنقطع اما الذى يترك العمل بعد الدخول فيه فهو كالمعرض بعد الوصل .

ولطالما وجه الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بأن يأتوا من الأعمال ما يوافق استطاعتهم كقوله « اذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم » وهذا عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت بلى يارسول الله قال فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فان لجسدك عليك حقا وأن لعينيك عليك حقا وأنه بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام فان لك بكل حسنة عشر أمثالها (رواه البخارى)

ومن المعلوم أن منهج الاسلام قام على الاعتدال والقصد فى الأمور كلها لا إفراط ولا تفريط قال تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وقال « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » وقال تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال « وما جعل

عليكم فى الدين من حرج » وقال صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون » أى الذين يبالغون ويتشددون فى الأمور وقال « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا واغدوا وروحوا » وهكذا يتبين لنا حرص الشريعة الاسلامية على اليسر فمعروف أن العمل القليل الذى يكون متصلا يكون صاحبه منشرح الصدر نشيطا للعبادة بخلاف الكثير الشاق فانه بصدد أن يتركه الانسان أو أن يفعله بتكلف وبغير انشراح وقد ذم الله تعالى من اعتاد عبادة ثم أفرط فيها فقال « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » .

وكثيرا ما نادى الاسلام بتواصل أعمال الخير ودوامها وعدم احتقار اليسير منها قال عليه الصلاة والسلام «يانساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاه » والفرسن هو عظم قليل اللحم ويطلق على الظلف وقد قال تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وقد قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يغالون فى أعمالهم روى أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا حبل ممدود بين الساريتين فقال ما هذا الحبل قالوا هذا حبل لزينب تقوم تصلى فاذا فترت قامت فتعلقت به فقال النبى صلى الله عليه وسلم حلوه ثم قال « ليصل أحدكم نشاطه فاذا فتر فليرقد » . كما روى أنس رضى الله عنه أيضا قال « جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما اخبروا كأنهم تقالوها - أى عدوها قليلة - وقالوا أين نحن من النبى صلى الله عليه و سلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

قال أحدهم أما أنا فأصلى الليل ابدا وقال الآخر وأنا أعتزل النساء فلا اتزوج أبدا .. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقال انتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله انى لأخشاكم لله واتقاكم له لكنى اصوم وافطر واصلى وارقد واتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقد حكى أن أقواما أتوا قيس بن عبادة يسألونه أن يعاونهم على أداء دية لزمتهم فنظروا اليه فرأوه وهو فى البستان يجمع ما يتساقط من الثمر ويميز بين الجيد والردئ . فلما انتهى من عمله سألوه ما أرادوا فأعطاهم ما طلبوه ، فقال له بعضهم : لقد داخلنا بعض الشك فى جودك بعد أن رأينا ما تصنعه فى البستان ، فأجابهم ان ما رأيتم من حرص على مالى هو الذى مكننى من تحقيق غرضكم أى ان الاعتدال فى الأمور كلها والتوسط بين الافراط والتفريط ، يحفظ على الانسان مواصلة العمل ، والاستمرار فى وجوه الخير والنفع العام ، وقد كان منهج الاسلام فيما يتصل بهذا الجانب عاما وشاملا لسائر العبادات والأعمال ، ووجوه النفع الشامل . ولم يدع جانبا من تلك الجوانب الا وجه المسلم الى الاعتدال فيه، بحيث لا يكون هناك افراط ولا تفريط ، ولا مغالاة ولا تقصير .

ففى جانب الأكل والشرب ، قال تعالى:« وكلوا واشربواولاتسرفوا »

وفى جانب الانفاق والصدقة نادى القرآن بالاعتدال بحيث لا يكون المسلم بخيلا ولا مبذرا فقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .. » .

وفى جانب العبادة ، لم يكلف الله الناس بما لا طاقة لهم به . قال

تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . وروى الامام احمد بسنده عن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله ما في السماوات وما في الأرض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفرلمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير»

اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب وقالوا : يارسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا و عصينا بل قولوا: « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » .

فلما أقر بها القوم ونطقت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقال سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل قوله : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به و اعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

وقد كشفت السنة الشريفة عن هذا الجانب من التجاوز والعفو .. روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم » .

وقد اجتهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى تثبيت منهج الاعتدال فى الأعمال والعبادات عند المسلمين حرصا منه على استمرارهم فى العمل ورأفة منه بهم ، وصدق الله تعالى اذ يقول « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » لقد حرص على ترسيخ هذا المنهج المعتدل ، حتى أنه كان يترك - فى بعض الأحيان - بعض الأعمال ، فلا يقوم بأدائها أمام الناس مخافة أن يواظبوا عليها فتفرض عليهم . عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل الناس به فيفرض عليهم ، وما سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط وانى لأسبحها »وهى نافلة الضحى

وصدق الله تعالى اذ يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ومعنى الآية : ان الله تعالى يمتن على المؤمنين حيث أرسل اليهم رسولا من جنسهم وعلى لغتهم ، كما دعا ابراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى حكاية عنه « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » وقال تعالى « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

وأنه يعز عليه ما يعنت أمته أو ما يشق عليها ، لأنه بعث بالحنيفية السمحة وهو حريص كل الحرص على هداية أمته والتيسير عليها ووصولها الى سعادة الدنيا والآخرة ، وفيما رواه الامام أحمد عن ابن عباس .. أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه .. فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه .. اضرب مثل هذا ومثل أمته . فقال : ان مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا الى رأس مفازه ، ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازه ولا ما يرجعون به ، فبينما هم كذلك اذ أتاهم رجل فى حلة حبرة ، فقال : أرأيتم ان وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعونى؟ فقالوا : نعم. قال : فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم : ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لى أن وردت لكم رياضا معشبة وحياضا رواء ان تتبعونى فقالوا : بلى فقال : فان بين أيديكم رياضا هى أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه فاتبعونى فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه » كل هذا يدل على رأفه الرسول صلى الله عليه وسلم ورحمته بأمته وإتباعه معها طريقة اليسر والتسامح فإنه يعز عليه أن ترى شيئا يشق عليها أو حرجا تلاقيه لأنه بعث رحمة للعالمين وقال صلى الله عليه وسلم : « انما أنا رحمة مهداه » فالرحمه جوهر رسالته قال تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » والطريق إلى هذه الرحمة يسير فى إتجاهين مستقيمين مستنيرين احدهما : فى التيسير فى التكاليف والعبادات ، والرحمة بالأمة فى كثير من أحكام الإسلام كما هو معروف .

والثانى : بدوام العمل والعبادة ، واستمراره ، وعدم انقطاعه ، فكلما استمر المسلم فى العبادة وداوم عليها وإن كانت قليلة داوم الله تعالى باسباغ رحمته عليه ، ورفقه به ، ورعايته له وحبه اياه ، لان هذا

المنهج من السلوك هو أحب الأعمال الى الله سبحانه وتعالى . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال الى الله تعالى ادومها وان قل » أما نتيجة هذا الحب من الله تعالى فقد بينه فيما جاء فى الحديث القدسى : « ... فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها . ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ به لأعيذنه » .

ومن مظاهر حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته اجتهاده معهم فى جانب التكليف والعبادة الا يفعلوا ما يتسببون به فى الزيادة ومالا يستطيعون القيام به . عن ابى هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« ياأيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لو جبت ولما استطعتم » رواه أحمد ومسلم والنسائى وروى أحمد والنسائى بمعناه :

عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياأيها الناس كتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال: أفى كل عام يارسول الله فقال لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع . ومن مظاهر التيسير أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يشق على المسلمين ويتحاش ما يكون سببا فى تسرب الملل الى نفوسهم حتى ولو كان ذلك فى توجيهه وإرشاده فكان صلى الله عليه وسلم يتخول المسلمين بالموعظة كراهة السآمة عن ابن

مسعود قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا وكان يخشى اذا استمر فى التوجيه والتعليم أن يتسرب الملل الى اصحابه أو يأخذ التعب طريقه اليهم فكان يعطيهم فرصة للراحة والاستجمام والتشويق لتتمكن معلوماتهم فيها من التثبيت والتركيز ولهذه الطريقة الرشيدة تدين مؤسسات التربية اليوم التى استمدت نظمها الناجحة من هذا المنهج النبوى الحكيم وحين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن زوده بالتوجيه الكافى وامره ان يسير على سنن التدريج معهم فيقول له « انك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله وانى رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله أفترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

ويتبادر هنا سؤال هو ، أن الله تعالى قد أمرنا بالأقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » ومن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقوم الليل متهجدا راكعا ساجدا حتى تتورم قدماه وتفيض عيناه بالدمع من خشية الله حتى يسمع لصدره أزيز المرجل من البكاء فتقول له فى ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها أتفعل ذلك يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيجيبها افلا

أكون عبدا شكورا . وكان يواصل الصيام والوصال - والوصال : هو الترك في ليالي الصيام لما يفطر بالنهار بالقصد - ومع هذا فقد نهى عن الوصال بالنسبة للمسلمين فلم لم يكن الأقتداء به في مثل هذه الأمور ؟ أو بمعنى آخر كيف يأمر بالتيسير وهو يأتي مثل هذه الأعمال الشاقة ؟ وللاجابة على هذا نقول : ان كل حكم يثبت في حق النبي صلى الله عليه وسلم فهو ثابت ايضا في حق أمته الا ما استثنى بدليل كبعض خصائصه صلى الله عليه وسلم ، فان خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتأسى به في جميعها وقد توقف في ذلك « إمام الحرمين » وقال أبو شامة : ليس لأحد التشبه به في المباح كالزيادة على أربع نسوة ويستحب التنزه عن المحرم عليه « كالأكل من الصدقة » ويستحب التشبه به في الواجب عليه كالضحى ، قال الحافظ بن حجر : وأما المستحب ، أي في حقه صلى الله عليه وسلم فلم يتعرض له والوصال فيه أي وصال الصيام من قبيل المستحب في حق النبي صلى الله عليه وسلم فيحتمل أن يقال : ان لم ينه عنه لم يمنع الاتساء به فيه ولعل مراده بقوله : « ان لم ينه عنه » أي بالنسبة لبعض الناس وفي بعض الأحوال وهذا نادر وأما الأعم الأغلب فهو ما ورد بشأنه السنة الصحيحة الصريحة في ذلك من النهي عن الوصال روى الامام البخاري رحمه الله بسنده:عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :إياكم والوصال مرتين قيل:إنك تواصل قال : « اني ابيت يطعمني ربي ويسقيني فاكلفوا من العمل ماتطيقون ».

الأخلاق فى الاسلام

الخلق هيئة نفسية ثابتة تصدر عنها الأفعال الحميدة من غير تكلف أو تعسف .

وقد وثق الإسلام صلة الخلق بخالقهم وعمل على تزكية العلاقات الإنسانية وتنميتها، فمهد لها تربتها الطيبة المنجبه وذلل كل وسائل الولاء والنقاء بماأشاعه فيها من خصب ومابثه فى جوانبها من مكارم مترعة بكل المثاليات وما طهر به مجرى حياتها من رذائل كانت تشكل ظلمات بعضها فوق بعض . وكان النموذج الحى الذى تمثلت فيه طهارة الظاهر ونقاء الباطن هو السلوك النبوى الشريف فقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم متمما لمكارم الأخلاق وموضحا لها بسنته المطهرة قولا وعملا واحتوت هذه المكارم آمال الناس فى شتى الجوانب وهيأت للحياة الطيبة مناخها الملائم وجوها الرحب وامتدت أنظارها الحية وأبعادها الحانية حتى شملت القريب والغريب ومن لا يستقل بأمره ومن يستقل كل ذلك نلمحه فى ضوء العبارة البليغة التى قالتها السيدة خديجة بنت خويلد عندما رجع الرسول صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ودخل عليها وقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » فقالت له خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » فالسيدة خديجة رضوان الله تعالى عليها عندما استشفت روحها الأمر

العلوى وأبصرت أضواء الوحى الإلهى وقرأته على جبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، طبقت ذلك على أحواله النابضة بكل مكرمة ومعروف. فرأت أن الكل إنما يتبع من مشكاة واحدة فأصدرت حكمها بأن الله لا يخزيه أبدا وأقسمت على ذلك وأردفت القسم بالدليل المطابق الذى يتضمن جماع مكارم الأخلاق .

ولقد تمثلت أعظم المكارم وأسماها فى الرسول صلى الله عليه وسلم فانبعثت من نفسه الشريفة عظمة الأخلاق المشرقة ووصفه ربه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » وتحدث هو بنعمة الله عليه يقول : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » كما شرحت السيدة عائشة رضوان الله عليها ما هية الخلق النبوى فى إيجاز ودقة إذ تقول : « كان خلقه القرآن » والقرآن هو كلام الله العزيز الحكيم فكأن كل فضيلة حض عليها وكل صفة حميدة دعا إليها قد أتصف بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهى تتركز فى صفات مثلى وأسماء حسنى اتصف بها العلى القدير سبحانه وكانت هذه الصفات هى منابع الأخلاق الأصيلة وجماعها . يقول المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « الفلسفة القرآنية » :

« وجماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التى اتصف بها الخالق سبحانه فى أسمائه الحسنى وكلها مما يحمد للإنسان أن يروض نفسه عليه وأن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود فيما عدا الصفات التى خص بها الخالق دون سواه »

ووقوف الإنسان على الفضائل الجليلة ، والتحلى بمكارم الأخلاق

يحتاج إلى مقاومة لكل نوازع النفس والهوى متأهبا فى كل ذلك بعزم الأمور وهو ما قطعه الله على عباده من الأمور لمزيد أهميتها ومزيتها .

قال تعالى : « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » .

وقال تعالى : فيما يحكيه من وصايا لقمان لابنه : « يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »

وقد تجمعت مكارم الأخلاق فى الرسول صلى الله عليه وسلم فكان أحسن الناس خلقا وأطهرهم قلبا وانقاهم ضميرا وأجملهم وجها وأزكاهم رائحة فجمع جمال الظاهر وصفاءه وطهارة الباطن ونقاءه . عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا » .

وقال : « ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى قط أف ، ولا قال لشئ فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشئ لم أفعله : ألا فعلت كذا » ؟

وقد أبرز القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الخلق الحسن وكشف لنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن آثاره ونتائجه قولا وعملا فى الدنيا وفى الآخرة يقول الله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » وهكذا ترى نتيجة الخلق الحسن فى

الدنيا وكيف يعالج به القرآن نفوس البشر بهديه الناجح وشفائه لما فى الصدور وكيف يتحول به العدو والمتربص إلى صديق حميم وهنا يصل الإسلام بالإنسانية إلى مرافئ الأمان وطمأنينة النفس ويمسح كل ما علق بالجو النفسى من إحن وأضغان ويزرع فيها كل معانى الولاء والتعاطف حيث يتماسك المجتمع الإسلامى وتعزف حياته معانى النبل والتسامح .

وقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قولا وفعلا : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا وكان يقول : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقا » .

كما بين ذلك بفعله فكان بحق الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا وفى الحديث المتفق عليه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل اتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيته يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا بها جبريل صلى الله عليه وسلم فنادانى فقال : ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيه فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك فتأمرنى بأمرك فيما شئت ؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين –

وهما الجبلان المحيطان بمكة - فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » ، كما وضح الرسول صلى الله عليه وسلم نتائج الخلق الحسن فى الآخرة وأن المؤمن ليدرك بها عند ربه درجة تبلغ فى سموها مكانة الصائم القائم فكأنها عبادة مستمرة تنشر ظلالها الوارفة فى الحياة الدنيا وتؤتى ثمارها الطيبة فى الآخرة ، روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » ، ومعلوم أن الصيام والقيام لونان من ألوان العبادة وهما أبعد العبادات عن الرياء والتظاهر لما ينطويان عليه من الإخلاص التام لله حيث يتمان فى السر ويملآن الوعاء الزمنى كله نهارا بالصيام وليلا بالقيام ولا يعلم حقيقتهما إلا علام الغيوب وإنما يصل المرء بحسن خلقه هذه الدرجة لأنه بلغ فى صفاء سريرته ما بلغه الصائم القائم فيها ، ثم إن رعاية الرسول صلوات الله وسلامه عليه للأخلاق لا تقف عند بيان ما تضمنته من مثوبة تبلغ مثوبة الصيام والقيام فحسب إن اهتماماته لتتابع مسيرة الأخلاق حتى تجلى لنامنزلتها فى الدين ومكانتها بالنسبة «للإيمان» ثم تبرز وزنها العظيم فى « ميزان » العدل الإلهى يوم توضع الموازين القسط بل إنه ليكشف لنا عن حفاوته بالأخلاق ورعايته لأربابها فيوضح مالها من مكانة مرموقة ودرجة سامقة « هى أعلى ما يكون فى الجنة » ثم لا يقف أصحاب الأخلاق الحسنة عند هذه الدرجة الرفيعة وإنما يكونون مع هذا أقرب الناس مجلسا من الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

أما بالنسبة لمنزلة الأخلاق من الإيمان فبها يكمل الإيمان روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم » .

وأما بالنسبة لوزنها فهى أثقل ما يوضع فى الميزان روى الترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من شئ أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذئ » .

وفى بيانه صلى الله عليه وسلم لأثر الأخلاق فى دخول الجنة يقول فيما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايدخل الناس الجنة قال : « تقوى الله وحسن الخلق وسئل عن أكثر مايدخل الناس النار قال : « الفم والفرج » ويضمن الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحاب الأخلاق الحسنة أعلى الجنة روى أبو داود عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم [1] ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وبيت فى وسط الجنة لمن حسن خلقه » وفيما رواه الترمذى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« إن أحبكم

(١) الزعيم : الضامن ، ربض الجنة : حولها .

إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا ، وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون

قالوا يارسول الله قد علمنا « الثرثارون » و« المتشدقون » فما المتفيقهون؟ قال : « المتكبرون » ومن تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للخلق مارواه عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال : « البر حسن الخلق والإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن المبارك رحمه الله فى تفسير حسن الخلق قال : « هو طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى » .ولقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الناس جميعا إلى مكارم الأخلاق منذ بدأ يقيم بناء الأمة ولم يكن لديه سلطة قانونية يؤدب بها المخالفين ولا ثروة طائلة يغرى بها طلاب الدنيا .

إذا فما الذى جعل الناس يهرعون إلى دعوته ويضربون أروع الأمثلة فى البذل والتضحية من اجله ؟ إنها الطاقات الوجدانية التى ألهبت عواطفهم الجياشة بالإيمان اقتداء واهتداء بالنور الذى اتبعوه وإنه الرصيد الجم من مكارم الأخلاق التى انبعثت من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فثبتت بها عقيدتهم وترعرع بها سلوكهم فشب من اعماقهم وازع الضمير ، يقرع قلوبهم بين الفينة والفينة إن علام الغيوب مطلع يعلم السر وأخفى وإنه الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم» ، « والله يعلم ماتسرون وما تعلنون » .

وهل هناك سلطة قانونية كانت أشد وأقوى من ذلك عندهم ؟ وهل هناك ثروة طائلة أروع من الرصيد الهائل الذى فرش حياتهم بأضواء الأمن والسعادة وانتزع سلطان المتجبرين ورد بطش المتسلطين ؟ لقد رأوا ذلك كله رأى العين فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فى السر والعلانية وأرهفوا إحساسهم إليه وكونوا بقلوبهم المؤلفة أعظم مجتمع إسلامى متوحد كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

هذا .. وإن العقيدة والخلق لصنوان لا ينفصلان فالعقيدة دون الخلق لا تؤتى ثمارها التى من أجلها كانت التشريعات السماوية والخلق دون العقيدة هباء منثورا لا أصل له ولا قيمة .

وتتبين لنا القيمة الأخلاقية كصمام لحياة المسلم ومعتصم لا يتخلى عنه من صدقت عقيدته حتى فى أحرج الأوقات .

ونظرة سريعة إلى المسلمين الأوائل .. إذا أصاب أحدهم نزغ من الشيطان فاقترف الخطيئة تحرك وازع الأخلاق من نفسه وأحس بفداحة جرمه فيلتمس الطهارة منه ، ويتقدم لنيل جزائه عليه في الدنيا قبل الآخرة .

روى الإمام مسلم بسنده عن بريدة قال : « جاء ماعز بن مالك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله طهرنى ، فقال : ويحك فاستغفر الله وتب إليه قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يارسول الله طهرنى فقال النبى الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فلما كانت الرابعة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيم أطهرك ؟ فقال : من الزنا فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون . فقال

أشرب خمرا ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أزنيت ؟ فقال : نعم . فأمر به فرجم ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال : استغفروا لماعز بن مالك ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم » .

وهكذا نرى كيف سمت أرواحهم وصفت فحافظوا على أحكام الشريعة ونفذوا حدودها مهما كلفهم ذلك .

النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم

إن الحديث عن الأخلاق فى ذروتها ، وفى القدوة الحسنة فيها هو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتصل بسلوكه وخلاله وأفعاله وأقواله ، والحديث عن الأخلاق فى رحاب السنة هو بيان لما جاء فى القرآن الكريم ، لأن السنة مبينة للقرآن وقد كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن لذا رأينا أن نلقى بعض الضوء على خلق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أولا : فيما يتعلق برحمته وعطفه على أمته وسلوكه الأخلاقى .

ثانيا : فيما يتعلق بدعوته إلى الأخلاق ، وما أبرزته أحاديثه الشريفة من قيم ومبادئ يجب التمسك بها فقد أقتضت مشيئة الحق أن تلقى السماء بالأمانة الإلهية ، وأن تختم الرسالات بآخر رسول يكون خاتم النبيين يتمم مكارم الأخلاق ، وتخرج بالبشر من بين أسوار ليل متجهم وجهالة مطبقة ووثنية محدقة إلى واحة فجر مترعرع ريان ، يجتث من طريقه جذور الرذيلة ويزرع على ضفافه كل فضائل الخير ، فيعطر الوجود عبيره ويمنح الحياة رشده ويخرج الناس من الظلمات إلى النور وصدق الله إذ يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »

وعلى يديه تمت المكارم فعاش العالم فى ظل أيامه الوارفة وقد وجد

الحق الذى أفتقده والعدل الذى غاب عنه ، والفضائل التى دفنت تحت وطأة الظلام فاستعادت الحياة رشدها ويقينها وبدأت فى ظل إيمانها .. وما أفاءه عليها من سعادة وإشراق ترى الوجود بمنظار مبين على هدى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم حيث يجعل رسالته وصدق الله إذ يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما » .

ومن فضل الله ورعايته للرسول صلى الله عليه وسلم أن منحه خصائص تميزت بها شخصيته الكاملة وتمتعت على ضوئها حياة الناس ونعم الجو الإسلامى بما ساد فيه من دفء الإيمان ، وراحة اليقين وقد أبرز هذه الخصائص فى حديثه الشريف عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون » .

وهكذا تطالعنا آيات القرآن والسنة الشريفة على مكانة الرسول صلوات الله وسلامه عليه عند ربه سبحانه وتعالى كما تطالعنا الآيات بفيض غامر من الآداب الإلهية التى أوجب الله علينا أن نلتزم بها تجاه رسوله فنعرف له مكانته الشريفة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود قال تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » وقال « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر

بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

وفرض الله تعالى طاعة رسوله وقرنها بطاعته سبحانه : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وبين سبحانه ثمرة هذه الطاعة : وهي أنها سبيل إلى الهداية وسبيل إلى الرحمة « وإن تطيعوه تهتدوا » وقال تعالى : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

وأوجب سبحانه على المؤمنين - بجوار هذه الطاعة - أن يكون الله ورسوله أحب إليهم من كل عزيز وغال في الحياة قال تعالى « قل إن كان آباؤكم وابناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

وقد استجاب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لدعوة ربهم ، فغردت حياتهم بالحب وتهللت أيامهم بهدى الله ورسوله سئل الإمام على بن أبي طالب : كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان رسول الله أحب الينا من أموالنا وأولادنا ، وآبائنا وأمهاتنا واحب إلينا من الماء البارد على الظمأ .

إذا فالله تعالى قد أفاض علينا من الآداب الإلهية تجاهه سبحانه وتجاه رسوله عليه الصلاة والسلام ، ما يمهد لنا طريق الخير ، ويذلل أمام مسيرة الحياة كل عسير ، إذا ما اتبعناها ، واعتصمنا بما تتضمنه تلك

المبادئ من قيم سلوكية وروحية يحتضنها صدق الحب ، وتترجمها أعمالنا فتفيض الحياة بالنور وتجيش العواطف بالمودة وفى مناخ الحب الإلهى العاطر يصيب الإنسان حلاوة الإيمان ويذوق السعادة الحقة كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعدأن أنقذه الله منه كمايكره أن يقذف فى النار»

أما مكانة هذا الحب فهى المكانة الأولى ، حيث لا يتقدم على حب الله ورسوله شئ وإلا فقد اهتز الإيمان ونقص وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين ، وفى الصحيح كذلك : أن سيدنا عمر رضى الله عنه قال: يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسى فقال صلى الله عليه وسلم لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال : يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شئ حتى نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الآن ياعمر » وهنا قد صدق الإيمان واكتملت معالمه وأشرقت دلائله فى النفس المؤمنة .

ولقد بلغت محبتهم من الصدق والعمق ما جعلهم يقدرونه حق قدره ويجلونه الإجلال كله مما يضفى على قلوبهم مهابته قال عمرو بن العاص فيما أخرجه مسلم : « ما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل فى عينى منه وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له حتى لو قيل لى : صفه ما استطعت أن أصفه »

وقد فاقت محبتهم له محبتهم لأنفسهم ، فنذروا أرواحهم لفدائه حيث رأوا فيه الرحمة الشاملة للعالمين ، والنور الإلهى الذى هدى الله به الخليقة الإنسانية إلى حياة الإيمان والاطمئنان .

روى البيهقى عن عروة قال : لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه وكان قد أسر يوم الرجيع - قال له أبو سفيان بن حرب ، وهو يومئذ مشرك : أنشدك بالله يازيد : أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا فى مكانه الذى هو فيه مقيم تصيبه الشوكة ، وإنى جالس فى أهلى فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا، تلك هى مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند الله وعند الناس، أما منزلته بالنسبة للأنبياء فهو من أولى العزم من الرسل بل هو أولهم فى الرتبة العلية ، والدرجة السنية ، ولذا قدمه سبحانه عليهم فى الذكر حين نوه بشأن أولى العزم منهم فبين أنه أخذ عليهم العهد والميثاق بتبليغ الرسالة ، والدعوة إلى الدين قال تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما » .

وقد نص من بينهم على هؤلاء الخمسة لأنهم أولو العزم وهو من عطف الخاص على العام فبدأ بخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم لشرفه ثم رتبهم حسب وجودهم صلوات الله عليهم وهذا « العهد » يعنى إقامة الدين وتبليغ الرسالة والتعاون والتناصر كما قال تعالى : « وإذ أخذ الله

ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

وصرح القرآن الكريم بذكرهم وبالوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها فى قوله تعالى: « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحيناإليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ».

ولما كانت مكانه الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الدرجة من السمو والرفعة عند الله وعند الناس وعند الأنبياء فقد أعطيت أمته من الفضل ما يتواءم مع هذه المكانة السامية فهو أولى بهم من أنفسهم مطلقا ففى كل أمر من أمور الدين وفى كل أمر من أمور الدنيا هوأولى بهم كما يشهد بهذا الإطلاق قوله تعالى : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، لهذا كان أحب إليهم من أنفسهم – وقد روى الترمذى فى سبب نزول هذه الآية أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس : نستأذن آباءنا وأمهاتنا ، فنزلت الآية ، وهو لهم فى أمور دينهم بمنزلة الأب فإن كل نبى أب لأمته من حيث أنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولهذا كان المؤمنين إخوة قال عليه الصلاة والسلام : « أنا أولى الناس بالمؤمنين فى كتاب الله عز وجل فأيكم ما ترك دينا أو ضيعة فادعونى فأنا وليه وأيكم ما ترك مالا فليؤثر بماله عصبته من كان » .

وولاية الرسول صلى الله عليه وسلم لا تقف عند حدود الدنيا وإنما تمتد شفقته بأمته ورحمته بها إلى يوم القيامة حيث الشفاعة لأمته قال

صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى دعوة دعاها لأمته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة »

إنه حقا لأولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فقد بلغ من شفقته بهم كمالها ومنتهاها وعنى بالنظر فى مصالحهم المهمة فأخر دعوته إلى أهم أوقات الحاجات .. فلكل نبى دعوة متيقنة الإجابة ولكنه لا يتعجل دعوته فى الدنيا بل يدخرها ليوم تشخص فيه الأبصار ، بل إنه صلوات الله وسلامه عليه لا يكتفى بادخار دعوته التى يحدوها اليقين المطلق بالإجابة حتى يطمئن يقينه فى الدنيا ويرتاح قلبه الكبير فيبلغ مرفأ البشارة بالرحمة ويختلج فؤاده بالرأفة بأمته وتفيض دموعه الناضرة الشريفة رافعا كفيه ضارعا إلى ربه : « اللهم أمتى أمتى » حتى يستجيب له ربه السميع العليم فيبلغه البشارة ويطمئن بالرضا . إنه حقا بالمؤمنين رؤوف رحيم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى» .. الآية وقال عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يده وقال اللهم أمتى أمتى ويكى ، فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك » رواه مسلم .

وكل هذا العطاء الذى تمنحه رحمة الله الواسعة لهذه الأمة منوط بواجبات تؤديها وتقوم عليها فإن استجابت واستقامت على الجادة ضوعف لها الجزاء الأوفى وارتفعت مكانتها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وليس غريبا أن نرى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم قد هاموا به وامتزجت أرواحهم بحبه وهذا نموذج من نماذج أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم تدفعه عواطفه الجياشة ليقف على مكانته من نبيه وحبيبه حتى يطمئن إنه « ثوبان » مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه يعرف فى وجهه الحزن فقال له : ياثوبان ما غير لونك ؟ فقال : يارسول الله : ما بى ضر ولا وجع غير إنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا فأنزل الله قوله : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين و حسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله و كفى بالله عليما » .

وإذا ما تبينت لنا مكانة رسولنا عليه الصلاة والسلام عند ربه الكبير المتعال ، ومنزلته بين أنبياء الله ورسله وتبينت لنا مكانته فى أمته وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان علينا ألا نحيد عن هداه فلا نقدم على أمر

من الأمور دون أن نتقيد بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم ، « يأأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » .

وكما كان هذا الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته فلا بد من استمراره كذلك من بعدها وهذا واضح فى الوقوف على حدود سنته الشريفة فلا نتقدم عليها ولا نحيد عنها « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

منهج الرسول صلى الله عليه وسلم
فى توجيه المسلمين

أرسل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم داعيا إلى الخير فى أسمى صوره شاهدا على أمته ، مبشرا بالنعيم كل طائع ، ومنذرا بالعذاب كل عاص وداعيا إلى ربه الكريم ، قال تعالى : « ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » ولنجاح الدعوة جمع الله للداعية المبعوث أسباب الهداية ووسائل الرشاد فأوتى جوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، ولقد كان يعجب الصديق رضى الله عنه من فصاحته صلوات الله وسلامه عليه ويقول له : « لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ قال : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقال رضى الله عنه : يارسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ قال : « كانت لغة اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل فحفظتها » .

وقد جمع النبى صلى الله عليه وسلم بين حجة البيان وفصاحة اللسان ولين الجانب ورحمة القلب مما جعله يؤلف بين القلوب ويجمع الناس على كلمة سواء « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

ولهذه الرحمة التى اتسمت بها جوانب الدعوة فى حياة الرسول كان على المؤمنين أن يكون الرسول أحب إليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم

وحقه آثر لديهم لأنه أولى بهم فى أمورهم : فى أمور دينهم فهو حريص عليهم رحيم بهم يعز عليه عنتهم ويخشى مغبة أمرهم لو وقعوا فى تهلكة أو أصابوا من حدود الله شيئا « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »

وهو أولى بهم فى أمور دنياهم ، فلقد وسعهم بحلمه ورحمته ، وعطفه وشفقته ، يقول بن أبى حازم : أتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم فلما قام بين يديه استقبلته رعدة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : هون عليك فإنى لست ملكا إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، ويقول ابن أبى أوفى كان رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له حاجته إنه إذا أولى بهم فى أمور دينهم و فى أمور دنياهم كما سبق بيانه و صدق الله إذ يقول : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

وهذه صورة أخرى من صور التعاليم المحمدية ، التى اتسمت بها دعوته عليه السلام وكيف كانت فى حصافتها تعالج نواحى الحياة المختلفة، وتؤلف كل شارد ، وتطيب كل سلوك غريب ، جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه شيئا فأعطاه ثم قال . أحسنت إليك؟ قال الإعرابى : لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ثم قام ودخل المنزل وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئا ثم قال له أحسنت إليك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال له النبى صلى الله علبه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس

أصحابى من ذلك شئ فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك قال : نعم فلما كان الغد أو العشى جاء فقال صلى الله عليه وسلم : إن هذا الإعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال صلي الله عليه وسلم : « مثلى ومثل هذا كرجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

ولقد بلغ من حرصه صلوات الله وسلامه عليه على دعوة قومه وإيمانهم أنهم قدموا له عروض الشرف والسيادة ، ومقاليد الملك والزعامة ، وكل وسائل المجد والرفعة فى الدنيا نظير أن يتخلى عن تلك الدعوة فما التفت لما قدموا وإنما ظلت كلمته الشاهقة الجليلة وسام الشرف الدينى والنبوى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وهكذا نرى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حمل دعوته متخطيا بها كل الأزمات مقتحما كل المخاطر .. واتخذ منهجه الحكيم فى دعوة الناس وتعليمهم كما رسمه القرآن الكريم له إذ يقول « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وبالحكمة والموعظة الحسنة هدى الناس من ضلالة وعلمهم من جهل بطريق لا يمل فكان يتخولهم بالموعظة من وقت لآخر عن ابن مسعود قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا » .

كما كان من حكمته عليه الصلاة والسلام أنه يخاطب الناس على قدر عقولهم وبما يتواءم مع مداركهم ، ويتناسب مع فطرتهم وأساليبهم ويسوق موعظته الحسنة فى سماحة ويسر روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن إمرأتى ولدت غلاما أسود وإنى أنكرته فقال له النبى صلى الله عليه وسلم هل لك من إبل؟ ، قال : نعم قال : فما ألوانها ؟ قال حمر قال هل فيها من أورق[١]؟ قال : إن فيها لأورقا قال : فأنى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعه عرق [٢] قال « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق » وفى سبيل اقرار هذه التعاليم الحكيمة كان صلوات الله وسلامه عليه يخاطب الناس بلهجاتهم : عن عاصم الأشعرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس من أمبر امصيام فى أمسفر » يريد ليس من البر الصيام فى السفر وهى لغة الأشعريين يبدلون اللام ميما ومن أجل إقرار تلك التعاليم كذلك كان إذا تكلم كرر القول ثلاثا ليفهم عنه ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذ اتكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم

(١) الاورق : هو ما كان فيه سواد غير صاف . (٢) العرق : اصل النسب .

عليهم ثلاثا والمراد بذلك سلام الاستئذان لمن يريد الدخول على قوم فهو فى كل ميادين دعوته يتسم بالأبوة الحانية والأخوة المتواضعة مع جميع الناس ويسوق تعاليمه وآدابه فى يسر وسهولة وحنان وإشفاق فهو يقول : إنما أنا لكم مثل الوالد اذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها » .

وتطبيقا لهذه الشفقة ، وإعلانا لتلك الرحمة الهائلة يرفع شعار التيسير عملا وقولا فلم يخير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

وكما رفع شعار التيسير عملا فقد رفعه قولا يأمر به أصحابه رضوان الله عليهم فعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « علموا ويسروا ولا تعسروا وإذا غضب أحدكم فليسكت » .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيردينكم أيسره وخير العبادة الفقه » .

كما كان فى كل أوامره وفى كل نواهيه منتهجا المنهج التربوى الصحيح كما علمه ربه وكما جاء بذلك القرآن فهو لا يأمر بكل الأوامر دفعة ولا ينهى عن كل النواهى دفعة وإنما يتبع فى كل هذا وذاك التدريج حتى لا يمل الناس وحتى لا يستثقلوا تعاليمه ، فها هو ذا حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن يزوده بالتوجيهات الكافية ويأمره أن يسير على سنن التدريج معهم فيقول له : « إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فاعلمهم

أن الله افترض صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فإياك و كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب .

وبعد أن وجهه بهذا التوجيه قال له : كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال أجتهد برأيى ولا آلو جهدا قال معاذ فضرب رسول الله صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » وأيضا فقد كان صلى الله عليه وسلم يجعل للنساء أوقاتا خاصة يجلسن فيها إليه لتلقى تعاليم الدين ، فقد جاء نسوة إليه وقلن يارسول الله مانقدر عليك فى مجلسك من الرجال فواعدنا منك يوما نأتيك فيه ، قال: موعدكن بيت فلان وأتاهن فى ذلك اليوم .

وتقول عائشة رضى الله عنها : نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين .

وهكذا تضافر المجتمع الإسلامى بكل أشكاله على تلقى شريعته مسترشدا بآداب نبيه المعلم ورسوله القائد صلوات الله وسلامه عليه حتى تحقق على أيدى المسلمين آنئذ النصر العظيم والفتح المبين ، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، ولنا فى رسولنا أسوة حسنة وفى أصحابه قدوة طيبة ، فعلى منهجه نسير وبهداه نقتدى حتى يفتح الله علينا بركات من السماء والأرض فهو نعم المولى ونعم النصير .

العطاء الإلهى لنبى الرحمة صلى الله عليه وسلم

لقد فاضت مواكب الجلال والعناية تحدو خطى نبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه ، وما كانت الرعاية الإلهية لتتخلى لحظة من اللحظات عن مواكبة الدعوة منذ فجرها الأول ، وقد بزغ فى دنيا الناس يطارد ليلا طالما جثم على صدر الحياة ، وشد ما أعيا مسيرتها الوهنانة وهى تسير بخطى متلعثمة فوق أشواك الرذيلة المتناثرة وإذا تتبعنا طبيعة الحياة بعد ذلك لنرقب على كثب كيف احتمل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصحبه أولو اليقين ،من تبجح الشرك وضراوته ماتنوء بحمله الرواسى الشامخات. لرأينا جلال الإيمان فى القلوب يدفع بأصحابه دون ما تهيب ليتموا رحلتهم إلى الله ويبلغوا رسالاته ويخشونه ولا يخشون احدا إلا الله .

وكانت آيات الوحى الإلهى تفيض على قلبه الشريف مثبتة وموجهة إلى أمثل المناهج وأقومها فى دعوة الناس : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وذات يوم يأتيه أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبو الأعور السلمى – أثناء الموادعة – وقام معهم عبد الله بن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرفض ذكر آلهتنا وقل : إنها تشفع وتنفع وندعك وربك ، فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وهموا بقتلهم ، فيأتيه التوجيه الإلهى مثبتا

وموجها أن يفوض الأمر كله لله وكفى به وكيلا . قال تعالى : « ياأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

ولسمو مكانته عند الله كان التوجيه الإلهى يتنزل عليه فى كل الأوقات ، وفى أحرجها وأقساها موضحا أن كل أمره وأمر أمته منوط بمشيئة الله ، وما أروع الدروس الحبيبة حينما تتساوق فى أوقات الشدائد فتنفرج الكروب ويتجلى فضل الكبير المتعال .. لقد ترصدت قريش مسار الدعوة خطوة خطوة وبذلت من محاولات العناد والمراء ما نفدت به كل طاقة لديها حتى راحت تلتمس سبل الحجاج والعراقيل من منطلق اليهود : عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم امره وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول،وعندهم ماليس عندنامن علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وقالا:إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من أمرهم ؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه وإن لم

يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يامحمد أخبرنا ، فسألوه عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخبركم غدا عما سألتم عنه ، ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشر قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشئ عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف وقول الله عز وجل « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وفى هذا المقام نزلت سورة « الضحى » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا جبريل ما جئت حتى اشتقت اليك ، فقال جبريل عليه السلام : إنى كنت إليك أشد شوقا ولكنى عبد مأمور وأنزل عليه : « وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ومابين ذلك وماكان ربك نسيا » وقد رد الله كيد المشركين فى نحورهم عندما هاجت هواجسهم وما جت ألسنة السوء وقالوا: إن محمدا ودعه ربه وقلاه فأنزل الله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى

ما ودعك ربك وما قلى » وفى نفس الوقت الذى ترد فيه السورة عليهم عنادهم وتخرصاتهم تحمل بين طياتها البشرى بالفضل المرتقب كما يشعر بذلك إيراد اسم الرب المنبئ عن التربية وبلوغ الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام وأن الفضل موصول وله فى الآخرة ما هو أكرم وأجل « وللآخرة خير لك من الأولى » بل إن عطاء الله تعالى وافر يسبغه عليه فى الدنيا والآخرة فله المقام المحمود ولأمته السعادة بشفاعته وهكذا وضح الله تعالى مالحبيبه من مقام محمود ودرجة رفيعة فى الآخرة وجاءته البشارة بذلك ثم بين سبحانه أنه أفاض عليه من نعمه الجليلة ، ورعايته الوارفة التى أظلت حياته من أول لحظة انبعثت بمولده الشريف فاكتنفته عناية الله ذى الجلال حيث أواه فى كفالة مهدتها القدرة وفرش الحب مهادها وزينه بالطهر فى كل خطاه فاهتدى إلى المناجاة وأغناه الخالق عن الخلق ، وتنزلت عليه الشريعة السمحاء ليبعث أضواءها فى أرجاء الدنيا ويخرج الناس من الظلمات إلى النور . « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث » .

وهذه آداب أخرى تترى على الرسول عليه الصلاة والسلام من ربه ، فيها إحقاق الحق وبعث لأيام اليتامى والسائلين الذين هضمت حقوقهم من قبل فكانت العرب تأخذ أموال اليتامى وتظلمهم قال مجاهد فى معنى الآية : « لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيما » وقال الفراء : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

وقال تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » .

وقد وضحت السنة الشريفة مكانة القائم بأمور اليتيم ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال قال رسول اله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما رواه البخارى .

وأما « السائل » فيرشد الله تعالى إلى إطعامه أو رده ردا جميلا لينا وقيل : هو طالب العلم فيجب إكرامه ولا يتلقى بمكروه .

وأما نعمة الله : فهى ماأفاضه الله عليه من عطائه الجزيل دنيا وأخرى ، ومن جملته ما ذكر من النعم ومن الشريعة .

والتحدث بها : نشرها وتبليغها والشكر والثناء عليها ، عن الحسن ابن على قال إذا عملت خيرا فحدث به إخوانك ليقتدوا بك ، إلا أن هذا لا يحسن إلا إذا لم يتضمن رياء ، أو ظن أن غيره يقتدى به ، روى أن شخصا كان جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فرآه رث الثياب ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « ألك مال ؟ قال : نعم . فقال له صلى الله عليه وسلم : « إذا أتاك الله مالا فلير أثره عليك » .

ومن عطاء الله تعالى لحبيبه أن شرح صدره بروح منه فمنحه السكينة والنور الإلهى حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق ووضع عنه وزره ، وهو ترك الأفضل - لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين أو أن التعبير مجازى حيث سمى العصمة وضعا و المعنى عصمناك من الوزر

الذى ينقض ظهرك لو حدث .. . ورفع الله ذكره صلى الله عليه وسلم بالنبوة وأحكامها فقرن اسمه باسمه تعالى فى الشهادة والأذان والإقامة وجعل طاعته طاعة له تعالى وصلى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، قال تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » .

وهنا تبرز آثار العناية الإلهية التى تحدو حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يسرع اليسر ويتكرر بعد العسر مباشرة حتى قال صلى الله عليه وسلم : « لن يغلب عسر يسرين » ثم يتجه النداء الإلهى ليحث الرسول عليه الصلاة والسلام على متابعة الجهاد ، ومواصلة العبادة والجد والنصب شكرا لربه على نعمه الوافرة التى أسبغها عليه ظاهرة وباطنة ، فإذا فرغت من الصلاة فاجتهد فى الدعاء وإلى ربك الكبير المتعال فارغب ولا تسل سواه فإنه ذو الفضل والنعمة وهو السميع المجيب .

وقد كان عطاء الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام عطاء غير مجذوذ وأجرا غير ممنون فقد أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ورفع له ذكره فلا يذكر الله إلا معه رسوله عليه الصلاة والسلام ، وجعلت أمته خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمته وسطا ، وجعله خاتم النبيين ، وأعطاه سبعا من المثانى لم يعطها نبى قبله، وأعطاه خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبى قبله ، وأعطاه الكوثر ، وأعطاه جوامع الكلم وقذف فى قلوب أعدائه الرعب من

مسيرة شهر و أحل له الغنـائم و لم تحل لأحد قبله ، و جعل له الأرض مسجدا وطهورا .

وإذا تتبعنا هذا العطاء الإلهى الغامر ، نخلص منه بنتائج هامة ينبغى الوقوف عندها ، والتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم .

أولا : يوجه الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه عقب كل فضل أفاءه عليه بالتوجه إليه شكرا لنعمة الله وتثبيتا لقلبه الشريف فبعد أن أتاه السبع المثانى والقرآن العظيم وأمره بالجهر بالدعوة جاء فى آخر السورة بالتوجيه الكريم : « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

وبعد أن ساق له عطاءه بالشهادة والبشارة والإنذار والدعوة إلى الله فى قوله تعالى : « ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » جاء عقب هذا العطاء ووجهه إلى التوكل على الله فى قوله : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

وفى سورة « الضحى » بعد أن ساق الله آلاءه ونعمائه جاء فى آخر السورة بقوله « وأما بنعمة ربك فحدث » وفى سورة الانشراح يذكر بعد تعداد النعم قوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » .
وفى سورة « الكوثر » يذكر بعض عطائه لرسوله صلى الله عليه وسلم قوله: « فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » وفى سورة « النصر» بعد أن يذكر ما من عليه بالنصر والفتح يوجهه بقوله : « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »

وهذا المنهج الذى اتبعه الله مع رسوله صلى الله عليه وسلم ، إنما يشكل تواصلا بينهما ، واستمرارا فى الإنعام من الله وفى العبادة من الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا هو شأن الحبيب مع حبيبه .

ثانيا : تتمثل الأسوة الحسنة للمؤمنين برسولهم عليه الصلاة والسلام فهو مع مكانته العظيمة ومع غفران الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يواصل العبادة شكرا لله تعالى فيقوم الليل متهجدا راكعا ساجدا حتى تتورم قدماه ، وتفيض عيناه بالدموع وحتى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء والخشية من الله فتقول السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها : أتفعل ذلك يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيجيبها قائلا : « أفلا أكون عبدا شكورا » ؟ .

ما أسمى هذه القدوة به إذاً ، وما أكرمها .. ولقد أمرنا الله تعالى أن نتأسى به ، فقال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

ولقد من الله تعالى على المؤمنين برسوله الذى تمثلت فيه الأسوة الحسنة قولا وعملا ، ووجه سبحانه الناس إلى أسس السعادة التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها تتمثل فى تزكية نفوسهم وتطهيرها من كل رجس أو رذيلة تدنس حياتهم كما تتمثل كذلك فيما جاء به الوحى الإلهى قرآنا وسنة ، فالأسوة الحسنة إذاً تمثلت فى جانبين : الجانب الأول : هو الجانب السلوكى التطبيقى الذى شاهدوا فيه حياة

رسولهم صلى الله عليه وسلم وما يؤدى به من أعمال ، ومجاهدته فى تزكية نفوسهم وتطهير بيئتهم .

الجانب الثانى : جانب التعليم ، وهو الجانب النظرى الذى يحضهم فيه على اتباع وحيه من الكتاب والحكمة ويعلمهم إياه .

قال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

وقال تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

والقرآن والسنة هما الأصلان الكريمان للتشريع الإسلامى بهما مناط السعادة ومحط الآمال وعلى هديهما تتحقق أسباب الخير فى الدنيا والآخرة وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم التمسك بهما فى خطبته فى حجة الوداع وأبرز ما فيهما من النجاة فقال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبدا كتاب الله وسنتى » .

الدين النصيحة

النصيحة من أمهات الأخلاق في الإسلام وفوق أنها دعوة بالخير ، وإرشاد للغير ، فهى عبادة من أسمى العبادات ، فإن المقصود بالعبادة جانبان :

الأول : شكر الله تعالى على نعمه الجليلة .

الثانى : مواصلة السعى إلى سعادة الإنسان وربحه دنيا وأخرى ومن كمال الدين إرشاد الغير ونصحه ، قال صلى الله عليه وسلم : «الدين النصيحة » وبهذا المنهج الإلهى تسمو النفس الإنسانية إلى الكمال حيث لا يقتصر الإنسان على أداء الأمور الواجبة عليه فحسب ، بل يحاول ما استطاع أن يسعد ذوية وإخوانه ويبث بينهم سعادة الإيمان وحلاوته فيوجه النصح النافع والرشد الناجح .. والناظر إلى نعم الله تعالى التى أنعم بها على الإنسان يرى نفسه عاجزا كل العجز أن يحيط بها لكنه لا يعجز عن إدراك الكثير منها ، أو عن إدراك جوانب العظمة فيها .

فهى تبدأ من مطلع نشأته ، وفجر خليقته ، فقد خلق الله تعالى الإنسان فى أحسن تقويم فجعل له « عينين » يبصر بهما ، « ولسانا » يترجم به عما يريد ، « وشفتين » يستعين بهما على النطق وعلى الغذاء وهداه « النجدين » طريق الخير وطريق الشر .. ووجهه سبحانه إلى عمل الخير وإلى شكر ربه سبحانه على ما أولاه من النعم السابقة ومن لم يؤد حق ربه فى نعمه ولم يشكره عليها فقد تعرض إلى سبل الخسران والبوار ،

لأن شكران المنعم على الفضل ينمى النعمة ويستدر عليها أرباح الدنيا وأرباح الدين ، « لئن شكرتم لأزيدنكم.. » وربح الدنيا المادى يكون شكره بالرحمة والإحسان ، والتعاطف والتواصل الذى تتفجر به ينابيع الرحمة الدافقة فى قلوب المحسنين فى يوم ذى مسبغة .

وربح الدين الأخروى يتمثل شكره ، فى صدق الولاء لله ، فى السراء وفى الضراء وفى بذل النصيحة للمسلمين تواصيا بالصبر وبالمرحمة.

وقد نعى القرآن على من أوتى الفضل ولم يؤد حقه تجافيه عن روح العبادة، وبعده عن سبل المعروف : « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » .

وفى موطن آخر يوضح الله تعالى ارتباط الربح الحقيقى الذى تتمثل فيه النجاة دنيا وأخرى بالإيمان والعمل ، وبالتواصى بالحق وبالصبر، قال الله تعالى : « إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وفى هذه السورة الكريمة يوضح الله للنفس الرابحة مسارين :

الأول : تقطعه من أجل كمال نفسها .

الثانى : من أجل كمال غيرها .

أما ما يتعلق بنفس الإنسان فهو الإيمان والعمل الصالح ، وأما ما يتعلق بالغير فهو التواصى بالحق والصبر .

« والحق » هو الأمر الثابت الذى لا سبيل إلى إنكاره ويشتمل على الخير كله من إيمان بالله واتباع لكتبه ورسله .

« والصبر » يكون عن المعاصى التى تتشوق إليها النفس بدافع جبلتها البشرية ، ويكون على الطاعات التى يشق على بعض النفوس القيام بها ويكون على ما يبلو الله تعالى به عباده .

والتواصى بالحق مرتبة أولى : هى مرتبة العبادة التى تعنى فعل ما يرضى به الله تعالى .

والتواصى بالصبر مرتبة ثانية : هى مرتبة العبودية وفيها يكون الرضا بفعل الله يقول العلامة أبو السعود : « إن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك بل هو تلقى ما ورد منه تعالى بالجميل والرضا به.. » .

وهكذا اشتملت السورة الشريفة على كل خير قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم » وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام إذا التقى أحدهم بالآخر لا يفارقه حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يتصافحان ليذكر كل واحد صاحبه بما ينبغى أن يكون عليه وبهذا يكون التواصى والتناصح وقد ورد فى القرآن الكريم فى مقامين :

الأول : فى مقام الشكر لله على نعمة السابغة فى دنيا الإنسان ودينه .

الثانى : فى الفوز بالتجارة الرابحة التى لن تبور الممثلة فى نجاة العبد وسعادته واشتملت هذه السورة على تلك المبادئ الإنسانية ، التى تفيض سموا وإشراقا كما اشتملت على آداب اجتماعية رفيعة تصل بالإنسانية إلى أوج الحياة الطيبة ، حيث تتجرد من الأنانية تجردا مطلقا وتصل حبالها وحبال غيرها بالله قيوم السموات والأرض فهى تحب الخير وتسعى إليه .

وأن التواصى بالحق وبالصبر تصحيح لعزم المسلم ، واتجاه صادق ومثمر فى محاولة تطهير البيئة الإسلامية من كل ما يلوث مناخها من دنس المعصية .

وقد جعل الله تعالى كمال إيمان المؤمن مرتبطا بأن يحب لكل أفراد مجتمعه مايحب لنفسه ، وفى الحديث المتفق عليه عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وعن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم ، وهذا ما بايع عليه الصحابة رسولهم عليه الصلاة والسلام ، ليقفوا موجهين وداعين ومخلصين لله ولرسولهم ففى الحديث المتفق عليه : عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » .

وقد وجه الله تعالى هذه الأمة إلى سبيل الفلاح والفوز المتمثل فى الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال تعالى:« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال عز وجل : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وإذا ما تبين أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو سبيل الفلاح والفوز ، فإن تركه والنكوص عنه طريق للنقص والتعرض لعذاب الله عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرونه على الحق إطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربنا الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

وربما يسئ البعض الفهم فى قول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » زاعما أنه لا ضير عليه

إذا ما انتهى بنهى الله وائتمر بأمره ، ولا يضيره إن رأى غيره على غير الجادة فلم ينصحه ، وهذا غير صحيح ، لأن من صميم هداية الإنسان أن يؤدى واجب عقيدته ودينه ذابا عن حياض الشريعة كل رذيلة حارسا لحدود الله ، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر .

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : ياأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : « ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه [١] ، وذلك أن المنكر إذا ما أطلق له العنان ، وسرى فى مجتمع ما دون وازع أو رادع ، يلوث مناخ البيئه ، وينقل العدوى كالمرض الخبيث ، وعندئذ يسرى أذاه بين المجتمع ومن لم يصب فلا أقل من أن يتعرض لعواقبه الوخيمة ، من أجل هذا يؤكد الله تعالى مقاومته دوما وتناولت السنة تفصيل الطرق فى مقاومته ولم يعد لإنسان ما عذر من الأعذار فى تركه ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم وأن الإيمان ليرتبط بهذا الجهاد المقدس فى ميدان العقيدة دفاعا عن الخير وحماية للحدود وحتى لا تنطمس المعالم ويتطاول أهل الباطل بباطلهم على الحق ، فيعبثون الحياة بالمنكر ، ويلفونها بالظلام ، حتى لا يكون

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

هذا ، كان جهاد المسلم فى مقاومة المنكرعلى درجاته الثلاث ، من لم يستطع القيام به فى درجة فعلية وهى التى باليد فباللسان أو بالقلب ، وليس وراء ذلك من الايمان شئ ، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها يخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل (١) .

وإذا كانت نتائج القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الفوز والفلاح والنجاة من غضب الله وعذابه فإن ترك القيام به يفضى إلى عواقب ليس وراءها مجال للندم بل وراءها الهلاك والضياع

أولا : يترتب على القيام بالنصيحة نقص الإيمان فى القلوب ، وتخلخل الحياة بالناس ، فيصبحون ولا استقرار لهم ويمسون ولا أمان عليهم، ويدعون ولا يستجاب لهم .

ثانيا : يترتب على ترك القيام بالنصيحة : التعرض لعقاب الله العزيز الجبار ، عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » (٢)

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذى .

وأما حكم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فإننا نرى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ..ألخ »أمر إيجاب بإجماع الأمة كما سيأتى مزيد شرح لهذا الحديث إن شاء الله تعالى

هذا والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر من النصيحة ، التى هى الدين ، ولم يخالف فى ذلك إلا بعض الرافضة ولا يعتد بخلافهم .

والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين ، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف ، وقد يكون فرض عين . بأن كان الإنسان فى موضع لا يعلم به إلا هو ، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو كمن يرى زوجته أو ولده على منكر فحينئذ يتعين ويصبح فرضا عينيا فى عنقه إن تساهل فيه، وتخلى عنه كان عليه إثم هذا المنكر .

وليس لإنسان أن يمتنع عن بذل النصيحة وتوجيه الناس لظنه أن النصيحة لا تفيد أو أن التوجيه لا يثمر ، بل يجب عليه أن يقوم بالأمر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

وكما قال تعالى : « ما على الرسول إلا البلاغ » ، والأفضل لمن يتصدى للأمر بالمعروف أن يكون كامل الحال ممتثلا ما يأمر به ومجتنبا ما ينهى عنه حتى لا يدخل فيمن قال الله فيهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » لكنه إن أخل بامتثال ما يأمر به والانتهاء عما ينهى عنه فإن ذلك لا يخل بدعوته قال الإمام النووى : « فإنه يجب عليه شيئان

أن يأمر نفسه وينهاها ، ويأمر غيره وينهاه فإن أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر » ؟

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ميدان المسلمين جميعا ، لكل منهم فيه مجال محدد ومقام معلوم ، وهذا يختلف باختلاف الشئ المأمور به والمنهى عنه وهو قسمان :

القسم الأول : ما كان من دقائق الأفعال والأقوال وما يتعلق بالاجتهاد وهذا ليس لعامة المسلمين مدخل فيه ، وإنما هو خاص بالعلماء المتخصصين الذين يقفون على الأحكام وكيفية الاستنباط من القرآن والسنة

وقد فصلت السنة النبوية الشريفة واجب كل مسلم وميدان تخصصه فيه ، وأبرزت مسئولية كل فرد تجاه حياته ، واستقصت جميع المجالات من الأسرة حتى الأمة ، عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه .

وفى كل حال يجب على من يتصدى لميدان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكون رفيقا لينا حتى يكون أقرب إلى تحصيل المطلوب وهذا هو المنهج الذى رسمه القرآن للدعوة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » وأن يتحرى الداعى الوقت الملائم والظروف المناسبة ، قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » .

ونخلص مما سبق بنتيجتين هامتين فى حياة المسلم إذا أصابهما بلغ الأمان ، وانفتحت له سبل الهداية فى الدنيا والآخرة وكان من الفائزين :

النتيجة الأولى : أن الذين يعلنون الجهاد على الباطل ويقاومون المنكر فى كل أوكاره ودروبه يهديهم الحكيم الخبير سبحانه سبل الخير فى الدنيا والآخرة ويمضون على صراط مستقيم لا يهددهم خطر ، وإنما هم آمنون ظافرون ، قال تعالى : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » وقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »

النتيجة الثانية : إن من ينصر دين الله ، ويجند نفسه للذب عنه، والمدافعة عن حياضه يظهره على عدوه وينصره نصر عزيز مقتدر قال تعالى: « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

وتتمة لبحث النصيحة نرى أن نورد هنا بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى تتناول معالجة الموضوع من جميع أقطاره ، وتكشف لنا عن بعض الزوايا الهامة ، التى يجب على المصلحين ودعاة الأخلاق والمربين أن يراعوها ويضعوها نصب أعينهم :

أولا : مقاومة الخلاعة :

وفى هذا الجانب ، حذر الإسلام من الخلاعة وعمل على مقاومتها ، وتقبيح حال من يجاهر بالرذيلة ، أو يتحدث عنها ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل أمتى

معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يافلان ، عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره الله ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » (١).

وفى هذا الحديث ، يكشف لنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن موطن من أشد مواطن العيب فى الإنسان ، وهو الاستخفاف بالذنب ، والإتيان به دون مبالاة ، بل تستبد بالمذنب الوقاحة إلى حد يضاعف فيه الذنب ، حيث لا يكتفى بارتكابه بل يتحدث به ويجاهر و « المجاهر » هو من أظهر المعصية ، وتحدث بالخطيئة دون مداراة أو تحرج .

وقد جاء التعبير فى الحديث بلفظ «المجاهرين » وهذه صيغه المفاعلة التى تقتضى المشاركة بين اثنين ، وهى ليست على بابها ، ولا يترتب الجزاء المنصوص عليه فى الحديث على اشتراك اثنين ، وإنما يكفى مجرد الإعلان بالمعصية من الشخص وحده ، ولكنه آثر التعبير بتلك الصيغة التى تفيد اشتراك الطرفين ، مبالغة فى مادة الفعل ومعناه ، فإن المجاهر يدعو إلى الرذيلة بلسان حاله ، حيث يتأثر به غيره ، وتسرى عدواه فى المجتمع ، ولذا استثناه الرسول صلى الله عليه وسلم من العفو الذى شمل جميع الأمة فى قوله : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين » وكلمة معافى أيضا جاءت على صيغة المفاعلة ، وهى إما من العافية أى السلامة ، وإما من العفو أى المغفرة ، فعلى أنها من العافية : فالمراد أنه ينجو من أذى الناس ، وينجو الناس من أذاه ، قولا كان ذلك أو فعلا .

(١) رواه البخارى ومسلم .

وعلى أنها من العفو : فالمراد كل واحد من الأمة ، يعفو الله عنه ويغفر ذنبه إلا المجاهرين ، ولا مانع من إرادة المعنيين ، وإنما كان المجاهرون بمنأى عن فضل الله ورحمته ، لا ستخفافهم بالذنب ، ودعوتهم غيرهم إلى المحاكاة ، والتأثر بهم ، ثم ضرب الحديث مثلا لما يقوم به المجاهرون : « وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ... ألخ » .

والمجانة : هى الخلاعة ، وعدم المبالاة ، فالماجن إنسان بليد الشعور، غليظ الإحساس ، فلا يبالى بما يأتيه قولا كان أو فعلا ، وفى بعض روايات الحديث : « إن من المجاهرة » ولكن الرواية الأولى أكثر دلالة وأوضح ، لأنها تدل على إظهار المعصية ، وعلى التلبس بأعمال المجان .

و« البارحة » : هى الليلة التى مضت ، وسبقت اليوم الحاضر .

« يافلان » كناية عمن يتكلم الماجن إليه .

و«كذا وكذا »من ألفاظ الكنايات،ويكنى بها هناعماصدرمن العاصى

وجملة « وقد بات يستره ربه .. ألخ » جملة حالية أفادت وقاحة صاحب هذا الفعل وبشاعة ما يفعله حيث لم يقابل الستر بالشكر ، وإنما تمرد على فضل الله ونعمته .

وإنما كان غير المجاهر أهلا لفضل الله تعالى ، لأنه دل بستره على حيائه والحياء لا يأتى إلا بخير ، فيترتب على ذلك إنكاره هذا العمل وتقبيحه والإقلاع عنه .

أو إن عدم المجاهرة طريق من طرق المقاومة وحصر المعصية فى نطاق ضيق حتى لا تظهر فيستمرئها البعض .

وهذا العفو لغير المجاهر إنما هو مقيد بما إذا تاب إلى الله تعالى ، مستشعرا خطأه مقلعا عنه ، أما إذا تكرر العصيان منه فلا يدخل فى نطاق هذا العفو مهما خفيت معصيته واستترت .

وليس فى الحديث ما يوهم إتيان المعاصى سرا دون حرج مادام الإنسان غير مجاهر بل إن الحديث يقاوم وقاحة البعض وخلاعتهم ، ويسجل عليهم هذا الجرم الشنيع حتى يتركوه ، وحتى لا يقع فيه سواهم حين يعلم أمره ، وسوء عاقبته .

ويوضح فى نفس الوقت شمول رحمة الله تعالى للتوابين غير المجاهرين : روى أن رجلا سأل ابن عمر : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى [١]؟ قال : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم، فيقرره ثم يقول : إنى سترت عليك فى الدنيا فأنا أغفرها لك [٢] اليوم » .

وأما المجاهر فلم يكن أهلا لفضل ربه ، لا ستهتاره ، وعدم مبالاته ، وتمرده على نعم الله تعالى وتجرئه ، فعمل على إشاعة الفاحشة بين المسلمين والله تعالى يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة »

ويدخل فى نطاق هذا الذنب أيضا ما إذا تحدث عن أمر حلال مما لا يصح الحديث فيه و لا إعلانه بين الناس كالأمور التى تجرى بين الرجل

(١) النجوى هنا : هى ما يكون بين الله وعبده المؤمن يوم القيامة .

(٢) رواه البخارى .

وزوجته من أحوال المعاشرة الزوجية ، وقد يترتب على مثل ذلك من المفاسد ما لا تحمد عقباه .

كما أن المسلم مطالب أيضا بستر عورة أخيه المسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موؤدة » وهذا لا يمنع النصح له وإرشاده إلى طريق الصواب .

ولكن هل استثناء المجاهرين من فضل الله ، فى هذا الحديث قائم على عمومه مطلقا ؟ وأنه بعيد عن عفو الله ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقرأ قول الله تعالى " « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » فنرى أن الآية الشريفة ، قد عالجت الضعف النفسى الذى يعترى النفوس ، وخلصت الإنسان من آفة اليأس والقنوط من رحمة ربه ، وعلى هذا فإن المجاهر إذا عاد إلى ربه تائبا مخلصا غفر ذنبه ودخل فى نطاق رحمة الله تعالى .

والآن ، إذا وضح لنا موقف الإسلام من الخلاعة والمجون ، والاستهتار بالرذائل ، والمجاهرة بها ، فما أشد حاجة المجتمع الإسلامى اليوم إلى من يأخذ على أيدى العابثين بقيم الدين والذين يأتون المنكر على مرأى من الناس ، وفى كل مكان ، على صورة التهاون حينا ، وعلى صورة المدنية الفاجرة البغيضة حينا آخر ، فمن الرقص المختلط ، إلى احتساء الخمر إلى غير ذلك من المنكرات،إن مقاومة كل ذلك هو واجب كل مسلم،وسيأتى إن شاء الله فى الحديث التالى تبيين مراتب النهى عن المنكر

ويمكننا أن نستنبط من هذا الحديث بعض الفوائد والأحكام الهامة ، وهى بشاعة المجاهرة بالمعصية . وكون المجاهر بعيدا عن رحمة ربه ، وأن من استتر وتاب ، تاب الله عليه : حيث استعظم ما ارتكبه من ذنب فرجع إلى ربه وأناب، قال تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله .. » .

كما يتبين لنا من ثنايا الحديث رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمته حيث عمل على تجنبها من الوقوع فى الشر أو التردى فى وحل المعصية وصدق الله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ثانيا : مراتب النهى عن المنكر :

قبل أن نوضح مراتب النهى عن المنكر ، نحب أن نبين معنى كل من « المعروف » الذى يجب الأمر به ، « والمنكر » الذى يجب النهى عنه :

فى مفردات الراغب : المعروف : اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه ، والمنكر : كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف فى استقباحه واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة .

هذا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو واجب الفرد ، وواجب الجماعة ، وواجب الأمة ، قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١) ، وهو من سمات المؤمنين وواجبهم .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر [١] » وأما المنافقون فهم على العكس من ذلك « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف » [٢] .

أما عن مراتب النهى عن المنكر فقد وضحها هذا الحديث :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [٣].

ففى هذا الحديث تصوير لمراتب النهى عن المنكر ، أما عن المرتبة الأولى : فهى تغيير المنكر باليد ، وهذا للمستطيع على مثل هذا التغيير وقد وجه القرآن الكريم إلى هذا النوع من مراتب النهى عن المنكر فى مثل قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله » [٤].

وأما المرتبة الثانية : فهى تغيير المنكر باللسان ، وهذا عندما يعجز الإنسان عن التغيير باليد ، وقد رسم القرآن الكريم المنهج السليم لهذا النوع من التغيير ، فى قول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » [٥] .

---

(١) سورة التوبة آية ٧١

(٢) سورة التوبة آية ٦٧.

(٣) رواة مسلم .

(٤) سورة الحجرات آية ٩.

(٥) سورة النحل آية ١٢٥ .

وينبغي على المتصدى لذلك أن يكون صابرا ، وألا يؤدى إنكاره إلى مفسدة أشد .

وأما المرتبة الثالثة : فهى التغيير بالقلب ، وذلك عند عدم الاستطاعة عن السابقة وصورة هذا النوع : هى الإنكار القلبى وهجر أصحاب المنكر ، وهذه المرتبة إنما هى موجودة فى المرحلتين السابقتين فى حالتى التغيير باليد أو باللسان - ولكنها موجودة ضمنيا ، أما هنا فينبغى أن تأخذ صورة الإنكار بهجر صاحب المنكر ، وعدم معاملته وإظهار التبرم منه ، والضيق بما يأتيه من عمل ، وقد صور القرآن نموذجا من هذا الإعراض أو الإنكار فى قوله الله تعالى :« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره »(١)

والأفضل لمن يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أن يكون فاعلا لما يأمر به من معروف ، منتهيا عما ينهى عنه من منكر ،وإلا دخل في جملة من نعى القرآن عليهم ممن يعظون غيرهم ، ولا يعظون أنفسهم بسوء ما يصنعون ، حتى أشبه صنيعهم ، صنيع الجاهل بالشرع أو من لا عقل له قال تعالى : «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٢) .

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٨.
(٢) سورة البقرة آية ٤٤ .

هذا هو الأفضل ، ولكن من الجائز إنكاره ، لأنه يجب عليه أن يكف نفسه وغيره فإن أهمل فى جانب منهما فلا يباح له إهمال الآخر ، وأيضا فلما روى : « الحكمة ضالة المؤمن » (١) .

وهكذا يوجهنا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كلمة الحق ، ووجوب النهى عن المنكر على من علم به ، إلا إذا قام غيره بتغييره ، كما يعلمنا فى الوقت نفسه الشجاعة الأدبية ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحقر أحدكم نفسه ، قالوا : يارسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس فيقول : إياى كنت أحق أن تخشى » (٢)

ثالثا : مسئولية الفرد والجماعة وأثرها :

بعد هذا توضح لنا السنة الشريفة مسئولية الأفراد والجماعات والأمم فى القيام على حدود الله ، وبيان ما يترتب على ذلك من النتائج عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:« مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا

---

(١) أخرجه الترمذى فى آخر العلم من جامعه عن أبى هريرة مرفوعا بلفظ « الكلمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » .

(٢) رواه ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى .

خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » [١] .

وقد وضح هذا الحديث المسئولية الجماعية ، وأبرز لنا ما يكون للرأى العام من أثر ، وما يترتب على القيام بالمسؤلية من النجاة ، وما يترتب على إهمالها من الهلاك .

وقد جاء هذا المعنى فى الحديث على صورة محسوسة واضحة ، شبه فيها الرسول صلى الله عليه وسلم صفة القائم فى حدود الله - و هى المحارم ، أو الحدود التى يعاقب بها المذنبون كجلد الزانى وقطع يد السارق يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم صفة القائم فيها أى المتصدى لها الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، وصفة « الواقع فيها » أى المرتكب لها كمثل قوم « استهموا » أى اقترعو على سفينة تنازعوا فى الإقامة فيها فأصاب بعضهم عن طريق القرعة أعلى السفينة ، وأصاب البعض الآخر أسفلها ، فكان الفريق الذى فى أسفلها إذا استقوا من الماء- أى طلبوه للسقيا - مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ - أى لم نضر - من فوقنا ؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا - أى الذين فى أعلا السفينة الآمرون بالمعروف - ونجوا جميعا ، فنجوا غيرهم ، وهكذا الحال بالنسبة لإقامة الحدود ، بها تحصيل النجاة ، وبإهمالها يهلك العاصى بمعصيته ، والآخر بالسكوت عن المنكر ، لرضاه به قال تعالى : « واتقوا

---

(١) رواه البخارى .

فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ، والحديث إلى جانب هذه المسؤلية التى عالجها يستفاد منه بعض أحكام أخرى : مثل صحة جواز القرعة فى الأمور التى يحدث فيها نزاع ، والصبر على أذى الجار مع نصحه وإرشاده ، وجواز قسمة العقار المتفاوت بالقرعة .

رابعا : نتائج الدعوة :

للدعوة فى الاسلام أهمية عظيمة ، فبها يعرف الحق فيتبع ويكشف الباطل فيجتنب ، ولهذا فإن الله تعالى أعد لمن دعا إلى الهدى جزاء موفورا ، وأما من دعا إلى الضلال فانحرف بالدعوة عن غير طريقها عليه من الذنوب ما يثقل كاهله ، حيث يحمل أوزار من تبعه فى الضلال عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا . » [١] .

وهكذا يتبين لنا أثر الدعوة واضحا ، وتتجلى النتائج التى تسفر عن دعوة أهل الحق والخير إلى الهدى ، بإرشاد الناس وتوجيههم ، فيكون لهم من الأجر ، أى الثواب العظيم مثل أجور الذين اتبعوهم ، هذا مع عدم نقصان شئ من أجور من اتبعوهم ، وإنما أعد الله تعالى لهم كل ذلك ، لأن الدال على الخير كفاعله ، و لأن من دعا إلى هدى ، فقد بين الحق

---

(١) رواه مسلم .

ووضح الصواب ، يؤيد هذا القول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » [(١)] .

أما من دعا إلى ضلالة : أى باطل فى العقيدة أو فى الخلق أو فى المعاملة وما إلى ذلك فإن نتيجة دعوته الباطلة أن يتحمل مثل أوزار من اتبعه ، وانحرف بسببه ، دون أن ينقص ذلك من ذنوبهم شيئا ، وهذا وعيد وتهديد لمن دعا إلى الضلال .

وليست الدعوة إلى الهدى ، أو الدعوة إلى الضلال قاصرة على قول باللسان بل يدخل فى الدعوة إلى الهدى حسن الخلق والأسوة الحسنة ، والإخلاص فى العمل وكل وسائل الإرشاد والتوجيه سواء كانت بلسان المقال أو بلسان الحال .

كما أن الدعوة إلى الضلال تشمل أيضا ما كان بالقول وما كان بغيره من الوسائل المختلفة التى تزين الباطل وتغرى الناس بالانحلال كالقصص والروايات والأفلام والمقالات ، التى تحمل السموم الفاتكة ، والرذائل المهلكة ، فالحديث يدل على فضل من دعا إلى هدى وماله من أجر كبير ، وعلى سوء من دعا إلى ضلالة وماله من حساب عسير ، كما يوضح فضيلة الإمامة فى العلم .

---

(١) رواه مسلم .

الإخلاص

في البحث السابق تحدثنا عن النصيحة : وعن جوانبها العديدة التي فصلتها السنة الشريفة ، وقد رأينا أن نبدأ بها أولا ، لأنها تمثل بالنسبة إلى سائر الأخلاق ، الفضيلة الأم ، أو تمثل الأخلاق جملة ، لأنها تعنى الدعوة إلى الحق والخير ، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ، وهل الأخلاق في جملتها إلا هذا؟ .

ثم رأينا بعد ذلك مباشرة أن نتحدث عن خلق من أخلاق الإسلام هو: « الإخلاص » ، ذلك لأن الأخلاق من غير الإخلاص لا وزن لها ولا قيمة، ولا أثر لها ولا نتيجة ، فهي تصبح جوفاء ، لأنها لم يقصد بها وجه الله ، وإنما قصد بها سواه ، وحقيقة الإخلاص : « التبرى عن كل ما دون الله تعالى » [١] ، ومعنى هذا أن يتمحض كل عمل يصدر عن المسلم لوجه الله سبحانه وتعالى ، بعيدا عن كل ما دونه حتى سكناته وحركاته وظاهره وباطنه ، كل ذلك يكون في مرضاة الله تعالى كما قال سهل رحمه الله تعالى : « الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة » وهذه العبارة وافية بالمقصود ، قال إبراهيم بن أدهم : «الإخلاص صدق النية مع الله تعالى » [٢] .

والإخلاص في ضوء القرآن الكريم تتحدد ملامحه بأن تكون العبادة خالصة لله وحده ،وأن يكون كل ما يصدر عن الإنسان مقصودا به وجه الله

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٥٥

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج١٤ ص٢٧١٧ ط الشعب

تعالى ، يقول الله سبحانه مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص[١] » ومعلوم أن خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم هو خطاب لأمته كذلك ، ولكن تأكيدا لأمر الإخلاص ، فقد جاء الأمر عاما فى قول الله تعالى : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » [٢]

وقد أشار الله سبحانه إلى العبادة على أساس من الإخلاص ، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بأن ذلك هو دين الملة القيمة ، وقد جاءت الإشارة بلفظ « ذلك » المفيدة للبعد ، تنويها ببعد منزلته ورفعتها قال تعالى : « ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة »[٣]

وأبانت الآية مقام الإخلاص بالنسبة للحق وللخلق كما وضحت أن الإخلاص والعمل قرينان لاينفصلان ،فتبين أنه لابد من الإخلاص فى قوله: «مخلصين» ولابد من العمل فى قوله :« ويقيموا الصلاة ويؤتواالزكاة » .

أما عن الاخلاص فى ضوء السنة الشريفة ، فأول ما ننظر إليه هو ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته

(١) سورة الزمر ٢ - ٣
(٢) سورة غافر آية ١٤
(٣) سورة البينة آية ٥

إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[١] وفى هذا الحديث يرسى الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية :

إحداهما : هى الأساس الذى يقوم عليه كل عمل .

ثانيهما : جزاء كل عمل .

ولذا كان هذا الحديث من الأحاديث الهامة التى تقوم عليها أصول الإسلام .

قال الإمام أحمد بن حنبل : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث :

حديث عمر : « إنما الأعمال بالنيات » وحديث عائشة : « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » وحديث النعمان بن بشير «الحلال بين والحرام بين ».

وجاء التعبير النبوى الحكيم بلفظ : « إنما ... » ليوضح حصر قبول الأعمال ، والثواب عليها فى قيامها على أساس من النية .

والمراد بالأعمال فى الحديث : هى العبادات التى تفتقر إلى نية كالصلاة والصيام .. وغير ذلك من العادات التى تصبح بالنية عبادة كما جاء فى الحديث: « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك » والنية فى اللغة : هى القصد ، وحقيقتها الشرعية : تعنى تمييز بعض العبادات عن بعض كالظهرمن العصر

---

(١) رواه البخارى .

أو تمييز العبادات عن العادات كالغسل الذى يقصد به التطهر أو التنظف ، وهكذا ، أما منزلة النية من الأعمال فإن للعلماء فى ذلك ثلاثة آراء :

١ - رأى السلف والصوفية : وهو أن العمل يتوقف قبوله على الإخلاص لله فإذا خلا عن الإخلاص فإنه لا يقبل مهما كان صحيحاوخيريا

٢ - يرى البعض أن النية شرط لصحة الأعمال ، ومعنى الحديث : إنما صحة الأعمال بالنيات .

٣ - يرى بعضهم أن النية شرط كمال ،أى إنما كمال الأعمال بالنيات

وتحمل النية فى الحديث على معناها اللغوى ، لأنه الذى يشمل النية الحسنة أو السيئة ثم فصل الحديث الحكم بعد ذلك ، وفرع على القاعدتين السابقتين ، فبين أن المهاجر إذا كان فى سبيل الله وابتغاء مرضاته فهو المهاجر إلى الله ورسوله حقا ، ولذا ورد جواب الشرط بلفظ الشرط ، لأن ما نواه هو منتهى مطلوبه ومقصوده ، أما إذا كان المهاجر طالبا من طلاب الدنيا ، أو راغبا فى امرأة يتزوجها فهجرته عندئذ إلى ما هاجر إليه تحقيرا لرغبته ، وقد بين الله تعالى وجوب الإخلاص فى العمل بحيث لا تشوبه شائبة ما من شوائب الرياء ، قال تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » ، وقال تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

وهذا وعد من الله تعالى بعظم أجر المخلصين ، وإذا كان الحديث قد نص على الهجرة فما هى إلا مثال من أمثلة العمل وعلى ضوئها تقاس

سائر الأعمال من الجهاد وتعلم العلم والإنفاق وما إلى ذلك من وجوه العمل، عن أبى هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار »(١)

وهكذا كل عمل يشرك فيه صاحبه أحدا غير الله ، فهو متروك ولاوزن له ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تبارك وتعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » (٢) .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) أخرجه البخارى .

كما يرشد الحديث كذلك إلى وجوب الهجرة من بلاد الكفر والخوف إلى بلاد الإيمان والأمن ، والتحذير من الدنيا وزخرفها والتحذير من فتنة النساء فهى أضر ما يكون على الرجال ، والهجرة لغة : هى الترك ، وشرعا : ترك ما نهى الله تعالى عنه ، والمراد بالهجرة فى الحديث : الانتقال من مكة إلى المدينة وذلك قبل أن ينسخ حكمها ، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فهى باقية محافظة على الدين وخوفا من الفتنة. قال تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » وفى معنى الهجرة العامة الهجرة لكل ما نهى الله عنه ، روى عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » (١) .

---

(١) أخرجه البخارى .

وجوه الإخلاص

ووجوه الإخلاص عديدة ، لأنه مطلوب فى القول والعمل وفى الحركة والسكون ، وفى الظاهر والباطن ، ولكن يمكننا أن نحصر أصول الإخلاص فى أربعة وجوه :

١ - فى العقيـدة .   ٢ - فى العبادات .

٣- فى المعاملات .   ٤ - فى الجهـاد .

أولا : الإخلاص فى العقيدة :

أما عن الإخلاص فى العقيدة فيتجلى واضحا فى الإيمان بالله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله والإخلاص فى العقيدة فطرى فى النفس الإنسانية ، وقلب المؤمن المخلص عامر بالعقيدة دائما وأبدا ، فى السراء وفى الضراء ، وفى البر وفى البحر . أما غير المؤمن فلا ينزع إلى فطرته إلا عند الشدة ، وعندما تزول شدته يرجع أدراجه إلى التمرد ، قال تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » (١) .

---

(١) سورة يونس .

أما عن إخلاص العقيدة فى ضوء السنة ، فمما ورد فى ذلك : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : فيرضى لكم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال » رواه مسلم وأحمد.

والمراد بالرضى والكراهة فى الحديث : الثواب والعقاب ، أو إرادة ذلك ، أى أن الله تعالى يأمر بثلاث خصال ويثيب عليها ، وينهى عن ثلاث خصال ويعاقب مرتكبها .

أما أول الخصال التى يرضاها فهى طاعة الله وعبادته عبادة مخلصة قائمة على أساس من العقيدة الخالصة النقية فلا يقصد بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى ، وقد نص الحديث على أساس الإخلاص فى العقيدة بقوله: « ولا تشركوا به شيئا » وذلك بأن ينتفى من طريق العبادة كل اعتقاد مزيف ، كالشرك بالله ، فمثل هذا كفر لا ينفع معه عمل ، وهذا هو الشرك الأكبر ، وقد يراد بالحديث الشرك الأصغر وهو الرياء بأن يقصد بالعمل وجه الله ووجه غيره من الناس الذين يرونه .

ثم بين الحديث الخصلة الثانية ، وهى : الإعتصام بالدين والتمسك به ، وهدم التفرق حتى لا يتسرب الضعف والهوان إلى الصفوف ، ففى الوحدة قوة ، وقد أكد أمر الوحدة بعد قوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا » فقال : «ولا تفرقوا » وفى هذا إشارة إلى أن المؤمنين إذا قامت

وحدتهم على أساس من الكتاب والسنة وهما أصلا هذا الدين . ومصدرا العقيدة والشريعة له إذا قامت على هذا الأساس فإنها فى أمن وطمأنينة ، وفى نصر وقوة حصينة أما إذا أعرضوا عن أصول عقيدتهم وفرطوا ، فإن قوتهم ستتبدد ، وريحهم تذهب، قال تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين »[١]والخصلة الثالثة : مناصحة ولاة الأمر لما فيه نفع الإسلام والعباد والبلاد .

أما عن الخصال التى نهى عنها : فهى نقل كلام الناس ، ومحاولة التعرف على أمورهم الظاهرة والخفية ، وذلك ناشئ عن سوء عقيدة صاحبه وضعفها ، أما من كان حسن العقيدة ، حسن الإسلام ، ففى شأنه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه» وقد جعل الله تعالى من سمات المؤمنين المفلحين : « والذين هم عن اللغو معرضون » [٢].

والخصلة الثانية مما يكرهه الله وينهى عنه : كثرة السؤال فيما لا يعنى الإنسان ، وفيما يترتب عليه حرج المسئول ، بل وحرج السائل أحيانا أو السؤال عن العلم والتعرف عما لم يقع ، خاصة ما يترتب عليه تشكيك أو جدل وهذا أرجح ، أو المراد : السؤال عما فى أيدى الناس .

أما الخصلة الثالثة : فهى إضاعة المال فى غير مصارفه الشرعية بل

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦.

(٢) سورة المؤمنين ٣ .

يتبع فى المال الطريق المعتدل دون إسراف أو تقتير ، قال تعالى - فى صفات عباد الرحمن - : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » وهكذا ينشد الإسلام من أتباعه أن يكونوا مجتمعا مخلصا ، تنتفى فيه العقيدة المزيفة وآثارها وتشرق فيه روح الإسلام ووحدته وآدابه على أساس الإخلاص .

ثانيا : الإخلاص فى العبادات :

قبل أن نبرز وجوه الإخلاص فى العبادات ، نورد هنا هذا الحديث الجامع لأركان الإسلام الخمسة ، والذى يتضح به بناء الإسلام أولا ، ثم نتناول بعد ذلك بالتحليل وجوه الإخلاص فى العبادات .

روى البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

وفى هذا الحديث توضيح لأركان الإسلام ، وفى بعض الأحاديث الأخرى فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام بالأعمال الظاهرة ، والإيمان بالاعتقاد والتصديق ، وهذا تفصيل لأمر واحد أو لجملة كلها شئ واحد هو الدين ، وإذا أطلق الإسلام أو الإيمان يقصد به الدين من اعتقاد وعمل ، أما إذا ذكرا معا كان المراد بالإيمان التصديق والمراد بالإسلام العمل . وفى الركن الأول وهو الشهادتان، بيان للعقيدة الإسلامية الصافية، من توحيد الله سبحانه ، وثبوت رسالة الرسول صلى الله عليه

وسلم ، وفى هذا الركن إخلاص العقيدة الذى سبق أن بيناه .

وفى الركن الثانى وهو الصلاة ، انتهاء عن الفحشاء والمنكر ، ووصول إلى درجة التقوى ، وذلك عندما تكون الصلاة خالصة لله ، « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أما إذا لم تتسم الصلاة بإخلاص صاحبها فيضرب بها وجهه ، لأنها غير صالحة ، ولأنها لم تنه صاحبها عن الفحشاء كما ورد : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » ، ولسمو مكانة الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج فى أعظم مكان ، وقيل فى حكمة فرضيتها فى تلك الليلة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تطهر ظاهرا و باطنا عند ما غسل قلبه الشريف وملئ بالإيمان والحكمة - ومن شرط الدخول فى الصلاة كذلك : أن يسبقها الطهور - لما تمت له تلك الطهارة ناسب ذلك أن تفرض الصلاة فى هذا الوقت ، وعلى تلك الحالة .

وفى فضل الإخلاص فى الطاعات : روى الإمام مسلم بسنده عن حمران مولى عثمان قال : توضأ عثمان بن عفان يوما وضوءا حسنا ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : « من توضأ هكذا ، ثم خرج إلى المسجد لا ينهزه [١] إلا الصلاة غفر له ماخلا من ذنبه » ، وفى هذا حث للمسلمين على الإخلاص فى الطاعات ، حتى تكون متمحضة لله سبحانه .

---

(١) أى لا يدفعه ويحركه إلا الصلاة ، وضبطها : بفتح الياء والهاء وإسكان النون بينهما .

وقد بين الله علامات الصلاة المقبولة ، ووضح أن من أهمها الإخلاص وظهور ثمراتها فى التعاطف ، روى الرسول صلى الله عليه وسلم عن رب العزة سبحانه : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يستطل بها على خلقى، ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب ».(١) .

وفى الركن الثالث : وهو الزكاة تطهير للنفس من شتى الأدران وسمو بها إلى أنبل المعانى والمبادئ من التآلف والتعاطف قال الله تعالى: « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٢) .

وقد وسع الإسلام دائرة الصدقة كي يسمو بالمجتمع إلى أظهر العواطف ، وأسمى المبادئ قال صلى الله عليه وسلم : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الردئ البصر لك صدقة » (٣) .

وبالزكاة يتم تطهير نفس الغنى من آفة الشح ، ونفس الفقير من آفة الحقد وتطهير المال بإخراج حق أصحابه منه وهم الفقراء ، وقد نقى الإسلام ظاهرة البذل من شائبة الامتنان على الفقير ، فعبر القرآن فى جانب الجزء الذى يدفع للفقير بأنه حق : إشارة إلى أهميته ووجوب الإسراع بأدائه ،

---

(١) رواه البزار .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) رواه البخارى فى الأدب ، وابن حبان فى صحيحه والترمذى عن أبى ذر .

قال تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (١) وإذا خالط الزكاة رياء أو أذى حبط ثوابها ، وقد وضح الله تعالى أثر الإخلاص فى قبولها أو عدمه حين ثوابها حين يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء للناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين » (٢) .

وفى الحج : تعبير واضح عن الإخلاص ، تعلن عنه التلبية:« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » وهذا تعبير عن الاتجاه الخالص لله وحده، وتعبير عن الإخلاص فى الطهر الظاهر وهو غسل الإحرام ، والطهر الباطن بالتوبة النصوح ، والحج واجب مرة فى العمر على المستطيع ، وفيه بالإضافة إلى ما سبق ، يعمل المسلمون على إصلاح أمر دينهم ودنياهم ، وفيه غرس لخلال التقوى وتطهير من آفات الشر قال تعالى : « الحج أشهرمعلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب » (٣) .

وفى الصيام : وصول إلى التقوى كما قال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كماكتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »(٤)

---

(١) سورة المعارج آية ٢٤ - ٢٥ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٦٤ .
(٣) سورة البقرة آية ١٩٧ .
(٤) سورة البقرة آية ١٨٣ .

أما إذا لم يصل الصيام بصاحبه إلى هذه الدرجة ، وكان الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب فحسب ، فإنه حينئذ يكون قد افتقد عنصر الإخلاص ، فلا يكفى هذا الصوم ، وليس لصاحبه منه إلا الجوع كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » (١) .

وهذه الأركان السابقة هى الأصول العامة فى الدين ، وأما غيرها فهو إما متمم لها أو محقق لهدفها وهو : إخلاص العبادات لله ، وهى فى مجموعها ، ورغم اختلاف مظاهرها تشكل صلة وثيقة بين الدين والخلق ، ونتيجة واحدة هى« مكارم الأخلاق » وتلك النتيجة تتجلى واضحة حين يزكى الإنسان بتلك العبادات نفسه ، فتكون له جنات عدن فى الآخرة جزاء ومثوبة ، قال تعالى : «ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات ، فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » (٢) .

وإذا قام المسلم بهذه الأركان ، وبقى بعدها منطويا على الشر يتسرب منه الأذى إلى الناس ، فهو حينئذ بعيد عن الإيمان ، ولم تثمر عبادته الخلق الحسن ، فمأواه النار ، روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم : أن رجلا قال له : «يارسول الله ، إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنهاتؤذى جيرانها بلسانها فقال :« هى فى النار»

---

(١) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم .
(٢) سورة طه ٧٥ - ٧٦ .

ثم قال : يارسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدق « بالأثوار من الأقط » - أى بالقطع من الجبن - ولا تؤذى جيرانها قال : هى فى الجنة » (١) .

وبهذا يتضح لنا أن مجرد أداء هذه الفروض لا يفى إلا إذا اكتملت سائر شعب الإيمان ، وأثمرت هذه الفروض فى النفوس . فإن الأركان هى الأصول والأسس التى تقوم عليها بقية الشعب ، وكثيرا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجيب السائلين بها وبغيرها مراعاة لظروفهم وما يحتاجون إليه . روى أن أعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ، فقال له : « تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» فقال الأعرابى : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ، فلما ولى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » (٢) .

فهنا ذكر للأعرابى الأسس والأصول ، ونراه فى حديث آخر يذكر بعضها الآخر عندما سئل عن أى الأعمال أفضل ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ،

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور» متفق عليه .وفى حديث آخر يوجه أنظارالمسلمين وقلوبهم إلى بقية شعب الإيمان :

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » متفق عليه .

وبهذا يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم ما يشتمل عليه الإيمان من شعب كثيرة تتفاوت علوا ونزولا ، فأعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، أى تنحية ما يؤذى من طريق المسلمين ، والبضع: من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل إلى التسع ، والشعبة هى الخصلة، والحياء : هوخلق كريم يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق، وينشأ نتيجة الخوف والمراقبة ، فيعصم صاحبه من الزلل ويحفظه من التردى فى مزالق الشر،كما جاء فى أحاديث أخر بينت ثمراته :«الحياء خير كله » ،« الحياء لا يأتى إلا بخير » وليس من الحياء أن يمتنع الإنسان عن قول الحق ، فليس هذا من الدين بل هو عجز ومهانة ، وإنما خص الحياء بالذكر لماله من أثرفى السلوك ، ودعوة إلى حميد الفعال، ولهذا كان من شعب الإيمان مع أنه من الغرائز وذلك لأنه لابد فيه من نية واكتساب وإخلاص فكان من الإيمان من أجل كل هذا ، وقد اجتهد بعض السلف فى حصر ما تفرعت عنه شعب الإيمان ، فمنها ما يتعلق بأعمال القلب كالإيمان والإخلاص ومنها ما يتعلق بأعمال اللسان كالتوحيد والذكر ومنها ما يتعلق بالبدن كالصلاة والحج .. وهكذا يتبين لنا من الحديث اشتمال الإيمان

على فعال حميدة كثيرة ، كما يتضح أهمية الحياء فى الإسلام .

بعد هذا ننظر للإخلاص من زاوية أخرى هى الإخلاص فى المعاملات

ثالثا : الإخلاص فى المعاملات :

إن أساس المعاملات الجارية : هو العمل ، لأنه يتفرع إلى فروع عديدة : فهناك العمل التجارى ، والزراعى ، والصناعى ، والذهنى وما إلى ذلك من الأعمال التى يترتب عليها تعامل الناس بعضهم مع بعض ، ومن أجل هذا رفع الإسلام من قيمة العمل ، وبين منزلته عن المقداد بن معد يكرب رضى الله عنه عن النبى صلي الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وإن نبى الله داود صلي الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده » (١) .

وليس المراد بهذا الحديث خصوص الأكل ، بل المراد كل أنواع الانتفاع من المال ، ولكنه خص الأكل بالذكر ، لأنه أظهر وجوه الانتفاع .

والأكل من عمل اليد خير لصاحبه فى الدنيا ، لصون كرامته ، وفى الآخرة ، لمزيد مثوبته ، وقد حث الإسلام على الإخلاص فى العمل حتى يتقنه صاحبه ، ويحسن أداءه ، فكان صلى الله عليه وسلم مع ما كان عليه من الغنى ، وتوافر المال ، كان يأكل من عمل يده ، فيصنع الدروع ويبيعها وفى هذا بيان لأهمية هذا النوع من الصناعات الحربية، فهل بعد هذا يسمع لمايثيره أعداء الإسلام من أنه لايدعو إلى العمل بل يدعوهم إلى التواكل؟

---

(١) رواه البخارى .

وحسبنا - بالإضافة إلى ما سبق - أن نبرز هنا قاعدة هامة وهى : أن الله تعالى لم يأمر بالتوكل إلا بعد الأمر بالعمل قال تعالى : «وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » كما ربط بين الأسباب ونتائجها فأمر السيدة مريم أن تهز النخلة لتساقط عليها الرطب ، ولو شاء لأنزله من غير عناء ، قال تعالى : « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » وينبغى ألا يتخذ أحد من العمل ذريعة للتفريط فى طاعة الله وعباداته وفروضه ، فإن العمل طريق إلى مرضاة الله ، فلا يصح أن ينسى صاحب العمل ربه .

وقد رفع الإسلام قيمة العمل مهما كان نوعه ، قال صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه »(١) .

وهكذا يطلعنا الحديث الشريف على منزلة العمل ، والرد على أعداء الإسلام الذين يرمون المسلمين بالتواكل ، كما يدعو الحديث إلى سائر أنواع الصناعات ، لا سيما الصناعة الحربية ، وأن السعى فى العمل لا يتنافى مع التوكل ، بل إن التوكل الحقيقى هو فى الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على الله ، والإخلاص له فى كل حركة وسكون .

بعد هذا نرى أن الإسلام قد نفى المعاملات من كل شائبة وعالج داء

---

(١) رواه البخارى .

يمكن أن يستبد بها أو يعترض طريق الإخلاص فيها فوجه الإسلام أتباعه إلى ضرورة الإخلاص على جميع مستويات المعاملات ، وقاوم سائر الآفات التى تحول دون الإخلاص أو تكون نتيجة عدم الإخلاص : كالرشوة ، والكذب وخلف الوعد والخيانة ، والظلم والشح ، وظن السوء والتحسس والتجسس ، و التنافس فى أمور الدنيا ، والتحاسد والتباغض والتدابر ، وما إلى ذلك من الآفات الضارة التى لا يمكن أن يجتمع معها الإخلاص فى قلب المسلم .

ـ أما بالنسبة إلى آفة الرشوة :

فقد أبان الإسلام خطرها وحرمتها ، سواء أكانت للحاكم ، أو للقاضى أو للعامل ، أو لمن بيده إنجاز عمل ما من الأعمال .

فأما بالنسبة لرشوة الحكام ، فقد قال الله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (١) ، فحرم الاسلام مصانعة الحكام من أجل اقتطاع حق الغير ، واشتراء ذمتهم بالمال ، فإن فى هذا طردا للراشى ، وطردا للمرتشى من رحمة الله تعالى ، وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه : لعن الله الراشى والمرتشى فى الحكم (٢) .

وأما الرشوة للقضاة فهى محرمة ، روى الطبرانى بسنده عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : « الرشوة فى الحكم كفر وهى بين الناس سحت ، والسحت أن تطلب لأخيك حاجة ، فتقضى فيهدى إليك هدية فتقبلها منه » .

وأما بالنسبة للعمال ، فقد حرم الإسلام على العامل أخذ رشوة ، أو هدية لأنها حينئذ تهدى إليه من أجل علة ، فهى حرام .

(١) سورة البقرة آية ١٨٨ .
(٢) رواه أحمد و الترمذى والحاكم .

عن أبى حميد الساعدى أنه قال : استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له : ابن اللتبية على الصدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول : هذا لكم وهذا هدية أهديت لى أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا ؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حله إلا لقى الله يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رئى بياض إبطيه يقول : اللهم قد بلغت » [(١)] .

وهذا الرجل : اسمه عبد الله ، وقيل : إن اللتبية أمه - وهى بضم اللام المشدودة وسكون التاء نسبة إلى بنى لتب قبيلة معروفة ، ولقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الرجل عاملا على جمع الزكاة ، فلما رجع، أعطى بعض ما جاء به ، وأبقى البعض الآخر قائلا : هذا لكم وهذا أهدى إلى . وهنا أسرع الرسول صلى الله عليه وسلم بعلاج آفة من شر الآفات ، لو تسربت فى مجتمع نخرت عظامه وانهار . لما يترتب على الرشوة من تقدم الراشى إلى الامام ، وإلغاء أصحاب الكفاءات وتخطى أولى الجدارة فى المناصب ، إن من تحدد له أجر على عمله فليس له أن يأخذ أكثر منه ، مما يصل إليه عن طريق العمل .

---

(١) رواه الشيخان .

وبهذا كان للإسلام فضل السبق على سائر النظم الحديثة ، فى تشريع قانون الكسب المشروع ، قانون : من أين لك هذا ؟ ولئن كان ماورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أخذ الزائد من الرجل وإعطاؤه حقه فحسب، دون عقاب إلا أن ذلك إنما كان لأن الرجل كان متأولا فى تصرفه، ظانا أن له الاستقلال بما أهدى إليه ، فميز الرسول صلى الله عليه وسلم بمحاسبته تلك بين الرشوة والهدية، وأن الهدية إنما تجوزعندما لا توجد شائبة أخرى من جلب منفعة أو الوصول إلى غرض أما إن شابتها فإنها عندئذ تصبح رشوة ، روى ابن سعد من طريق فرات بن مسلم قال : اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح ، فلم يجد فى بيته شيئا يشترى به فركبنا معه فتلقاه غلمان الدير بأطباق تفاح ، فتناول واحدة فشمها ثم رد الأطباق ، فقلت له فى ذلك فقال : « لا حاجة لى فيه ، فقلت : ألم يكن أبو بكر وعمر يقبلون الهدية ؟ فقال : إنها لأولئك وهى للعمال بعدهم رشوة .

وقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته دون تعيين صاحب الواقعة سترا عليه ، ووضح أن من أخذ شيئا بغير حله : أى بغير طريق الحلال ، فإن عقابه سيكون مفتضحا بين الخلائق يوم القيامة ، فإذا ما أخذ بعيرا حمله على عنقه له رغاء - أى صوت البعير - أو بقرة لها خوار - صوت البقر أو شاة تعير - أى تصيح - واليعار : صوت الغنم . ثم أكد ضرورة محاسبة الحكام لمن يتلاعبون بأمور المسلمين ، وتأمين المحكومين من ظلم الحكام ، ومحاسبة من يستغلون مناصبهم لمنافعهم الشخصية ، ولئن استطاعوا أن يخفوا شيئا فى الدنيا عن الناس فلن يستطيعوا أن

يخفوه على من يعلم السر وأخفى ، فلسوف تكشف أسرارهم على ملأ من الناس يوم القيامة .

ومن الإخلاص فى المعاملات : الصدق فى الحديث ، والوفاء بالوعد وأداء الأمانة ، أما الكذب والخلف والخيانة فهى آفات لا تظهر إلا حيث ينضب الإخلاص ويجف ، ويأخذ النفاق مكانه ، فتلك هى علاماته .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذاأؤتمن خان » متفق عليه .

وهذا الحديث يوضح آية المنافق – أى علامته – والنفاق نوعان نفاق أكبر، وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر ، ونفاق أصغر ، وهو نفاق المعاملات وهو المقصود فى هذا الحديث ، وهذه العلامات ثلاث خصال :

١ – الكذب فى الحديث ، وهو مخالفة الخبر للواقع .

٢ – خلف الوعد ، وهذا إذا كان الوعد خيرا ، أما الوعيد بالشر فيجب خلفه .

٣ – خيانة الأمانة ، وهى تشمل تكاليف الدين ، وخيانة ماأؤتمن عليه من ودائع الناس وغير ذلك ، وإنما اقتصر فى ذكر العلامات على هذه الأمور فحسب، لأنها الدالة على سائر الخصال الأخرى ، فإن أصل الدين ينحصر فى ثلاث : القول والفعل والنية ، أما القول ، فنبه على فساده بالكذب ، وأما الفعل فأشار إلى فساده بالخيانة ، وأما النية فأشار إلى فسادها بالخلف ، وماعدا ذلك من الصفات الأخرى التى وردت بها بعض

الروايات فهى داخلة فيها ، من ذلك : ما رواه البخارى : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » فإن غدر العهد هو خلفه والفجور فى الخصومة هو خروج عن الحق وهو من مظاهر الكذب ونتائجه .

فالحديث إذاً يرشد إلى تطهير البيئة الإسلامية من خصال الشر ويحذر من خصال المنافقين ، ويبرز أهم صفات المنافق الذى أصبح بعيدا عن الإخلاص .

وهناك أمور أخرى تتنافى مع الإخلاص ، منها ما يتعلق بالفعل والحس كالظلم والشح ، ومنها ما يتعلق بالنفس والشعور كالظن والحسد وقد حذر الإسلام من ذلك كله أشد التحذير ، فأما الأمور المتعلقة بالفعل فهى التى أشار إليها الحديث الآتى : عن جابر رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١) .

وبهذا الحديث يتضح موقف الإسلام من هاتين الآفتين ، وبيان ما ينطويان عليه من خطر داهم ، فأما الظلم فنهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « اتقوا الظلم » أى اجتنبوه والظلم هو وضع الشئ فى غير موضعه أو التصرف فى حق الغير دون عدل ، ثم بين العلة فى هذا بقوله : « فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » تتراكم على بعض إذا خرج من

(١) رواه مسلم .

ظلمة دخل في أخرى ، وأما في الدنيا: فعاقبة الظلم وخيمة تنتهى بأصحابها إلى الهلاك قال تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » وأما الشح : فيعتبر سببا للظلم ، فهو الحرص الشديد على المال وجمعه بشتى الوسائل وعدم إنفاقه فى وجوه الخير المشروعة فيظلم بهذا التصرف أصحاب الحقوق، وقد يراد من الشح أشد البخل ، ثم وضح السبب فى التحذير منه، بأنه كان سببا فى إهلاك من كان قبلكم من بنى إسرائيل حملهم على أن سفكوا دماءهم بالقتل ، واستحلوا محارمهم ، فأحلوا ما حرمه الله عليهم كالشحوم والصيد يوم السبت ، وفى النهى عن الظلم توجيه إلى العدل فى جميع صوره . العدل فى العمل « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » والعدل فى القول « وإذا قلتم فاعدلوا » والعدل فى الشعور والحس كما سيأتى فى حديث : « إياكم والظن .. » ، وفى النهى عن الشح توجيه إلى السخاء الذى يصل بصاحبه إلى الفلاح حيث وقاه شح نفسه قال تعالى:« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »،وهكذا يحذر الإسلام من الآفات التى تتعلق بالفعل والحس من ظلم وشح ، ونهوضا بالمجتمع الإسلامى إلى أسس العدل والتعاون التى يترعرع فيها الإخلاص وينمو دون عائق ما من تلك العوائق، وأما الأمور الأخرى التى تتنافى مع الإخلاص فى الآفات التى تتعلق بالنفس والشعور والإحساس :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولاتجسسوا ولا

تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا - عباد الله - إخوانا » [1] .

وهنا يتناول الحديث التحذير من عدة آفات إذا وجدت استبدت بالنفس الإنسانية وهى آفات تتنافى مع الإخلاص وهى : ظن السوء وقد أبان الحديث علة النهى عنه بأنه أكذب الحديث فاعتبر الظن أكذب الحديث مع أن الكذب لا يكون إلا فى الأقوال ، وذلك لما يترتب على الظن فأطلق السبب وأراد المسبب ، أو أن الكذب وهو عدم المطابقة للواقع يشمل اعتقاد القلب وقول اللسان وكما حذر من التحسس وهو الاستماع لحديث القوم ، والتجسس وهو تتبع العورات قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا .. » ثم نهى عن التنافس فى أمور الدنيا وهو الذى يؤدى إلى العداوة والبغضاء ، ونهى عن الحسد وهو تمنى زوال نعمة الغير ، والحسد إنما ينبت فى القلوب التى ضعف إيمانها فيظهر فيها هذا المرض معلنا الاعتراض على ما قضاه الله ومن هنا كان الحسد يأكل حسنات صاحبه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » ، فهو يأكل حسناته ويسد عليه وجوه الطلب ولله در القائل :

ألا قل لمن بات لى حاسدا ... أتدرى على من أسأت الأدب ؟

أسأت على الله فى فعله ... لأنك لم ترض لى ما وهب

فجازاك ربى بأن زادنى ... وسد عليك وجوه الطلب

---

(١) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

ثم نهى عن التباغض ، والنهى عن التباغض إنما هو نهى عن أسباب العدوان على النفس والعرض والمال ، ثم نهى عن التدابر وهو المقاطعة وترك السلام ، وفى هذا توجيه لتنقية العلاقات الإنسانية ، وغرس الود والحب قال صلى الله عليه وسلم : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم» ، ثم وجه المسلمين جميعا أن يتعاملوا معاملة الإخوة فى التعاون والحب والود وبهذا يرقى المجتمع الإسلامى وتنتفى منه أسباب العداوة وعوائق الإخلاص .

رابعا : الإخلاص فى الجهاد :

يتضح الإخلاص فى الجهاد ، بأنه فى سبيل الله وحده ، فهو بعيد عن أى مقصد آخر مما يقصده أعداء الإسلام ، ودول الاستعمار ، وأهل السلب والنهب ، قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله .. » (١)

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء المجاهد فى سبيل الله : عن أبى هريرة قال : قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : ما يعدل الجهاد فى سبيل الله عز وجل ؟ قال : لا تستطيعونه قال : فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: لا تستطيعونه ، وقال فى الثانية مثل المجاهد فى

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله تعالى » (١) .

ومعنى « القانت » هنا : المطيع . ،« يفتر» أى يقل نشاطه ، أما معنى « فى سبيل الله » فالمراد به كونه خالصا لله تعالى ، يوضح ذلك ماروى عن أبى موسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء .أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (٢) ، وقد صور الحديث ما للجهاد من فضل عظيم ، حيث كان مثله مثل من لا يفتر من صلاة وصيام وقيام فى لحظة من اللحظات ومثل هذا العمل لا يتأتى لأحد ولذا كان الجواب : « لا تستطيعونه » وإنما اقتصر على الصلاة والصيام ، لأنهما أهم الأركان. فالصلاة عماد الدين، والصيام تكفل الله بثوابه ، بل إنه شبه حال المجاهد بحال المصلى الصائم المستديم لا ينقطع عن ذلك وهى صورة نادرة بل مستحيلة ، فدل ذلك على عظم ثواب المجاهدين ، كما دل الحديث كذلك على استمرار ثواب المجاهد فى جميع حالاته ما دام فى الجهاد حتى وهو فى سكونه أومنامه مادام الأساس موجودا وهوأنه « فى سبيل الله » قال الحافظ ابن حجر : شبه حال المجاهد فى سبيل الله بحال القائم فى

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم .

نيل الثواب فى كل حركة وسكون لأن المراد من القائم من لا يفتر ساعة عن العبادة فأجره مستمر وكذلك المجاهد لا تضيع منه ساعة من ساعاته بغير ثواب أ . هـ .

ومما يستدل به على استمرار هذا الأجر : قول الله تعالى : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين » [1] .

---

(١) سورة التوبة ١٢٠.

ثمرة الإخلاص

بعد هذا نرى للإخلاص ثمرة حسية هى ما يجنيه المخلص فى دنياه من زيادة الخير والنهوض إلى مستوى الحياة الطيبة الآمنة ، وله ثمرة معنوية هى «حلاوة الإيمان » وتلك الثمرة إنما تظهر بالإخلاص فى العقيدة فيتمسك بالتوحيد ويكره أن يعود فى الكفر ، وبالإخلاص فى العبادة فيكون الله ورسوله وما جاء به من القرآن والسنة أحب إليه مما سواهما ، وبالإخلاص فى المعاملات فيحب المرء لا يحبه إلا لله ، وبالإخلاص فى الجهاد لحراسة هذه المبادئ وصيانتها من أعداء الإسلام وفى ذلك روى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » (١) .

وقد رأى بعض العلماء أن حلاوة الإيمان حسية ، يتذوقها كل من وجدت فيه العلامات السابقة مستدلين بما كان من بلال وهو تحت وطأ التعذيب يقول : أحد أحد ، وبما كان منه عند سكرات الموت وأهله يقولون: واكرباه فقال : واطرباه :

غدا ألقى الأحبة « محمدا » وحزبه

---

(١) رواه البخارى .

ويرى بعض العلماء أن المحبة عقلية تنشأ عن إيثار ما يقتضى العقل السليم رجحانه وإن خالف هوى النفس .

وينبغى أن تكون محبة الله ورسوله مقدمة على كل ماسواهما وقد أنذر الله تعالى من قدم شيئا آخر عليهما بقوله : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » والمحبة هى ميل المحب إلى حبيبه وإيثاره له ، وأما بالنسبة للعلامة الثانية: فهى أن يكون حبه للمرء على أساس ما هو عليه من الإيمان ، وباعتباره يمثل المبادئ القويمة والسلوك المستقيم ، فهو لا يحبه إلا لله .

وأما بالنسبة للعلامة الثالثة : فهى مترتبة على ما سبق ، فمن صحت عقيدته وتأكد مما وعد الله به المؤمنين اطمأن إيمانه ورسخ فكره وكره الكفر كراهيته للعذاب الناشئ عنه ويستشعر المسلم حلاوة الإيمان فى كل قول وعمل وفكر ، بل وفى الأعمال العادية حينما يجعلها خالصة لله وفى مرضاته سبحانه وتعالى ، وخص هذه الأمور الثلاثة لأنها من أعمال القلب فلا يخالطها رياء ، وإنما سمة صاحبها الإخلاص الكامل الذى يؤتى ثماره الطيبة المجموعة فى « حلاوة الإيمان »

الرحمة

قال الراغب في المفردات : الرحمة [١] رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة ، وتارة فى الإحسان المجرد، دون الرقة نحو: رحم الله فلانا ، وإذا وصف بها البارى فليس يزاد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة .

ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له إذ هو الذى وسعت كل شئ رحمته ، والرحيم يستعمل فى غيره ، وهو الذى كثرت رحمته قال تعالى : « إن الله غفور رحيم » وقال فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » وقيل:« إن الله رؤوف رحيم » وقيل : إن الله تعالى هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين وفى الآخرة يختص بالمؤمنين ، وعلى هذا قال : « ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » [٢] الخ الآيات تنبيها على أنها فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين وفى الآخرة مختصة بالمؤمنين أ. هـ .

والناظر إلى رحمة الله تعالى يجد أنها سابغة ووافرة ، وكل سور القرآن الكريم افتتحت بوصف الرحمة لله « بسم الله الرحمن الرحيم » ومن

---

(١) المفردات ص ١٩١.

(٢) سورة الأعراف ١٥٦ .

استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الذين اتبعوا سبيل الله « ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابواواتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم »

وقد لفت الرسول صلى الله عليه وسلم أنظار أصحابه إلى رحمة الله فى صورة محسوسة يمثلها لهم عندما رأي أما تضم طفلها فى شفقة ورحمة فقال : « أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قال أصحابه : لا ، والله يارسول الله . قال : « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (١) .

كما أبرزت السنة الشريفة مقدار ما ادخره الله من رحمته يوم القيامة قال صلى الله عليه وسلم : « جعل الله الرحمة مائة جزء وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » (٢) .

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم خلق الرحمة فى كل سلوكه وترجمتها أقواله وأفعاله ، لأن الرحمة سر مبعثه ، وجوهر رسالته ، قال تعالى:« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقال صلى الله عليه وسلم:« إنما أنا رحمة مهداه » ، ولم تبرح الرحمة قلبه الشريف حتى فى أحلك الأوقات ومع أعدائه ، ففى يوم « أحد » - عندما حاول الكفار أن يغتالوه - نظر إلى أصحابه ورأى ما هم فيه من شدة وما هو فيه من شدة ، فقد شق خده وسقطت سنه، وقيل له : ادع على المشركين ، فقال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه البخارى .

أما أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فقد مثلوا المجتمع المؤمن الرحيم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » وذكر الشدة هنا لتقويم من يخشى منه، فيحصر خطره وفى هذا رحمة له وللمجتمع .

ومن رحمة الله بالإنسان : ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال:« إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بهافعملها كتبها الله سيئة واحدة »[١]

ومعنى الحديث : أن الله قدر جزاء الحسنات والسيئات ، وأمر ملائكته بكتابة ذلك ، فمن هم بحسنة أى طاعة والمراد بالهم : الإرادة وهى مرتبة دون التصميم ، وهو يفيد ترجيح الفعل على الترك وقيل : المراد بالهم : العزم « فلم يعملها » بسبب أمر خارج عن إرادته فإن من رحمة الله أنه يكتبها له حسنة كاملة ، ويأمر الملائكة بكتابتها أما إذا عملها فرحمة الله أوسع من أن يأخذ ثوابها فحسب ، بل إن الله يكتبها عنده عشر حسنات ، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة أما السيئة فإن هم بها فلم يعملها ، خوفا من الله ، كتبها الله عنده حسنة ، وفى الحديث القدسى : « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى

---

(١) رواه الشيخان .

يعملها، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة » (١) .

ويحتمل أن هذا الجزاء لكل من تركها إلا أن من تركها خوفا من الله جزاؤه أكثر من غيره ، أما إذا عملها فإن الله يكتبها سيئة واحدة قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » (٢) ، وبهذا يتضح لنا مدى رحمة الله الواسعة فيما يتعلق بالثواب والعقاب .

وكما شرع الله تعالى رحمته لعباده ، شرع لرحمة الإنسان بنفسه طرقا كثيرة ، ورخصا عديدة في العبادات فشرع التيمم في الطهارة، والإفطار في الصيام للمسافر ومن به عذر ، والقصر والجمع والتخفيف في الصلاة ،يقول صلى الله عليه وسلم :«إنى لأقوم إلى الصلاة وأريدأن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه » .

ومن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم التى تداركت الإنسان بالرحمة ، وخلصته من التردى في المعتقدات الفاسدة ، أو العدوى المهلكة، من تعاليمه في ذلك ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » فقد نفى هذا الحديث أمورا في

---

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة الأنعام ١٦٠ .

نفيها رحمة للعقيدة : « لا عدوى » أى لا تؤثر بذاتها بل بإرادة الله تعالى ، « ولا طيرة » أى لاتشاؤم بالطير فإنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ، « ولا هامة » نفى لما كانوا يعتقدونه قديما وهو تمثل روح القتيل بطائر يصيح للأخذ بالثأر ، « ولا صفر » حيث كانوا يتشاءمون منه فلا يتاجرون ولا يتزوجون فيه ، ثم أمر بعد ذلك بالفرار من المجذوم - والجذام مرض يتغير منه الجلد ويتناثر وهو يعدى بمجرد القرب منه - وبهذا كان الإسلام له فضل السبق على النظم الصحية فى تقرير قواعد الحجر الصحى، وأما ما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أكل مع مجذوم ، فذلك ليبين أن الله هو الذى يمرض ويشفى وبيده كل شئ ، أو لعله ألهم أنه لن يصاب بشئ وفى فعله تنبيه على أن العدوى لاتستقل بنفسها بل بفعل الله كما وجه الله تعالى عباده إلى الرحمة بالوالدين قال تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ووجههم إلى الرحمة بالأولاد ، فمما ثبت فى ذلك:«أتى أبو بكر عائشة وقد أصابتها الحمى فقال:كيف أنت يابنية وقبل خدها »رواه البخارى وتقبيل الرسول صلى الله عليه وسلم للحسن أوالحسين

وأما رحمة الأقارب فقد روى عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من أسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته » أخرجه الترمذى وأبو داود.

وفى هذا الحديث تكريم للرحم حيث اشتق اسمها من اسم الله «الرحمن » الذى يفيد الاتصاف بالرحمة البالغة ثم بين أن من وصلها وداوم

على برها داوم الله عليه رحمته ومن قطعها « بتته » أى قطعته ، وحكم صلة الرحم أنها واجبة وقطعها من الذنوب الكبيرة والرحم منها القريب غير المسلم وقد أجاز الإسلام صلته للرحم التي يرتبط بها ، ومن وجوه صلة الرحم : ما يكون بالمال ، أو تفقد الأحوال أو قضاء المصالح ، ومن ثمراتها: البركة فى العمر وفى الرزق .

والحديث بهذا يفتح للرحمة أبوابها ليقبل أهل الخير على صنائع المعروف والبر .

وتتسع جوانب الرحمة ، حتى تشمل الجار ، والضيف ، والعمل والقول وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن يؤمن بالله فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا وما جائزته يارسول الله ؟ قال : جائزته يوما وليلة والضيافة ثلاثة أيام وما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه ولا يحل أن يثوى عنده حتى يحرجه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » وتتجلى الرحمة بالجار ، والضيف ، وفى قول الخير عند من آمن بالله واليوم الآخر وفى تعبيره بقوله « ومن كان يؤمن. » لإثارة باعث الخوف والأمل وتعظيم شأن هذه الحقوق ، والجار : هو القريب فى السكن ، وإكرامه بالإحسان إليه ومنع الأذى عنه ، وأما الضيف : فهو كل من نزل على غيره ، وإكرامه حسن تلقيه وتقديم التحية اللائقة به ، أما الجائزة : فهى مدة اجتياز الضيف من مرحلة إلى أخرى وهى يوم و ليلة ومعنى « يثوى » : يقيم ، ويكون إحراج الضيف له باضطراره إلى الاستدانة وغير ذلك مما يحرجه ، وأما قول الخير : فيكون

بضبط اللسان وإمساكه إلا ما كان فى الخير ، ويترتب على هذه الأصول غرس الرحمة والمودة فى قلوب المسلمين ، وقول الخير : يرمز إلى الحق المتعلق بالله ، وإكرام الجار والضيف يرمز إلى حق الناس وبهذا يتضح سر الاقتصار على هذه الأمور الثلاثة .

وتتسع جوانب الرحمة أكثر ، فتشمل جميع المؤمنين ، وتكون منهم جسدا واحدا يحس كل منهم بإحساس الآخر ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (١) .

وفى هذا تشبيه لحال المسلمين - وهم فى توادهم أى تواصلهم وتبادل المودة بينهم ، وفى تراحمهم وتعاطفهم - بحال الجسد الواحد فى تأثر سائر الأعضاء بما يحدث لبعضها ، ذلك لما يجمع بينهم من رابطة الإيمان : « إنما المؤمنون إخوة » هذه الرابطة هى أساس الرحمة الشاملة التى جعلت كلا منهم يحس بإحساس أخيه كما قال صلى الله عليه وسلم فى صفة هذه الرحمة الشاملة وهذا التعاون العظيم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » (٢) .

كما تناول الإسلام فى الحض على الرحمة تقرير مبدأ التكافل الاجتماعى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : بينما نحن فى

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

سفر مع النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لازاد له ... » فذكر من أصناف المال حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل (١) .

إنها لصورة رائعة من صور التكافل الاجتماعى تدعو من كان معه فضل ظهر أى راحلة ، أن يتصدق بها على المحتاج ، كذلك الوضع بالنسبة لتطور وسائل النقل والمواصلات على صاحب السيارة معاونة المحتاج وحمله، وأيضا ، من كان معه زاد زائد عن حاجته أن يتصدق به على المحتاج ثم أخذ يعدد كثيرا من أنواع المال ، موصيا ببذلها والأمر هنا بالتصدق عما زاد محمول على الندب عند الجمهور ، ويحتمل أن يكون للوجوب وذلك فى حالات الضرورة .

وتعالج الرحمة كذلك سائر العلاقات الإنسانية ، فتعمل على تحريرها من قسوة الهجر والخصام، عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال: يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » (٢) .

والمراد بالرجل فى الحديث : هو المسلم ، والحديث يوضح حكم الهجر

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى

بين المسلمين فيحرم أكثر من ثلاث ليال ، ويباح فى الثلاث ، أما إذا كانت هجرة المسلم بسبب غضب من أجل الله فلا مانع أن تزيد عن ثلاثة أيام حتى يذهب سبب الغضب ويفئ إلى أمر الله ، وفى هذا الحديث دعم لأخوة الإيمان بين المسلمين و العمل على إزالة ما يعكر الصفو بينهم قال تعالى :
« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

وتنداح الرحمة فى أبعاد هائلة ، حتى تصل للإنسان فى وقت هو فى أشد الحاجة فيه إلى الرحمة وهو ما بعد الموت ، فيرشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أسباب الرحمة والثواب بعد الموت:عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوله »

و« الصدقة الجارية » هى المستمرة الدائمة كالوقف والوصية و«العلم الذى ينتفع به » : يراد به أولا : علم الكتاب والسنة ثم العلوم المساعدة ثم كل ثقافة تعمل على نهوض الأمة ورقيها و « الولد الصالح » : هو الطائع البار ، هذه الأمور تعمل على استمرار الرحمة والمثوبة بعد الموت لأنها امتداد للإنسان ، وقد أجمع العلماء على وصول ثواب الصدقة والحج، واختلفوا فى الصوم والصلاة وقراءة القرآن ، إلا إذا كان الصوم واجبا على الميت فقضاه عنه [١] ، وقد وردت أحاديث أخرى بأمور غير هذه الأمور كبناء المساجد ، وبناء بيت لأبناء السبيل وغير ذلك وهذا لا ينافى الحديث الذى معنا ، لأنه لم يحصر ما ينتفع به الميت فى هذه الأمور

(١) وفى رأينا أن كل عمل خيرى يصل ثوابه ، فالله ذو فضل عظيم .

فحسب ،أو يكون قد أخبر بما زاد عليها بعد فنبه عليه في غيرهذاالحديث ، كما لا تنافى أيضا بين الحديث وبين قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، لأن تلك الأمور المذكورة فى الحديث تعتبر من كسب المرء وعمله ، وهى أيضا من باب الفضل الإلهى ، أما الآية فهى تبين مقياس العدل ، أو أن تلك الأنواع قد استثنيت من عموم الآية .

ولا تقتصر الرحمة على هذه الجوانب ، بل إن الإسلام حث عليها فى شتى مجالات الحياة : الرحمة باليتيم ، عن أبى هريرة أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه . فقال : « امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » رواه أحمد .

والرحمة بالمرضى وذوى العاهات قال تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » (١) .

والرحمة بالخدم رفقا بهم ، وتجاوزا عن هفواتهم ، عن أبى مسعود البدرى: كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفى : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منى إذ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . فقلت : يارسول الله هو حر لوجه الله تعالى، فقال : أما لو لم تفعل للفحتك النار »(٢) .

---

(١) سورة الفتح ١٧ .
(٢) رواه مسلم .

ولا تقتصر الرحمة على الإنسان بل إنها تشمل الحيوان رفقا به وعطفا عليه .

وهكذا نرى كيف اتسعت دائرة الرحمة فى الإسلام حتى شملت القريب والبعيد ، والإنسان والحيوان ، ولا غرابة فى هذا فإن الله تعالى هو الرحمن الرحيم ، وأرسل رسوله رحمة للعالمين ، فالرحمة هى جوهر الرسالة السماوية ، وفى ظلها تنعم الأمم بالأمن والإستقرار ، ولن تستقر الأمم و تسعد الشعوب برحمة ربها إلا إذا طبقت مبادئ القرآن والسنة طاعة لله والرسول ، كما قال تعالى : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله ، وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٢ .

الفصل الثالث

الاسلام والطفولة

للطفولة فى الاسلام منزلتها الحبيبة ، وأهميتها الدقيقة ، فقد عنى الاسلام بهذه المرحلة من عمر الانسان ، فحباها بالكثير من الرحمة والعطف ، إلى جانب الصقل والتربية .

وفى ظلال الدين الوارفة ، كان لهذه المرحلة من الحياة أبعاد حانية ، تدفقت القلوب خلالها بعواطف من الحب ، سكبته مع فجر تلك المرحلة ، بما أودعه الله فى الأعماق من صلات الروح والدم ، حتى كانت النظرة الى الأبناء ، تعنى النظرة الى داخل الكيان النفسى أو أكثر ، حتى أحس بعض الشعراء بأن أبناءنا هم أكبادنا فقال :

وانما أولادنا بيننا

أكبادنا تمشى على الأرض

ولأهمية هذه المرحلة ، نجد تفاضل الأمهات بمقدار ما يقدمنه من حنان واشفاق ، ورعاية وعطف ، وبمقدار ما يقمن به من واجبات الزوجية ورعايتها .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قول : « نساء قريش خير نساء ركبن الابل أحناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده » [١] .

---

(١) رواه مسلم .

ولقد أعطى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثلا كريما فى الرحمة والعطف بشأن الأطفال ، فكان يختصر القراءة فى الصلاة ،ولا يطيل إذا سمع بكاء طفل،مع أن الصلاة حبيبة إلى قلبه،وهى قرة عينه ، ولكنها الرحمة والرأفة التى وصفه بها الله تعالى فى قوله : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »(١) .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فلقد روى أنه فى احدى الصلوات قرأ فى الركعة الأولى نحو ستين آية ، فسمع بكاء فقرأ فى الثانية ثلاث آيات ، وهذا من مكارم أخلاقه وسعة رأفته ورحمته

عن أبى قتادة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه » (٢) .

هذا وأن الطفل فى حياتنا نبت صغير لا بد له من الرعاية التى يرتوى فيها من عواطفنا المتدفقة بالحب ، كما لابد من المحافظة عليه من الآفات .. فإذا ما استوى عوده الريان ، بعيدا عن الأجواء الغائمة ، استطاع أن يستنشق عبير الحياة صافيا رقراقا ، وتفتحت عيناه على هذا الاستقرار والأمن ، فيقطع أشواط المرحلة الأولى منذ فجرها ، بعيدا عن العقد النفسية ، بعيدا عن التوتر الأسرى ، فإذا به باسم للحياة مقبل على دوره فيها بالأمل والعمل .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

(٢) رواه البخارى .

أما اذا كان الجو الأسرى حوله غائما ، وتفتحت عيناه على مؤثرات نفسية تثيرها الأسرة ، وأحس بجفاف العواطف ، التى تتأرجح بها الحياة بين مد وجزر، فإنه عندئذ يستشعر الضيق ، والملل والاعياء النفسى الذى كثيرا ما يترك فى حياته بعض الرواسب .

ومن هنا كان على الوالدين أن يعالجا مشاكلهما بسهولة ويسر ، ودون تصايح أو تظاهر أمام الأطفال ، وأن يجعلا من حياتهما مشاهد نابضة بكل ما هو حسن وجميل .

وفى رحاب الاسلام وجدت الطفولة كفالتها وأمنها ، فمن مشكاة النبوة استضاءت الأسرة المسلمة فى رعايتها للطفولة .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فقال النبى صلى الله عليه و سلم : « أو أملك لك ان نزع الله من قلبك الرحمة » (١) .

وفى رواية:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«من لايرحم لايرحم»

ولقد وعى السلف أهمية هذه المرحلة من العمر ، باعتبارها نشأة أساسية فى الحياة ، وباعتبار أن صغار اليوم هم رجال المستقبل ، فلا يصح أن نهمل تلك البراعم الناشئة حتى تنهار معنوياتها وقواها مع أعاصير الحياة ، أو تتساقط فى مهب الريح .

---

(١) رواه البخارى .

وإذا نظرنا الى رعاية سلفنا وعنايتهم بالطفولة ، فاننا سنلتقى بدروس باهرة فى الحفاظ على الأبناء وكفالتهم ، وأمنهم واستقرارهم .

ذات ليلة قدم المدينة بعض التجار فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : هل لك أن نحرسهم الليلة ؟ قال: نعم ، فباتا يحرسانهم ، فسمع عمر بكاء صبى فتوجه نحوه فقال لأمه : اتقى الله وأحسنى الى صبيك ثم عاد الى مكانه فسمع بكاءه فأتى أمه فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد الى مكانه ، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبى، فأتى الى أمه فقال لها : ويحك انى لأراك أم سوء . مالى أرى ابنك لا يقر له قرار منذ الليلة من البكاء ياعبد الله لقد أضجرتنى منذ الليلة ، انى أحمله على الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت لأن عمر لا يفرض الا للفطيم . قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهرا . قال : ويحك لا تعجليه عن الفطام ، فصلى الفجر والبكاء يغلبه ، فلما سلم قال: يابؤسا لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر مناديا فنادى ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، انا نفرض لكل مولود فى الاسلام .

وان رعاية الطفولة عند سلفنا أخذت مكانها الرحب ، ووفرت لها تعاليم الاسلام ما فيه سعادتها وأمنها ، وما فيه هناءتها .

وتميزت هذه الرعاية بالتوجيه الحذر ، وبالتربية الهادئة الهادفة ، ولنقف مع مشهد آخر من مشاهد رعاية الطفولة ، هذا المشهد يجمع بين المراقبة والمحاسبة . ،بين توفير الأمن والسلام والراحة .

لقد مر عمر بن الخطاب - يوما - فى المدينة فوجد بعض الغلمان يلتقطون بعض البلح من بعض الأفنية ، فلما رأوه تفرقوا ، الا أن غلاما منهم ظل واقفا مكانه ، فلما اقترب عمر منه أسرع الغلام قائلا : ياأمير المؤمنين : ان هذا البلح مما ألقته الريح فقال له : أرنى أنظر اليه ، فان ما تلقيه الريح لا يخفى على ، فنظر الى البلح وقال : صدقت ، وفرح الطفل ثم قال : أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك ؟ انهم ينتظرون أن أذهب وحدى فيغيروا على ، ويأخذوا ما معى فضحك عمر ، وربت على كتف الغلام قائلا : امض معى ، وسأبلغك مأمنك ، ويأخذ بيده ويسير الى جانبه حتى يصل داره ..

ونحن حيال هذا الموقف الذكى ندرك ذكاء هذا الطفل ، الذى ظل واقفا فلم يلذ بالفرار لأنه يعلم أنه غير مرتكب لجرم ، لأن ما أخذه مما يتسامح فيه ، حيث أن ما تلقيه الريح قليل ويكون مهملا ، ولكننا ندرك بجانب هذا عناية عمر رضى الله عنه فى تتبع هذا السلوك حتى يتبين الحقيقة ، فلا يدع الأمور كما يصورها أصحابها ، فقال للغلام : أرنى أنظر اليه فان ما تلقيه الريح لا يخفى على ، ومما لا شك فيه أنه لو تبين له غير ذلك لكان له تصرف آخر ، ثم نظرة أخرى حين علم أن الأطفال الآخرين يتربصون بهذا الطفل ، وتوقع منهم أن يغيروا عليه أخذه بيده حتى أبلغه مأمنه .

* وليست رعاية الطفولة خاصة بأبناء المسلمين ، بل ان سماحة الاسلام ، وسمو تشريعاته ودقتها لا تجيز قتل الصبيان من أولاد المشركين

اذا لم يشتركوا فى القتال ، فإذا اشتركوا يجوز قتلهم .

وفى السنة الشريفة علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام من النصوص ما يجلى لنا هذه الحقيقة ، ويطلع كل من يثيرون حول الاسلام شبه شهوة الحرب وامتشاق السلاح ، يطلعهم على سماحة هذا الدين ورعايته للضعفاء والأطفال ممن لم يباشروا حرب المسلمين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتلوا الذرية فى الحرب، فقالوا : يارسول الله ، أو ليس هم أولاد المشركين قال : أو ليس خياركم من أولاد المشركين ؟ رواه أحمد .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلي الله عليه وسلم قال : انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم وأحسنوا أن الله يحب المحسنين [1] .

الى غير ذلك من الأحاديث الشريفة التى تكشف عن طبيعة هذا الدين القيم ، وعن جوهره الكريم الذى اتسم بالسماحة واليسر ، وعنى برعاية الطفولة كلبنة أصيلة فى بناء الأسرة الاسلامية ، يجب أن نوفر لها الأمن والإستقرار وأن نكفل لها كل ماتحتاجه وليس معنى هذا أن نفرط فى التدليل أو نتغاضى عن أخطاء الأطفال دون توجيه أو تنبيه ، فإن اهمال التربية أخطر عليهم من الحرمان .

---

(١) رواه أبو داود .

العناية بالأبناء من أول وهلة

ان عناية الاسلام بأمر الأبناء ، عناية عظيمة ومبكرة منذ فجر ولادة الأبناء، وتستمر معهم بعد ذلك ، فمن السنة : أن يؤذن فى أذن المولود اليمنى ، ويقيم فى اليسرى ، ويستحب أن يلقن الانسان ولده فى أول نطقه : لا اله الا الله ليكون التوحيد أول نطقه وأول كلامه .

ومن عناية الاسلام بالأبناء : تخير الاسم الحسن ، فذلك من حق الولد على أبيه ، وفى الحديث ، يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: « اذا سميتم فعبدوا » رواه الطبرانى والبيهقى . والمراد بهذا التوجيه النبوى أن يسمى الوالد ولده عبد الله ، أو عبد الرحمن وهكذا ، بالإضافة الى واحد من أسماء الله الحسنى ، ليظل فى الاسم اشعار واعلان بالعبودية لله . وليكون لأبناء المسلمين تمييز خاص عن غيرهم ،وأسماء تحمل أروع المعانى الاسلامية .

ومن الأسماء ما هو غير ذلك ، وهو لاشك حين يحمل معنى حسنا ،أو يكون على اسم صحابى من الصحابة رضوان الله عليهم ، أو له معنى طيب ، فهذا أيضا حسن وطيب .

وقد ورد فى بعض الأحاديث ، أحب الأسماء الى الله . قال صلى الله عليه وسلم : « أحب الأسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن » (١) .

---

(١) رواه مسلم .

ومن الأسماء ماكان على اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل «محمد وأحمد » الا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يأمر بالتسمية باسمه ينهى عن التكني بكنيته ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي » (١) .

وقال العلماء : كان ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم ، اذ كان ينادى ياأبا القاسم ، والآن فلا بأس قال الامام الغزالى : نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تجمعوا بين اسمى وكنيتى » (٢) .

كما دعا الاسلام الى حسن تخير الأسماء ، لأن الناس ينادون يوم القيامة بأسمائهم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فاحسنوا أسمائكم » (٣) .

ولكن ما الحيلة فيمن سمى باسم غير محمود ،أو باسم يكرهه ؟نقول :

أولا : يستحب تغيير الاسم وتبديله باسم آخر حسن غير مكروه ، وقد أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم « العاص» « بعبد الله »(٤)

ثانيا : يمكن ازدواج الأسماء ، بأن يكون للشخص مثلا اسمان ، وينادى باسمه المحبوب اذا لم يكن من الممكن تغييرالأول لدى من لم يعرف

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه أحمد وابن حبان .
(٣) رواه أبو داود .
(٤) رواه البيهقى .

ومما دعا اليه الاسلام أن ينادى المسلم أخاه بأحب الأسماء اليه ، وبأحب الألقاب والكنى .

* قال الله تعالى :

« ولا تنابزوا بالألقاب » . وهذا مثل بسيط جدا من الأمثلة الكثيرة التى عنى الاسلام فيها بشأن الأبناء .

وإذا كانت العناية بالأبناء بلغت هذا الحد فى الإسلام ، فان لهذه العناية دلالة هامة بشأن الأبناء ، وذلك أن الطفل فى حياته الأولى ، وفى طفولته الضعيفة ، لا يملك من أمره شيئا ، ولا يملك من شأنه وشأن اسمه شيئا ، ولذا كان على الآباء أنْ يعنوا بهذا الأمر ، وهو وان كان فى ظاهره بسيطا الا أن له تأثيرا بعد ذلك على نفسية الطفل بعد أن يكبر ويخرج الى المجتمع ، فيظهر أثر التسمية السيئة فى حالاته النفسية بين أقرانه .

وإذا كنا نرى تعاليم الإسلام تدعو إلى تخير الأسماء الحسنة للأبناء فليس المراد بحسن الأسماء مايوافق هدى الناس أياكانوا ، وعلى أية حال كانت مشاربهم وأذواقهم ، بل ان تخير الاسلام للأسماء الحسنة مثل له فيما سبق من الأحاديث كعبد الرحمن ، وأسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والتابعين وغيرهم من أصحاب الأسماء الحسنة .

ولا نطلق العنان لتخير الأسماء ، ولا ندعه لأذواق غير طبيعية ، تفرط فى تدليل الأبناء ، فتسمى بأسماء لا معنى لها ، أو بأسماء الغربيين ، وأسماء غير المسلمين فهذا خطأ فاحش ، وجرم شنيع فى حق الأبناء والاسلام .

وليس أيضا من تخير الأسماء أن يشتق بعض الأهل كلمات أو حروفا من الاسم الأصلى لابنائهم وينادونهم به ، تدليلا وزيادة فى أظهار الحب ، أو مسايرة للتقاليد الوافدة ، والأسماء الأجنبية والغربية ، فهذا كله بعيد عن روح الاسلام ، وعن روح الجد والأصالة العربية والاسلامية ، التى ينشأ عليها الأبناء منذ الصغر، وبعيد عن الاسلام وتعاليمه ، فإن لنا معشر المسلمين شخصيتنا الاسلامية المتميزة .

الاسلام ورعاية البنات

اتضح لنا مما سبق رعاية الاسلام للأبناء ، وعنايته بهم من أول وهلة، ونريد الآن أن نوضح هنا انصاف الاسلام للأنثى ورحمته بها ، وانقاذه لطفولتها البريئة مما تعرضت له فى الجاهلية ، من ظلم وتعسف وعدوان ، واقامته للعدل بين سائر الأبناء من ذكور واناث .

لقد كانت نظرة بعض الناس للبنات فى المجتمع الجاهلى نظرة خاطئة، امتد بها الخطأ الى درجة الظلم والاجرام ، حيث أصبحت حياتها رخيصة ، بل تمثل عبئا ثقيلا ، وعارا وسبة فى حياتهم القاتمة الغاشمة .

قال الله تعالى : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » [١] .

ولقد جاء الاسلام بهديه الواضح ، فأرسى منهج الحق والعدل ، وأقام أسس الاصلاح فى شتى المجالات ، فى الفرد والأسرة ، والمجتمع والأمة فى الرجل ، وفى كل أفراد النوع الإنسانى الذى تقع على كاهله أخطر رسالة فى الحياة . وكانت النظرة الاسلامية الحانية لطفولة الأنثى البريئة ، تشع تألقا وهدى، وتكشف عن تلك النزعة العدوانية ، والظلم الفاضح ، الذى تدهورت به البشرية فى تلك الحقبة المظلمة .

---

(١) سورة النحل ٥٨ – ٥٩ .

لقد رفع الاسلام الظلم عن البنات ، ذلك الظلم الذى وصل الى حد أن يحمل البعض ابنته الصغيرة على ذراعيه ، ليدفنها حية ، وهى على ذراعيه .

أية قسوة هذه القسوة ؟ وأية صورة من الغلظة تلك الصورة المهولة ؟ ماذا يكون حسابهم وعقابهم يوم أن يؤاخذهم الله على ظلمهم الكبير وعدوانهم الخطير .

يقول الله تعالى : « واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت »[1] .

لقد حرم الاسلام وأد البنات ، وهيأ لهن من أسباب الأمن والاستقرار ما يكفل الحياة المطمئنة ، وقرر لهن الحقوق العادلة ، والانصاف التام .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه » .

وهنا نقف على القيمة العالية لتربية البنات ، وعلى مدى مكانة من يعول البنات ، أنه قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قريب من رحمة الله ،آمن من عذابه اذا استقام على الحق وأدى واجبه نحو بناته تربية وعناية ورعاية .

واذا كانت العادات الجاهلية قد انمحت بانقضاء عهدها ، وبزوغ شمس الاسلام ، التى أضاءت طريق الحياة ، وأزالت كل التقاليد العفنة ، والعادات السيئة ، الا أن هناك بعض الرواسب المرة فى بعض المجتمعات البشريه

---

(١) سورة التكوير : ٨ ، ٩.

وتلك الرواسب تتمثل فى تبرم بعض الناس واشمئزازه ، اذا جاءت له أنثى. فلا يهش لها كما يهش للذكر ، ويستقبلها من أول وهلة على مضض ، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد فحسب ، بل ان البعض يتبرم بزوجه ، ويسئ معاملتها ، وكأنها بيدها شئ من الأمر ، مع أنها لا حول لها ولا طول ، ولا يملك هذا الأمر الا الخالق القادر ، العليم الخبير ، الذى يفعل ما يشاء ويختار ، وحكمته العالية خفيت عن العقول ، انه سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض ، ومادام له ملك السموات والأرض ، وما دام له الملك فهو سبحانه يخلق ما يشاء ، ويهب من يشاء لمن يشاء ، فهو العليم بكل شئ ، وهو القادر على كل شئ .

قال سبحانه : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير » [١] والإنسان العاقل الذى يؤمن بالله حق الإيمان هو الذى يفرح للأنثى كما يفرح للذكر ويعلم أن فى إرادة الله وحكمته الخير كل الخير وأن هذا الأمر بيد الله تعالى وحده . وهو على كل شئ قدير .

ومن الصور البعيدة عن روح الاسلام ، المترسبة فى النفوس الضعيفة،كراهة البنات ، وسوء معاملة الزوجة بسبب انجاب البنات .

هذا أبو حمزة الضبى عندما ولدت زوجه بنتا هجرها ، ثم حدث أن مر

---

(١) سورة الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

على بيتها يوما فوجدها تقول لابنتها :

ما لأبى حمزة لا يأتينا
يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تا لله ما ذلك فى أيدينـا

فلما سمع ذلك أرتدع الرجل ، وثاب الى رشده ، وعاد الى زوجه ..

وان الله سبحانه وتعالى هو الذى يصور الخلق فى الأرحام ، من ذكورة أو أنوثة ، ومن بياض أو سواد ، وهكذا قال سبحانه : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم » [١] .

وجعل الله لكل ذكر أو أنثى جزاء عمله ،ولا يضيع الله عمل عامل. قال تعالى : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .. »[٢] .

وهكذا أنصف الاسلام كلا من الذكر والأنثى ، ونقى الاسلام حياة الأسرة من رواسب الجاهلية ، وأرسل ضوءه المبين الى دنيا الناس ، فوقف المسلمون على أمور دينهم ، وحرصوا على تعاليمه السمحة ، التى تأخذ بأيديهم الى شاطئ الأمان والطمأنينه وقد أنقذ الاسلام الطفولة البريئة ، والأنثى الضعيفة من الجهل المطبق ، والعدوان الصارخ ، الذى كان يتهدد النوع الانسانى بالضياع والخسران .

ومن ذلك يتضح لناأن الاسلام قد قضى على العادات السيئة من وأد

---

(١) سورة آل عمران : ٦

(٢) سورة آل عمران : ١٦٥ .

البنات ، ومن بغضهن ، كما قضى على تلك الرواسب الأخرى من كراهية ولادة البنت ، وسوء معاملة الزوجة بسبب ذلك .

ولكن بقى شئ آخر ، من تلك الرواسب ، قد يكون أكثر انتشارا فى البيئة الاسلامية ، ويجب على كل مسلم معالجته ، ذلك هو : تفضيل الولد الذكر على الأنثى فى المعاملة ، ففى كثير من البيوت والأسر ، اذا كان فى الأسرة ولد وبنت ، نجد بعض الناس يؤثر الذكر على الأنثى ، ويظهر ذلك واضحا فيما اذا كان ولدا واحدا مع مجموعة من البنات ، فيجعل الأب أو الأم للولد معاملة خاصة ، وهذا يتنافى مع الجو الاسلامى ، ويتنافى مع مبادئ الاسلام .

وان العدل بين الأبناء مطلوب ، وله ثمرته وأثره فى التربية والنشأة ، وقد نادى الاسلام بالعدل بين الأبناء .

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : أعطانى أبى عطية فقالت عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتنى أن أشهدك يارسول الله ، قال : أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ قال : لا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، قال : فرجع فرد عطيته (١) .

---

(١) رواه البخارى

الطفولة رائدة المستقبل

واذا تساءلنا : ولماذا كل تلك العناية بالطفولة ، والاهتمام البالغ بها كما سبق ؟

فان الجواب هو : لأن الطفولة هى المرحلة الأولى للشباب ، ولأن الطفولة هى رائدة المستقبل ، فالعناية بها أمر ضرورى ، تملية حاجة المستقبل ، وتلح عليه دنيا الحاضر ، وتحفز نحوه عبر الماضى ودروسه .

أما بالنسبة للمستقبل ، فلأن أطفال اليوم ، هم رجال المستقبل ، هم العالم والطبيب ، والمهندس والمدرس ، والقائد .. وهكذا .

وأطفالنا اليوم فى مسئوليتنا ، وغدا يحملون المسئولية ، وتلك هى سنة الله فى خلقه ، فليس لجيل أن يعمر فى الأرض ما شاء ، وليس لأحد أن يعيش دنياه كما يريد من العمر الطويل والحياة الممدودة .

ولهذا فكل جيل يسلم الأمانة الى جيل ، وكل عهد يترك الرسالة لمن بعده، فاذا كان الجيل السابق أو العهد السابق واعيا للمستقبل ، ناظرا بعين الجد والاخلاص ، للأجيال اللاحقة ، عنى بالطفولة ، وأكد الوصية بها، لأنها هى رائدة المستقبل ، فإن كان الأبناء مسلحين بالإيمان ، مستنيرين بالعلم ، مدعمين بالتجربة والوصايا والنصائح والخبرات ، وإذا كان الأبناء فى تكوينهم الأول أخذوا الطابع الجاد ، وتمرسوا فى خطى حياتهم على العلم والعمل ، والاخلاص والخلق الفاضل ، والتربية الاسلامية الصحيحة ، القائمة على العمل ، والقدوة قبل القول والتوجيه ،

وقامت حياتهم على الايمان بالله ، وانتهاج منهاج الحق والعدل ، والجد والاجتهاد ، نهضت فى مستقبل حياتها ، وتسلمت الرسالة وهى قادرة على حملها ، غير هيابة ولا وهنانة .

واذا كان الجيل السابق واعيا لحاضره معنيا به ، فانه لا تشغله فيه مهمة عن مهمة ، ولا رسالة عن أخرى ، ولا ينسى فى زحمة الحياة وتكدس الأعمال والمطالب ، وضخامة رسالته ، وثقل أمانته ، لا ينسى مع كل هذا وذاك رسالته تجاه الطفولة ، ولا حقوقها ، لأنها بحاضرها ووجودها قد أخذت موقعا فى الحياة غيرها هو المسئول عنها ، وغدا تكون هى المسئولة عن غيرها وهكذا .

- واذا كانت العناية بالطفولة لها هذه الأهمية ، فان أولى الأطفال بالعناية هم أولئك الذين فقدوا آباءهم ، فهم فى أشد الحاجة الى الرعاية الدائمة ، والاهتمام الأكيد والصادق ، حتى نعوضهم عن الحنان الذى فقدوه ، والأبوة التى حرموا منها ، ولا يتأتى ذلك الا فى جو يفيض بالرحمة ويعنى بالتعليم .

ولقد عنى الاسلام بالأيتام ، وبالتوصية بهم ، والنهى عن احتقارهم أو قهرهم قال سبحانه : « فأما اليتيم فلا تقهر .وأما السائل فلاتنهر »(١)

وبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم بمنزلة عالية ودرجة رفيعة ، انه يكون جارا أو قريبا من الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) سورة الضحى ٩ ، ١٠ .

ففى الحديث : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » ثم قال باصبعه : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ».

ان هذا النوع من الأبناء فى أمس الحاجة الى الرعاية والاصلاح ، فقد يكون من بينهم عبقرى نادر ، أو عالم مصلح ، أو صاحب موهبة فائقة، قد يستفيد منه المجتمع لو عنى به ووجهه وعلمه وأحسن تربيته ، وقد ينقلب هذا العبقرى النادر أو صاحب الموهبة الفائقة الى شرير أو مجرم خطير عندما يترك دون تعليم أو توجيه وحسن تربية فلا تجد مواهبه من يصقلها ، ولا ترى عبقريته من يوجهها الى الخير والاصلاح ، فينزع الى الشر ، ويتفنن فى ، وفى كل وسائله ، ويحترف شرورا لاتخطر على البال .

وإذا نظرنا - بعين الاهتمام - الى الأطفال ، بين حاضر يعيشون فيه ، وهم فى أمس الحاجة الينا كآباء وأساتذة ومربين وموجهين ومصلحين، وبين مستقبل سيقدمون عليه ، حيث يكونون هم الرجال وهم الرواد ، وهم الآباء والأساتذة ، اذا نظرنا كذلك ، دفعنا هذا لأن نولى الطفولة اهتماما بالغا ، ونضاعف من رعايتنا وتشجيعنا لأبنائنا .

ومن قصور النظر أن يظل بعض الناس ينظرون للطفل على أنه صغير غير مكلف ، بسيط لا حاجة لإ شراكه فى مهام الأمور ويظل الناس يهملونه حتى ينمو ويكبر ، وهو هياب أمام المواقف ، عاجز أمام كبار الأعمال ، يتخوف من رسالة الحياة فلا يستطيع أن يضطلع فيها بمهمة كبرى ، ولا أن يقوم برسالته فى المستقبل خير قيام ، ولهذا نجد فى كثير من مواقع العمل ضروبا من هذا النوع ، نرى أصحاب المواهب الكبيرة ،

وأصحاب المعرفة والخبرة بدقائق تخصص معين ، أو فن خاص ، قلة محدودة ، قد يكونون طاعنين فى السن ، فلا يكادون يرحلون عن الحياة ، فلا ترى من يقوم مقامهم ، ، وماذلك الا لعدم العناية بالصغير، وبالأجيال الصغيرة ، لقد ظلت النظرة البسيطة الى الأبناء فلم يتحملوا المسئولية ، ولم يخوضوا معترك الحياة .

ولكن عندما ينظر الى الطفولة على أنها رائدة المستقبل ، وتسلم لها الراية شيئا فشيئا ، وتدرب على كل شئ فى كل مرحلة ، بما يتواءم مع ميول الأطفال وادراكهم ، وتضاعف لهم برامج التعليم والتوجيه والتربية والتشجيع ، فقد تتفتق عقولهم على عبقرية أو موهبة تأتى بالجديد وبالنافع، وباكتشافات تنفع الحياة والمجتمعات .

رويدا .. لتنهض البراعم المعوقة

جميل جدا ، اعطاء الطفولة من الحقوق ما يمكنها من قيامها بدورها فى الحياة ، حتى تنهض فى مسيرة الحياة ، وتتسلم رسالتها بعد ذلك .

وجميل جدا أن نمكن لتلك البراعم نموها ، وأن نتعهدها حتى تؤتى ثمارها، وتقوم بدور العطاء ، بعد أن كانت فى مرحلة الأخذ ، فالطفولة فى مراحل عمرها، كالزرع الصغير ، يتعهده الزارع الماهر بشتى أنواع الرعاية .

إنه يقوم بسقيه واصلاحه ، وإمداده بما يحتاج من الأغذية والأسمدة، واقتلاع ما يعوق نموه من الحشائش الضارة ، والنباتات الخبيثة ، والآفات المفسدة له ، وكذلك الحال بالنسبة لمراحل الطفولة ، فهى فى حاجة الى رعاية جسمية من غذاء وشراب وكساء ،ومسكن ورعاية صحية،وفى حاجة الى رعاية أخرى روحية،من تربية وتعليم،وتزكية وتوجيه وصقل لروحه .

والى جانب هاتين الرعايتين - الجسمية والروحية - فالطفولة فى حاجة الى تنقية مناخها من كل الآفات الضارة ، والغيوم الكثيفة التى تعوق جوانب النمو العقلى والتوجيهى ، وهى عديدة ومتنوعة : فمنها ما يكون فى الأسرة من اختلاف بين الأبوين أو شجار بين الأخوة ، أو العلاقات الاكبر بين الأسرة والأسر الأخرى ، ومنها ما يكون خارج الأسرة، كالمدرسة والشارع ، وغير ذلك من مواقع المجتمع الأخرى ، وهذه عناية طبيعية وعادية لدى الطفل العادى .

وأما اذا انتقلنا الى الأطفال المعوقين : فاننا نجد أنهم فى حاجة الى عناية زائدة ، والى رعاية أكثر ، واذا كانت الطفولة فى حاجة الى عناية فائقة ، تربية وتعليما وتوجيها ، وفى حاجة الى الحنان والعطف الواعيين ، دون افراط الى حد التدليل المفسد ، ودون تفريط الى حد الغلظة والقسوة، اذا كانت الطفولة فى حاجة الى كل ذلك ، فانها عند الاعاقة تكون أشد وأمس ، فالأطفال المعوقون لهم فى أعناقنا واجب ، بل واجبات يلزمنا الوفاء بها لهم ، لأنها حقوق لهم ، حقوق ألزمنا بها ديننا ، وضمائرنا ومجتمعاتنا وانسانيتنا .

وتعال بنا أيها القارئ العزيز تتصفح بعض جوانب الواقع فى حياتنا.

كم نصادف فى المجتمعات من الرجال الكبار ، الذين فقدوا « نعمة البصر مثلا ، ولم يسعدهم الحظ بالتعليم . كم سنرى من بينهم عقليات نابهة وعباقرة أفذاذا فى تفكيرهم . فنقول بين أنفسنا : لو قدر لهم أن يتعلموا لكان لهم شأن عظيم . ويحضرنى – وأنا أكتب هذه السطور – بعض أبيات من الشعر كتبها أمير الشعراء أحمد شوقى رحمه الله ، وذلك بمناسبة اصلاح الأزهر الشريف والبدء فيه ، قال أحمد شوقى :

نظرا وإحسانا الى عميانه
وكن المسيح مداويا ومجبرا

والله ما تدرى لعل كفيفهم
يوما يكون أبا العلاء المبصرا

لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد
غبنا وجل المشترى والمشترى

أن فاتهم من نور وجهك فائت
لم يعدموا لوجوه برك منظرا
لمسوا نداك كمن يشاهد مزنة
ويد الضرير وراءها عين ترى

لقد عوضهم الله تعالى عن هذه النعمة ما وعدهم به من الجنة ، ولكن على المجتمع أن يبذل لمثل هؤلاء الأطفال من العناية تعليما وتوجيها

* ومن بين المعوقين من أطفالنا من فقد جارحة من الجوارح كاليد أو الرجل ، أو غيرها كالسمع والنطق ونحو ذلك . فيجب على المجتمع متضامنا، توفير العلاج لهم ان كان يمكن العلاج ، والا فيجب العمل على تدريبهم على بعض المهن وتعليمهم ، بحيث تشعرهم بأنهم أعضاء فى المجتمع لهم أهميتهم ، ولا يصح اهمالهم بحال من الأحوال ، وكثير من المعوقين أو بعضهم ممن كان فى جسده بعض العيوب ، أو الظواهر المرضية أو نحوها، من سمن كثير أو نحافة شديدة أو ضعف فى الصوت أو البصر أو أى عضو آخر .. كثير من هذه النماذج يأخذ فى طريق حياتة السير العادى ويتعلم ، الا أن بعض المتاعب الجسمية والنفسية قد تصادفة ، وذلك عندما لا يستمع مثلا الى قول المدرس أولا يرى من نفسه أنه مدرك لما يدرك أقرانه ، وعندئذ علينا أن نوفر لأمثال هؤلاء المكان الملائم ، وأن نرفق بهم ، ونعاونهم فى كل شئون حياتهم ، فربما لو أتم أحدهم تعليمه أو تدريبه تفتحت عقليته من جديد ، أو تفتقت عبقريتة عن اختراع ، أو اكتشاف ، وأقل شىء أنه لن يكون مهملا أو عضوا لا أثر له ، بل انه سيكون عضوا عاملا ، يعطى ويعمل ، ويكدح ويثرى الحياة الانسانية بكل ماهى فى حاجة اليه .

ان للطفولة المعوقة حقوقا يجب أن نؤديها لها ، وكل انسان فى المجتمع بحسب موقعه فيه وبقدر طاقته .

وعلى الوالدين والأسرة واجب دينى وأسرى وانسانى تجاه الطفل المعوق ، انه ليس له صدر حان سواهم ، فهم أهله ، وهم أولى الناس به ، وأجدر أن يقوموا بما يحتاجه وأن يهيئوا له متطلباته ، وكل أسباب الحياة السعيدة .

وبعض الأسر قد تشمئز أو تأنف من طفلها المعوق ، أو قد تستحى منه أمام الناس ، وهذا خطأ فاحش وظلم كبير ، وارتكاب لأكبر الخطايا فى حق طفولتهم ، بل عليهم أن يقوموا بتوفير الراحة والأمن والعلاج والتعليم والتدريب، حتى يشعر الطفل بوجوده ، ويشعر بالحنان ، وأن يراقبوا الله تعالى فى أمر خلقه ، وفى بعض أبنائهم ، وهم ان كانوا مخلصين ، وقاموا برسالتهم تجاه طفولتهم ، يجزيهم الله جزاء حسنا فى الدنيا والآخرة .

الأسرة .. والأبناء

الأسرة هى مدرسة الحياة الأولى ، التى فيها يتلقى الأبناء العادات والتقاليد ، وفى ظلها تترعرع أخلاقهم ، وفى أحضانها تنمو عواطفهم ، لذا : أحاطها الاسلام بعناية فائقة ، وأرسى الاسلام للأسرة أسس الحق والخير ، ووضح لها معالم الطريق بين الحقوق والواجبات .

وكما عنى الاسلام بالأبناء منذ طفولتهم الى شبابهم ، وحتى نهاية مرحلة الحياة ، ووجه الآباء الى رعايتهم ، وحسن معاملتهم وتنشئتهم ، فانه عنى بالوصية بالآباء ، وأداء ما يجب نحوهم من رعاية ، ردا لبعض الفضل الذى لهم على أبنائهم وعرفانا لهم بالجميل .

وتلك الحقوق والواجبات ، تدور فى حلقة متصلة من سلسة الحياة ، فأبناء اليوم هم آباء الغد وآباء اليوم كانوا أبناء الأمس ، أما بالنسبة لحقوق الأبناء ، فانها تأخذ مسارين :

الأول : جانب العطف والرحمة ، وللعطف على الأبناء أثر بالغ فى تنشئتهم ، وتفتح مداركهم ، شريطة ألا يفضى الى التدليل المفرط ، الذى يؤثر على سلوكهم الجاد فى الحياة .

وعدم الرحمة والعطف على الأبناء ومعاملتهم بالقسوة والغلظة ، أو تعرضهم للجفوة من الآباء ، يعرضهم الى اظلام نفوسهم ، واطفاء شعلة الذكاء فى عقولهم ، ويغريهم بالعقوق والتمرد ، وربما بالغواية والفساد .

ومن أجل ذلك يؤكد الرسول صلوات الله وسلامه عليه الوصية بالأبناء ، والعطف معهم والرحمة بهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رأى الأقرع بن حابس النبى صلى الله عليه وسلم يقبل ولده الحسن فقالى: إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال عليه الصلاة والسلام : «من لا يرحم لا يرحم » .

وأما الجانب الثانى : فهو احسان أدبهم وتنشئتهم النشأة الصالحة ، التى تقوم على أسس الدين الصحيحة ، بعيدا عن الترهات والأباطيل ، بعيدا عن الخرافات والأساطير ، فلا يملأ الآباء رؤوس أبنائهم بالخرافات ، بغية تسليتهم ، أو تهدئتهم فى بعض الأحيان ، كما ينبغى فى جانب التربية ملاحظة التسوية بين الأبناء ذكورا واناثا ، فلا يفضل الذكر على الأنثى ، ولا يفضل بعض الأبناء ذكورا على بعض ، ولا بعض الاناث على بعض، فإن فى مثل هذه الحالات رد فعل سئ ، يؤثر فى علاقات الأبناء بعد ذلك، بعضهم مع بعض ، ويمزق وشائج الرحم والرحمة ، ويزرع فى نفوسهم الحقد والضغينة .

ومن أهم ما يجب على الآباء أن يحرصوا عليه ، هو : أن يسود جو الهدوء والسكن والمودة فى الأسرة ، بحيث لا يتطاير شجار بين الأبوين ، أو الأخوة الكبار ، فيؤثر ذلك على سلوك الصغار ، ويجعلهم فى جو غائم متوتر ، وألا يختلط الأبناء بذوى السلوك السئ ، أو العادات المرذولة من أقرانهم ، لأن ذلك يؤثر فى سلوكهم ، وتنتقل عدوى الخلق السئ من الآخرين اليهم .

فقد جاء فى الحديث : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير » .

ومن أهم ما ينبغى ملاحظته ، هو : لزوم الآباء لأبنائهم ، ومراقبتهم لسلوكهم وتصرفاتهم ، ليوجهوهم أولا بأول .. وألا يترك الآباء أبناءهم تمتصهم تقاليد سيئة ، أو عادات قبيحة ، أو تيارات وافدة ، يكون مآلهم معها الى الضياع.

وألا يعتمدوا على المدرسة وحدها فى توجيههم ، وألا يتركوهم الى الخدم ويهملوا شئونهم ، فلقد جاء فى الحديث الأمر بلزوم الأبناء وحسن أدبهم .

عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » .

تلك هى مسئولية الآباء وواجباتهم تجاه الأبناء ، وتلك هى حقوق الأبناء على آبائهم ، وهى تأتى فى مقدمة الحقوق الأخرى الحسية والمادية من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وخلافه ، بل انها ألزم وآكد منها ، لأن بتلك الآداب والتربية ، تقوم النفس وتصلح الروح ، والانسان بنفسه قبل جسمه انسان .

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

وتربية الأبناء وتنشئتهم على الحق والهدى ، أثمن وأغلى ما يورثه لهم آباؤهم ، بل إن ذلك أبقى وأنفع لهم من المال الزائل ، الذى قد يكون سببا من أسباب الفساد .

يقول الامام على رضى الله عنه : « ثلاثة هى أفضل ما يورثه الآباء الأبناء: الثناء الحسن ، والأدب الصالح ، والإخوان الثقات » . هذا فيما يتعلق بحقوق الأبناء على آبائهم .

أما حقوق الآباء على أبنائهم ، فإن الناس لا يحتاجون إلى من يعرفهم بمكانة الوالدين ، وبما يجب نحوهما من البر ، فحسبهم أن يلتفتوا إلى ما ضى نشأتهم ، وما مروا به من أطوار متعددة ، ليتذكروا لأمهاتهم حملهن لهم وهنا على وهن ، وما قاسين فى سبيلهم من الحمل كرها والوضع كرها ، والسهر على مصالحهم ، وبذل الراحة والسعادة فى سبيل راحة الأبناء وسعادتهم .

انها التضحية الصامتة ، والبذل الذى لا نظير له فى دنيا الناس .

لذا : كان تأكيد الاسلام فى الوصية بالوالدين لا يحتاج بعد الى بيان ، حيث دعا الى الاحسان بالوالدين بعد الأمر بعبادته مباشرة : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » . وقرن الله تعالى طلب الشكر له بالشكر للوالدين : « أن اشكر لى ولوالديك » .

وذكر القرآن الكريم الأبناء بمرحلة هامة ، تعتبر فرصة لرد بعض الجميل ، وتلك الفرصة ان أفلتت أفلت الخير كله ، وهى عندما يبلغ الآباء الكبر ، وتأتى وصايا القرآن فى هذا الصدد ، موضحة ومؤكدة ما يجب للآباء من البر بجميع صنوفه ، من القول الكريم والفعل العظيم ، والتواضع الجم ، والرحمة الوافرة ، ثم بعد ذلك كل ما يمكن بذله .

يقرر القرآن حقيقة واقعة لا مجال لجحودها وانكارها ، وهى : أن الانسان مهما بذل وضحى فانه لن يستطيع أن يفى والديه حقهما ، وعندئذ يكل ذلك الى الله داعيا اياه مرددا ملء قلبه وفيه : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

وبر الوالدين يعتبر من أعظم الجهاد فلقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن فى الجهاد ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ألك أبوان ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد .

وجاءه رجل فسأله : هل بقى من بر أبوى شئ أبرهما به بعد موتهما؟ قال نعم . الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما . « ومعنى الصلاة عليهما » أى الدعاء لهما .

وإن تنكر الأبناء لفضل آبائهم عقوق من أكبر الكبائر ، وجريمة من أشد الجرائم .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ان أبى أخذ مالى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للرجل : « فائتنى بأبيك » فنزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ان الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك: اذا جاءك الشيخ فاسأله عن شئ قاله فى نفسه ما سمعته أذناه ، فلما جاء الشيخ قال له النبى صلى الله عليه وسلم : مابال ابنك يشكوك؟ أتريد أن تأخذ ماله ؟ فقال : سله يارسول الله ، هل أنفقه إلا على إحدى عماته ، أو خالاته ، أو على نفسى ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ايه دعنا من هذا ، أخبرنى عن شئ قلته فى نفسك ما سمعته أذناك ، فقال الشيخ : والله يارسول الله مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت فى نفسى شيئا ما سمعته أذناى ، قال : قل وأنا أسمع ،

قال : قلت :

غذوتك مولودا وعلتك يافعــا
تعل بما أدنى إليك وتنهـل

إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت
لسقمك إلا ساهـرا أتـملمــل

كأنى أنا المطـروق دونك بالذى
طرقت به دونى فعينى تهمــل

تخاف الردى نفسى عليك وإنها
لتعلم أن الموت وقت مؤجــل

فلما بلّغت السن والغاية التــى
إليها مدى ما كنت فيه أؤمــل

جعلت جزائى غلظة و فظاظــة
كأنـك أنـت المنعـم المتفضـل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتـــى
فعلت كما الجار المصاقب يفعل

فأوليتنى حق الجوار ولم تكــن
على بمـال دون مـالك تبخــل

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم للولد :

« أنت ومالك لأبيك » .

إن حقوق الآباء فى أعناق أبنائهم واجبة الأداء ، ولا يمكن للأبناء أن يفوا آباءهم حقهم مهما فعلوا وبذلوا ، ومهما ضحوا وقدموا .

القدوة الحسنة

اذا أردنا أن نتعرف على مثل كامل فى طفولته وشبابه ، لنتخذ منه القدوة ، فليس أمامنا الا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كانت مرحلة شبابه صلوات الله وسلامه عليه طاهرة نقية ، مستقيمة زكية ، بعيدة كل البعد عن اللهو والعبث ، بعيدة عن الشيطان ووساوسه ، وعن الهوى وهواجسه . فقد عصمه الله تعالى ورعاه ، وحفظه من كل سوء ، فشرح الله صدره ، ولم يجعل للشيطان عليه من سبيل ، لقد توفى أبوه وهو فى بطن أمه - على أصح الآراء - وأما أمه فقد توفيت بين مكة والمدينة بالأبواء منصرفها من المدينة ، من زيارة أخواله بنى النجار ، وهم أخوال أبيه عبد الله ، وكان عمر الرسول صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لم يستكمل سبع سنين ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم توفى عبد المطلب وكان عمره نحو ثمان سنين ، وقيل ست ، وقيل عشر ، وعندئذ كفله أبو طالب .

وبرغم ماكانت تعج به الحياة من حوله من لهو وعبث ، ومن تهالك الشباب وتهافتهم على مظاهر اللعب والطرب ، فإن شباب رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، كان مصونا من كل دنس ، محفوظامن كل سوء أو شر وكان طبيعيا أن ينشأ هذه النشأة الطاهرة النقية ، لأن العناية الإلهية كانت تعده لأمر السماء ، ووحى الله وتبليغ الرسالة ، كما كانت دعوة أبيه

إبراهيم ، وبشرى أخيه عيسى ، ورأت أمه عندما حملت به من البشارات ما رأت ، وشرح الله صدره .

وفيما رواه ابن اسحاق ، أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : أخبرنا عن نفسك ؟ قال : نعم أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء قصور الشام..

ولقد عاش رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فترة شبابه بالعمل والسعى، واشتغل برعى الأغنام ، قال صلى الله عليه وسلم « كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة » [١] .

وفى كده وجده ، وفى اشتغاله بالعمل رغم كفالة عمه له ما يفيد أهمية العمل ، وأن خير ما يأكله الإنسان ما كان من عمل يده ، كما أن فى العمل ثمرة هامة أخرى بالإضافة الى نفع الإنسان لنفسه ، وتلك الثمرة هى انتفاع الحياة من العمل ، وازدهار حركة المجتمع بالنشاط فيها والتفاعل معها .

وحفظ الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه من أى عبث أو لهو أو لعب كان يأتيه غيره فى مثل سنه .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « ما هممت بشئ مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى

---

(١) رواه البخارى .

بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة واسمر بها كما يسمر الشباب؟ فقال : إفعل ، فخرجت حتى إذا كنت بمكة سمعت عزفا فقلت : ماهذا ؟ فقالوا : عرس ، فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس ، فعدت الى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة ، فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء » (١) .

وهكذا كانت العناية الإلهية تحيط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل لحظة من اللحظات ، وفى كل زمان ومكان .

واشتهر صلوات الله وسلامه عليه بالصادق الأمين ، وبكل فضيلة كريمة من الفضائل المثلى .

واشتغل بالتجارة ، فخرج فى تجارة لخديجة إلى الشام ، فكان المثل الكامل فى تجارته ، وصدقه وأمانته ، وإخلاصه فى كل الأمور .

والمتصفح لمرحلة الشباب هذه ، يرى فيها الطهر والنبل ، والنشأة المثالية العالية ، التى يجد عندها القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة ، التى يجب على شباب الإسلام أن يقتدى بها فى حياته ، منتهجا فيها نهج الاسلام، ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رواه الحاكم والطبرانى .

الفصل الرابع

الاسلام والشباب

مرحلة الشباب من أهم مراحل العمر

الشباب مرحلة من مراحل العمر ، تتمثل فيها القوة والحيوية ، والحركة والنشاط . ومرحلة الشباب هذه جعلها الله سبحانه وتعالى وسطا بين مرحلتين ، كلتاهما تتسم بالضعف :

* المرحلة الأولى : هى مرحلة الطفولة من حين يولد الطفل ضعيفا لايقدر على الحركة ، ولا يستطيع التعبير ، ولا يعى من الأمر شيئا كما قال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (١) .

*والمرحلة الأخرى : هى مرحلة الشيخوخة والكبر وفى هذه المرحلة تنقلب حال الانسان من القوة الى الضعف ، فتنقص معلوماته وتضعف بنيته وقواه، كما قال تعالى : « ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون » (٢) ، فمن وصل الى هذه المرحلة يكون قد تقلب فى المراحل الثلاث، وانتهى حاله الى الضعف والنقص والنسيان فلا يعلم - بعد علم- شيئا ، كما قال تعالى مستدلا بتلك المراحل والأطوار على البعث ، وأنه

---

(١) سورة النحل آية ٧٨ .

(٢) سورة يس آية ٦٨.

حق . قال تعالى : « يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »[(١)] .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه المراحل فى قول الله تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير »[(٢)] .

ومرحلة الشباب انما تعتبر من أدق المراحل فى حياة الانسان ، لأن الشباب يحملون نفوسا خصبة صالحة للخير والاصلاح ، وقلوبا صافية لم تقتحمها - بعد- عادات سيئة ، ولا تقاليد ضارة ولا ضروب من الأخلاق التى تتراكم فى العادة لدى الكبار ، ومن أجل هذا كانوا أسرع فئات المجتمع الى قبول النصيحة، واستجابة الدعوة ، وكان لتوجيههم وإرشادهم أكبر الأثر فى مستقبل حياتهم ، خاصة منذ الصغر ، قبل أن يشبوا ويكبروا على بعض العادات أو الرذائل التى قد تغشاهم فترة ما من الزمن، أو تهب عليهم عواصف الشك والقلق ، فيصبح علاجهم حينئذ صعبا ، لأن من شب على شىء شاب عليه .

---

(١) سورة الحج آية ٥

(٢) سورة الروم : ٥٤ .

وفى هذه المرحلة أيضا ، كثيرا ما تتحرك العواطف ، وتهب من ركودها فى نشاط وحيوية ، تتسم بحسن الخلق ، والإعجاب بمظاهر البطولة فى سبيل الدين والوطن ، كما تتسم بحدة العقل .

ومن نصائح السلف قول ابن شهاب الزهرى : « لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فان عمر ابن الخطاب كان اذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان ، واستشارهم يبتغى حدة عقولهم » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعنى بتشجيع الشباب ، ويكشف عن أهمية دورهم فى الحياة ، فيمنحهم الثقة بأنفسهم ، إذ يثق بهم فى معضلات الأمور ، وأصعب المهام وأخطرها ، فيسند اليهم أعمالا عظيمة، ويوليهم القيادة، فقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم : عليا الراية يوم بدر وسنه يومها نحو عشرين سنة ، وأعطى زيد ابن ثابت راية بنى النجار يوم تبوك ، وسنه نحو عشرين سنة ، وأعطى زيد ابن ثابت لواء السرية التى جهزها ، وسنه نحو عشرين سنة وقيل تسعة عشرة سنة .

رعاية الشباب
فى ضوء القرآن الكريم

اذا نظرنا الى رعاية الشباب ، فى ضوء القرآن الكريم ، فاننا سنقف أمام عطاء غامر ، ودروس باهرة ،تتضافر فى ابراز ما للشباب من أهمية، وتلقى الضوء على كيفية المحافظة عليهم ، وتوجيههم وتربيتهم وتعليمهم .

وسنحدد الحديث هنا عن رعاية الأبناء فى أربعة عناصر :

أولا : إنهم نعمة من الله سبحانه وتعالى ، يتمناها الناس ، كما تمناها الأنبياء ، فلذا يدعون ربهم أن يهبهم ذرية طيبة .

ثانيا : رعاية الله تعالى لهم منذ الإقرار فى الرحم ، إلى أن يخرجوا إلى الوجود .

ثالثا : المحافظة على حياة الأبناء ، ورعاية طفولتهم ، والدفاع عنهم ، وتوفير السعادة لهم .

رابعا : تربيتهم وتعليمهم .

أما بالنسبة للأمر الأول ، وهو أنهم يمثلون نعمة من أكبر النعم التى يتمناها الناس كماتمناها الأنبياء،ويدعون ربهم بها فنرى قول الله تعالى فى وصف عباده الذين شرفهم بالإضافة اليه،وسماهم عباد الرحمن قال : «والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما » (١) .

---

(١) سورة الفرقان آية ٧٤ .

وقال سبحانه في شأن زكريا عليه السلام : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء » (١) .

وأنهم أيضا زينة الحياة الدنيا ، وقد أشار القرآن الكريم الى أن هذه النعمة قد ينالها البعض ولا ينالها آخرون ، وما يمنح الله لعباده منها قد يكون ذكرا وقد يكون أنثى ، وقد يكون الأبناء من الذكور والاناث ، وقد لا ينجب الرجل مطلقا بأن يكون عقيما ، وذلك كله ان دل على شئ فانما يدل على سعة علمه تعالى وحكمته، وقدرته وارادته .

قال سبحانه : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا واناثاويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير » (٢) .

ومن أجل هذا : فان القرآن الكريم حين يشير الى الأبناء باعتبارهم زينة يتزين وينعم بهم الانسان ، كما يتزين وينعم بالمال ، فانه يردف الحديث بأن الأبقى له ثوابا ونفعا ،وأن خير ما يتحقق للإنسان من أمل فى الآخرة،مما كان يتمناه ويؤمله فى الدنيا، انما يكون فى الباقيات الصالحات من أعمال الخير ، التى تبقى ثمرتها ، فقال سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » (٣) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٨ .
(٢) سورة الشورى آية : ٤٩ ، ٥٠ .
(٣) سورة الكهف .آية : ٤٦ .

وهداية الأبناء أمنية الآباء التى يدعون بها لهم ولأنفسهم .

قال تعالى فى شأن ابراهيم عليه السلام ، وحرصه على هداية بنيه : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام »[١].

ويصور القرآن الكريم أثر الآباء فى الأبناء ، حين تصح عقيدتهم ويسلكون الصراط المستقيم ،ويتبعون هدى الله فتتبعهم ذريتهم على طريق الايمان . قال سبحانه : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا ابهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ كل امرئ بما كسب رهين »[٢] .

وأما بالنسبة للأمر الثانى ، وهو رعاية الله للأبناء بعد الإقرار فى الرحم فقد وضح القرآن الكريم أطوار الخلق ، مبينا كيف كانت رعاية الله للإنسان ، منذ اللحظة الأولى التى كان فيها نطفة ، ثم تدرج الى علقة ، ثم الى مضغة .. الى أن يخرج طفلا ثم الى أن يكبر ، واستدل بهذه الأطوار على كمال قدرته تعالى على البعث .

قال سبحانه : « ياأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم .. »[٣] .

---

(١) سورة ابراهيم : ٣٥ .
(٢) سورة الطور آية : ٢١ .
(٣) سورة الحج آية : ٥

كماراعى الاسلام للأبناء حق الرضاع حتى يضمن للطفل من اللحظات الأولى ما تنهض به حياته ، وتقوم عليه . فقال سبحانه : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده.. »[١] .

وأما عن الأمر الثالث ، وهو المحافظة على حياة الأبناء ، والدفاع عنهم ، وتوفير السعادة لهم : فقال الله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم » [٢] .

فقد نهى الله عن قتلهم من أجل فقر موجود ، واقع حال . وفى موطن آخر قال تعالى :« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق .. »[٣]أى مخافة وقوع فقر .

كما راعى الاسلام – فى سبيل المحافظة على حياة الأبناء حمايتهم وصيانتهم من التعرض لهزات الزمن ، وتقلب الحياة فأمر الاوصياء أن يخشوا ربهم ويتقوه فى أمر اليتامى،وأن يتصرفوامعهم بما يحبون أن يفعل بذريتهم الضعفاء بعد موتهم ، قال الله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا »[٤].

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٥١ .
(٣) سورة الاسراء اية : ٣١ .
(٤) سورة النساء آية : ٩ .

وأما بالنسبة للأمر الرابع ، وهو تربية الأبناء وتعليمهم : فقد قدم لنا القرآن الكريم صورة من الوصايا في اطار متكامل ، ترسم للشباب معالم الطريق ، وملامح الحياة المستنيرة المستقيمة التى تظل موصولة بالله وبالمجتمع الذى يعيشون فيه،وهذه الوصايا يقدمها القرآن على لسان لقمان يقول سبحانه : « واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولاتمشى فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » (١) .

ان أولى الوصايا وأول أساس من أسس التربية والتوجيه« العقيدة » التى تتمثل فى توحيد الله تعالى . ثم جاء بالوصية بالوالدين ، وهى وان لم ترد على لسان لقمان ، الا أنه أوردها هنا تأكيد التصحيح مسارالعقيدة

---

(١) سورة لقمان الآيات : ١٣ - ١٩ .

والمبالغة فى عدم التهاون بها ، حتى وان كان ذلك ممن وصى الله بهما بعده مباشرة وهما الوالدان ثم كان التوجيه الى علم الله الذى أحاط بكل شئ ، ولطفه الذى يدرك كل دقيق من الأمور وكل خفى عن الناس . ثم الوصية بالصلاة التى تعنى الصلة بالله تعالى ، والتى من ثمراتها تهذيب النفس ، والانتهاء عن الفحشاء والمنكر « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

ثم تنتقل الوصايا من الصلاة التى بها تتهذب النفوس ، وتكمل فى هداها الى ما يهذب من الغير ويكمل هداه ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكل ذلك فى حاجة الى الصبر والاحتمال واستمرار مواصلة السير . ولا يكفى لتهذيب الغير وارشاده والتقويم من اعوجاجه مجرد النصيحة ، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ، بل لابد من المعاملة الحسنة مع الغير ، وممارسة القدوة ، والتطبيق العملى معه كما لابد أيضا من التواضع والتآلف هكذا سارت بنا هذه الوصايا الحكيمة ، ترسل عطاءها وهداها ، رعاية للشباب ، فى جميع الجوانب ، سواء ما يتصل منها بعقيدته وصلته بالله، وما يتصل منها بسلوكه وتهذيبه وتنشئته تنشئة صالحة ، وما يتصل منها بعلاقاته الانسانية فى أسمى صورها العديدة والرشيدة .

* * *

* ويرسى القرآن الكريم أصولا فى الآداب العالية ، ومن بينها أدب الاستئذان فيما يتصل بالأسرة والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، والشباب

الذين بلغوا الحلم ، وذلك عند دخولهم على الكبار، فى وقت الراحة والخلوة قال الله تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » (١)

وقد روى فى سبب نزول الآية السابقة : أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها فى وقت كرهته فنزلت الآية ، وقيل أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلج بن عمرو الأنصارى - وكان غلاما - وقت الظهيرة ليدعو عمر ، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه ، فقال عمر رضى الله عنه : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا ألا يدخلوا هذه الساعات علينا الا باذن، ثم انطلق معه الى النبى صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت تلك الآية السابقة .

ولقد ضرب لنا القرآن الكريم أروع الأمثلة فى أنبل نموذج للعفة مع نبى الله يوسف وهو شاب فلقد تعرض لفتنة الجمال مع امرأة العزيز قال تعالى :« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت

---

(١) سورة النور آية : ٥٨ ، ٥٩.

لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون »[١].

كما ضرب المثل الرفيع بنبى الله موسى عليه السلام فى مروءته مع بنات شعيب ، ويشيد القرآن بقوته وأمانته اذ يقول :

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير . فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » [٢] .

---

(١) سورة يوسف آية : ٢٣ .

(٢) سورة القصص : ٢٣ - ٢٦ .

رعاية الشباب

فى ضوء السنة الشريفة

أولا : جانب التربية :

لقد عنى الرسول صلى الله عليه وسلم برعاية الشباب عناية فائقة ، باعتبارهم طلائع الأمة ، وعدتها فى الجهاد ، وفى العمل والنهوض ، وباعتبارهم رجال المستقبل،وأسبق فئات المجتمع الى قبول دعوات الاصلاح

ومن ناحية أخرى باعتبارهم قوة قد تتأجج بالخير اذا وجهت اليه ، وقد تنزع الى الشر ، اذا تركت وأهملت .

ومن هنا حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تنشئة الأبناء على أساس من العقيدة الصحيحة ، والعبادة السليمة ، وتقوى الله تعالى منذ نعومة أظفارهم ، حتى اذا شبوا وكبروا كانوا متعودين على العبادات ، وعلى طاعة الله تعالى ، وكانت سائر أعمالهم وعلاقاتهم بغيرهم نابعة من محيط اسلامى نقى .

وأول ما ينبغى أن يتعلمه الأبناء من العبادات - بعد معرفة الله تعالى - هو إقامة الصلاة .

قال صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ،واضربوهم عليها وهم أبناء عشرسنين،وفرقوا بينهم فى المضاجع »(١)

فيجب على المسلم أن يوجه ابنه ويأمره بالصلاة عقب تمام سبع سنين

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

اذا كان الطفل مميزا ، والا فعند التمييز ، ويضربه ضربا غير مبرح على تركها وهو ابن عشر سنين ، أي بعد تمامها ، واعتقد جماعة من الشافعية أن الضرب يجب فى الشروع فى العاشرة ، لأن الضرب عقوبة ، والعشر من احتمال البلوغ بالاحتلام ، وفى هذه السن يقوى عوده ويحتمل.

ولما كان لتربية الشباب أثرها البالغ فى الشباب أنفسهم ، وفيمن يؤثرون فيهم بعد ذلك جيلا فجيلا ، كانت نظرة الاسلام الى تربية الشباب وتوجيه القوى الكامنة فيهم بعيدة المدى ، وبحيث تقدم تربيتهم على أى عمل آخر حتى ولو كان صدقة .

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع » [(١)] .

ويجعل هداية الوالد لولده ، وتوجيهه له التوجيه السليم أفضل هدية يقدمها الآباء للأبناء .

قال صلى الله عليه وسلم : « ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن » [(٢)].

ومن أهم ما ينبغى أن يغرس فى نفوس الأبناء ، من فضائل الإسلام وآدابه: خلق الصدق ، فاذا ما نشأوا عليه وألفوه منذ الصغر كبروا عليه ، فكانوا صادقين صالحين فى سائر أقوالهم وأعمالهم .

عن عبد الله بن عامر قال : دعتنى أمي يوما . ورسول الله صلى

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه الترمذى .

الله عليه وسلم قاعد فى بيتنا - فقالت : تعال أعطك ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا. فقال لها : « أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة » [١] .

ومن أجل أن يشب الأبناء على سائر معانى الاسلام وفضائله ، كانت الرعاية بغرس خلال البر والخير والرجولة فيهم منذ صغرهم لها أهميتها ، ومن ذلك : تحية الاسلام ، وهى « السلام »

عن أنس رضى الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم و قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله »

ولم تدع السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام جانبا من جوانب التربية والرعاية الا واشتملت على وصايا وتعاليم فيه ترقى بالشباب وتهذب من سلوكهم ، ومن ذلك : جانب قد يغفل عنه بعض الآباء فى تربية أبنائهم ، بدافع العاطفة والرحمة والاشفاق ، وهو أدب المائدة ، وعند ما يتناول الأبناء الطعام ، هنا يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم النظر الى ضرورة مراعاة البدء فى الطعام باسم الله، وأن يأكل الانسان مما يليه .

عن أبى حفص عمر بن أبى سلمة ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت غلاما فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت

---

(١) رواه أبو داود .

يدى تطيش فى الصحفة ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياغلام سم الله تعالى وكل بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتى بعد » [١] .

ويوصى الاسلام باليتيم ، لأنه فى حاجة ماسة الى العناية والرعاية والرحمة .

قال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » [٢].

وقال سبحانه : « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » [٣].

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما » [٤] .

كما خص الإسلام البنات بمزيد رعاية وإشفاق ، باعتبارهن ضعيفات، وباعتبار أهميتهن فى تكوين الأسرة ، فالأسرة أساس المجتمع ، والفتاة عندما تكبر وتصبح أما فان أهميتها بالغة ففى أحضانها تنمو عواطف الأبناء، وتترعرع أخلاقهم ، لذا كان لها مزيد عناية واهتمام ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئا غير واحدة فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنيها ولم تأكل ثم قامت فخرجت فدخل النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) سورة الضحى آية : ٩ : ١٠ .
(٣) سورة الماعون : ١ : ٣
(٤) رواه البخارى .

علينا فأخبرته فقال : من ابتلى من هذه البنات بشئ فأحسن اليهن كن له سترا من النار » (١) .

وهكذا ، يكون جانب التربية ، كواحد من جوانب رعاية الشباب فى ضوء السنة المشرفة .. ورأينا أنه يقوم على ترسم أسس العقيدة والدين الحق فى قلوب الشباب وعقولهم ، وأخذ بمعانى الاسلام وقيمه ، وتربيتهم تربية صحيحة ، يستقيم منه سلوكهم وسيرهم فى الحياة .. ثم ننتقل بعد ذلك الى الجانب الآخر وهو تحمل المسئولية ، أو بعبارة أخرى : جانب العطاء فان الجانب السابق هو جانب الأخذ ، تتمثل فيه التوجيهات والنصائح المستقيمة .

ثانيا : جانب تحمل المسئولية :

وتقع على عاتق الشباب مسئولية كبيرة ، تبدأ بنفسه وشبابه ، فان المرحلة التى يمر بها الشباب من حياتهم يجب عليهم أن يغتنموها ، قبل أن يغزوهم الهرم والمشيب ، فيضعفوا عن القيام بمهام الحياة التى نيطت بهم ، وتفلت منهم المرحلة الذهبية فى تحمل المسئولية وفى عطائهم لأمتهم الاسلامية ، وقد حثت السنة الشريفة على اغتنام هذه المرحلة قبل ضياعها ، كما يجب اغتنام غيرها من فرص الحياة الكريمة التى يمكن أن نثرى بها قوة الأمة وإنتاجها ، والبذل والتضحية والإنفاق والعمل والسعى فى كل دروب الحياة ، يجب اغتنام كل هذا .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

عن عمر بن ميمون قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك »(١).

والانسان مسئول عن هذه المرحلة من حياته ، مرحلة الشباب ، فيم أبلاها ، وكيف قطعها ، انها فترة القوة والنشاط والحيوية ، ويمكن للانسان أن يستغل شبابه الفتى فى كثير من أوجه الحياة النافعة ، فى الخير والإصلاح ، فى التقوى والعمل الصالح ، فى الإنتاج فى كل ما يدفع بموكب الحياة الإنسانية قدما الى الأمام ، وفى كل ما يجعل الحياة تسعد وتزدهر . انه مسئول عن كل ذلك ، فقد منحه الله تعالى هذه القوى الدافقة ، ليستغلها فى خيره وخير الإنسانية ، أما إن سخرها فى غير ما ينفع نفسه ولا ينفع المجتمع ، وتباهى بقوته ، ووجهها للفحشاء والمنكر ، أو الظلم والعدوان ، أو لمصلحة نفسه الخاصة ، فغلفها بالأنانية والأثرة فانه مسئول أيضا عن كل ذلك .

عن أبى بردة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » (٢) .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه البزاز ، والطبرانى ، والترمذى .

وقد أعد الله تعالى منزلة عالية للشباب الذى ينشأ فى طاعة الله ، إنه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل الا ظله : امام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »[١] .

والاسلام اذ يحمل الشباب المسئولية ، ويكلفه بالواجب ، انما يحمله ذلك بعد اكتمال نضجه ، ولا يحاسبه الا بعد بلوغه ، أما قبل ذلك فقد رفع القلم عنه .

قال صلى الله عليه وسلم : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المبتلى حتى يبرأ ، وعن الصبى حتى يكبر »[٢] .

وفى رواية عن على وعمر بلفظ : « رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم »[٣] وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على توجيه الشباب توجيها سديدا ، وتحميلهم مسئولية الحياة بالزواج وتكوين الأسرة الذى يدفع الى الكسب و العمل ، فوجههم توجيها يملك

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى .
(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم .
(٣) رواه أحمد وأبو داود والحاكم .

عليهم أقطار نفوسهم ، ويكبح جماحهم ، ويهديهم سواء السبيل فناداهم بالوصف القائم فيهم ، الداعي لهم أن يصيخوا السمع ويرهفوا الاحساس الى ما سيلقى عليهم بعد من توجيه ، فناداهم بوصف الشباب قائلا : «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » (١) .

ففى الزواج العصمة من الزلل ، والمحافظة من الانزلاق فى وحل المعصية ،أو التردى فى مهاوى الفساد، فانه أغض للبصر فيكفه عن النظر الى ما حرم الله ، وأحصن للفرج ، فتكون به العفة وسلامة الخلق والدين وحماية الأعراض ، هذا بالأضافة الى ما فيه من السكن والمودة والرحمة .

وفى طريق تحمل المسئولية ، ينبغى أن يكون اتجاه الشباب على أساس من العقيدة الصحيحة ، استعانة بالله وتوكلا عليه .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم يومافقال : ياغلام انى أعلمك كلمات : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلابشئ قد كتبه لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف » (٢) .

وفى سبيل تحمل الشباب للمسئولية ، تركز السنة الشريفة على قيام

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه الترمذى .

كل شاب قادر بالعمل ، وأداء الواجب المنوط به ، والسعى على المعاش ، فيقوم بالعمل الذى يعف به نفسه ، ويؤدى ما وجب عليه حيال أهله وعشيرته ، وإن كان له أبوان كبيران وهكذا ... بل ان مثل هذا العمل الشريف الرائد ، المعتبر فى سبيل الله ، له من المثوبة والمنزلة ما للمجاهد.

مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه فقالوا : يارسول الله ، لوكان هذا فى سبيل الله ؟ فقال الرسول : « ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهوفى سبيل الله ،وان كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان»(١)

وقد وضح الرسول صلى الله عليه وسلم للشاب الذى جاءه يستأذنه فى الجهاد وضح له قيمة مسئولية العمل من أجل بر الوالدين فقال له : أحى والداك ؟ قال نعم قال : ففيهما فجاهد .

ويتفرع جانب المسئولية - فى الشباب - من ناحية السعى والكسب ، والجد والعمل الى ناحية الجهاد فى سبيل الله ، والرمى فى سبيل الله ، وتعلم الوسائل المساعدة على ذلك . فيقول صلى الله عليه وسلم : « علموا أبناءكم السباحة والرماية » (٢).

ويوضح قيمة الصناعة الحربية . التى تكون فى سبيل الله ومن أجل اعلاء الحق ، وقيمه الرماية ، عن عقبه بن عامر رضى الله عنه

---

(١) الترغيب والترهيب .

(٢) رواه الديلمى وابن منده .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:« ان الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانع يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به ، ومنبله ، وارموا واركبوا، وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها ، أو قال : كفرها » (١) .

وعن سلمة بن الأكوع قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم على قوم ينتضلون فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فان أباكم كان راميا ارموا وأنا مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : ما لكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم ، فقال : ارموا وأنا معكم جميعا » (٢) .

ثم يتفرع جانب المسئولية – فى الشباب–الى ناحية ثالثة،هى الناحية الانسانية ، تلك الناحية تتمثل فى التعاون ومساعدة الضعفاء وكبار السن

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ما أكرم شاب شيخا لسنه الا قيض الله له من يكرمه عند سنه » (٣) .

ذلك أن من المعلوم أن الصحة نعمة من النعم يجب أن يؤدى صاحبها حقها من المساعدة للضعفاء ، ومعاونة كل محتاج وكبير .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » (٤) .

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه الترمذى عن أنس .
(٤) رواه البخارى .

انحرافات الشباب
أسبابها ومعالجتها

تظهر أسباب انحراف الشباب تدريجيا على حسب نشأته المتدرجة من المنزل ، الى الشارع ،الى المدرسة ،الى المجتمع ،ثم الى وسائل الاعلام

أما بالنسبة للمنزل : فترجع أسباب الانحراف منه الى عدم تمثل الوالدين للقيم الدينية ، وعدم تمسكهم بآداب الاسلام قولا وعملا وتطبيقا ، وتربية لأبنائهم ، والبيت هو أول مدرسة تنمو فيها عواطف الشاب ، وميوله وغرائزه ، وعلى الأبوين تقع المسئولية الأولى بالنسبة للأبناء ، فاذا مارأى الابن أن الأبوين منصرفان عن التعاليم الاسلامية ويهملان شأنها ، ولا يعنيان بأخذه بها وتربيته عليها ، انطلق من البيت ومعه الميول والنزعات القابلة لأى انحراف بعد ،لأنه لم يأخذ الحصانة الأولى من البيت. ومن هنا فانه اذا خرج للشارع فوجد انحرافا ما ، أو سلوكا غير صحيح من بعض الشباب الذين يقاربونه فى السن فانه لا يجد بأسا فى تقليدهم أو السير معهم ، ولا يشعر فى نفسه بأى امتناع عن سلوك الشر أو أى اعتراض من نفسه ، فيسلك ما يسلكون ، ويسير فيما يسيرون فيه، بل قد يصادفه فى الشارع أو فى الأماكن العامة مثلا بعض المظاهر المخالفة للفضيلة ، فلا يجد فى نفسه إنكارا لها ، بل ربما استهوته تلك المخالفات فأشعلت فى نفسه الرغبة فى الشر أكثر .

واذا ما ذهب بعد ذلك الى المدرسة التقى بمن فى سنه فيجد منهم

نماذج مختلفة ، وطباعا متباينة ، فيها الخير ، وفيها الشر ، فاذا ما زحف الشر عليه ، فمن المفروض أن فيما يتلقاه من دروس وفيمن يلتقى بهم من أساتذته من قدوة ، كل ذلك يكون من المنتظر منه أن يهذب من سلوكه ، وأن يجعله يتخلى عن رذائله ، ويتحلى بفضائل جديدة ولكن ضعف التربية وقلة المواد الدينية فى بعض المدارس ، وعدم كفايتها للقيام بالدور الهام الذى ينبغى أن يكون موجها ومربيا ، كل ذلك لا يكون من شخصية الشباب النفس الصالحة المهذبة ، التى تسير دوما الى الخير .

ثم اذا تنقل بعد ذلك فى جوانب المجتمع الأخرى ، كالنادى أو السوق أو أى موقع آخر ، لم يجد فى تلك المواقع من أسباب الخير شيئا ، بقدر ما يرى من أسباب الشر ، ففى المعاملة من بيع أو شراء يصادف المخالفات والبعد عن الحقيقة ، وفى النادى وفى غير ذلك من الأماكن .

وإلى جوار ذلك ما تقوم به المدارس الأجنبية فى بعض البلاد الأخرى من دور فعال ، وما تقوم به الإرساليات التبشيرية لتشكيك الشباب المسلم فى عقيدته ، وأيضا فتح المستشفيات والمستوصفات، ودور التمريض وغير ذلك ، وإشاعة الدعاية الكاذبة للثقافة الغربية وإبرازها فى مظهر خلاب .. ومع هذه المظاهر تسير المذاهب الهدامة جنبا الى جنب لنشر المبادئ الفاسدة ، كالشيوعية والماسونية والبهائية والقاديانية وغيرها فى بعض البلاد .

ولا يقتصر الأمر على ما سبق ، بل يساعد على كل ذلك « الفراغ » الذى يعيش فيه بعض الشباب ، والذى تهيأ لأن يملأ بأى جديد براق أو أى شئ فيه تسلية له .

هذا بالإضافة الى مالحق بالأدب نثرا وشعرا أو قصة ومسرحية ، من البعد عن الآداب الرفيعة ، والقيم العالية ، وهبوطه وتشويه فكره بالاباحية فى مختلف الأعمال الأدبية ، وإشاعة مؤلفات بعض الأدباء الإباحيين فى هذا الصدد ، كما هو الحال فى بعض كتاب الأجانب وأصحاب الأقلام المسمومة .

والشيطان وراء أزمة الشباب بالمرصاد ، انه دائب السعى بشتى المظاهر والمحاولات للقضاء على القيم الدينية .

هذا وقد ظهر من تلك الأسباب ، ظواهر خطيرة متعددة الأشكال ، برزت من بينها النزعة العدوانية على الأنفس والأموال والأعراض . ثم الاستجابة الى الرغبات اللا انسانية ، من الخيانة والغش والمجاهرة بالمعصية ، والانحراف ، وعقوق الوالدين ، وعقوق الوطن .

وظاهرة القمار والمخدرات ، وأحيانا يصاب بعض الشباب باليأس حين تضيع من يده الحيل ، وينتابه الشك ، وتطغى عليه الغرائز فى جموح عجيب ، يفقده عقله وعقيدته ، مما يدعوه أحيانا الى التخلص من الحياة ، والانسحاب منها فى صورة بعيدة عن الدين والانسانية والتعقل ، وذلك فى ظاهرة الانتحار .

وأحيانا تستهويه المظاهر الكاذبة الذميمة من شباب الغرب ، فيحاول تقليدهم ، حين يتشبه بالنساء ، أو حين تتشبه النساء بالرجال .

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال

بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال [١] .

وقد يظهر فى لبس ما تلبس المرأة ، أو تظهر المرأة بما يلبس الرجل .

وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل [٢].

هذا وللأيديولوجيات الأجنبية ، والتبعية الفكرية الأثر الكبير فى تسرب الفكر الأجنبى الدخيل ، هذا الى جانب أن تلك الأيديولوجيات الأجنبية وضعت لمشاكل خاصة لاوجود لها فى مجتمعاتنا الاسلامية،ولاسيما وقد دلت التجارب العملية فى بيئاتها على إفلاسها فى علاج ما وضعت له ، بل إنها قد أوجدت مشاكل اجتماعية واقتصادية جديدة ، هذا وان بريق تلك الأيديولوجيات بريق خادع لا يمثل الا الطعم ، للاغراء بالوقوع فى مخالب الأخطبوط العالمى [٣] .

والاسلام لا يعادى العلم ، أو التقدم الصناعى ، بل انه دين العلم ، ولكن يجب أن يتجه بالعلم الى مافيه سعادة البشرية وكرامتها وعمارتها ، لا الى ما فيه الهدم والدمار ، أو ضياع الكرامة الانسانية .

ويقول الاستاذ أبو الأعلى المودودى فى رسالته : « تحديات العصر الجديد والشباب » :

---

(١) رواهد البخارى .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) خمس رسائل الى الشباب المسلم المعاصر للدكتور محمد البهى ط دار الفكر ببيروت ص ٤٢ وما بعدها .

« ولتلقوا نظرة عابرة الى هذا العصر الجديد الذى يقال عنه بمنتهى الاعتزاز والمباهاة ، انه عصر التقدم والرقى ، انه عصر الفكر المتنور ، ومما يمتاز به هذا العصر هو تقدمه العلمي وهو على كونه أمرا جديرا بالتقدير والإجلال ، يستغل استغلالا فاحشا فى دمار البشرية ، وهلاكها وبوارها وشقائها أكثر من أن يستغل فى سعادتها وصلاحها .

وبواسطة هذا التقدم العلمى ، يبتكر اليوم لإبادة الشعوب بأسرها ، أخطر ما يمكن من الأسلحة والأدوات ، ويعد لتنكيل الإنسان وتشويه شخصيته من المعدات ما لا مثيل له فى تاريخ الشيطانية ، وتكتشف الجاسوسية أساليب لم يبق أمامها أى معنى لحياة الإنسان الخاصة ، وتكرس الدراسات لتوليد الإنسان بطريقة يتولد الإنسان بعدها فى معامل العلم بدون اتصال الأب والأم بطريقة فطرية .

وطبعا المتولدون بتلك الطريقة العلمية سوف لا ينتمون الى أسرة من الأسر ، ولا يميل بعضهم الى بعض ، أو الى غيرهم من الانسان ميلا فطريا ، ولا يرتبطون بماض له التقاليد المتوارثة ، أو البذور الممتدة وسوف تجهز المصانع الأوادم من كل لون من الألوان ، وكل صورة من الصور ، وكل شيمة من الشيم،وكل قابلية من القابليات،حسب مبدأ الطلب والعرض فى الأسواق ، وتبيعهم للأشخاص أو الشركات والحكومات بالمفرد أو بالجملة .

وهكذا يريد تمرد العلماء الملحدين أن يبلغ من التدهور نهايته ، ليفتح على البشرية أحدث عصور الاستعباد وأسوأها ، ينحط فيه الانسان

الى درجة الأغنام والأبقار ، بل لعل المصانع سوف تعد للأنظمة المناوئة لكرامة الانسانية فى العالم أوادم عند الطلب ، يكونون أشد افتراسا من الوحوش الضارية ، هذا هو التقدم العلمى الذى يفتخر به غاية الافتخار ، ويدعى أنه قد سما بالانسانية الى آفاق السماء ، مع أنه من الحقيقة انه قدر ما رفع الانسان قدر ما هبط به ، وأنه جلب على الانسان الويل والثبور ، أكثر مما وفر له الخير والحبور » (١) أ . هـ .

---

(١) تحديات العصر الجديد والشباب للأستاذ أبو الأعلى المودودى ص١٣ط المكتبة العلمية لاهور - باكستان .

خطوات لعلاج الشباب وحمايتهم من الانحراف

ان أولى خطوات حماية الشباب من الانحراف ، وعلاج ما قد يعتريه من ميل أو خطأ ، تتمثل الخطوات الأولى فى الأسرة وبين الأبوين ، حتى يتشرب منذ الصغر روح التدين ، وآثار العقيدة الصحيحة والسلوك النقى ، بالقدوة من ناحية ، وبالتوجيه من الأبوين من ناحية أخرى ، ومن المعلوم أن لنصائح الوالدين أثرا كبيرا فهى خلاصة عمر ، ووليدة تجارب ، يقول موسى بن سعيد العنسى لولده :

واجعل وصاتى نصب عين ولا
تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنكت
فى ساعة زفت الى فطنتك
فللتجاريب أمور اذا
طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة
فانها عون الى يقظتك

ثم بعد ذلك ما ينبغى أن تتضمنه خطبة الجمعة من توجيه أسبوعى رشيد يتم فيها حصر الشكوك والأوهام التى تساور الشباب وعلاجها ، ومحاولة محو الأثرة والأنانية ، وسائر الرذائل الأخرى ، والعناية بغرس الفضائل الاسلامية ، من التعاون على البر والتقوى ، وحب الخير والبذل حتى يشبوا على روح التعاون والتعاطف والبذل .

ومن أهم ما ينبغى التركيز عليه فى تلك المرحلة : تربية الضمير

الديني ، والعناية باتباع التعاليم الدينية الصحيحة ، النابعة من العقيدة الصحيحة ، وأداء العبادات وابراز ما تتضمنه من النتائج والآداب وسائر الآثار الحميدة ، فان المرجع فى عظمة شباب السلف ، انما كان يتمثل فى سلامة العقيدة والنشأة الصالحة ،فى البيئة الصالحة،فى الأسرة وفى المجتمع

كما ينبغى أن يعنى المربون والمصلحون بتنمية الجوانب المتعددة فى الشباب، وتقوية الاستعدادات .

وأهم ما يجب أن يتسلح به الشباب فى معركة الحياة « الصبر » ، ذلك لأنه سيواجه فى الحياة صعابا وعقبات ، ولا يكفى فى حلها ما مارسه الشباب فى مدارسهم ، ولا فى تجارب الطفولة ، فهم إذاً فى حاجة الى صبر وتحمل ، وأشد تلك العقبات : « هوى النفس » [١] .

وبالجملة : فان حماية الشباب من الانحراف تتمثل فى ازالة تلك الأسباب الماضية للانحراف التى سبق الحديث عنها ، وسد المنافذ أمام التيارات المادية الوافدة ، التى تحاول أن تستولى على عقول الشباب ، والتى هى نتيجة جهود المبشرين والاستعمار ، وانها لمحاولة ظالمة تتجنى على الاسلام وأبناء المسلمين ، وتعمل على رسم صورة مشوهة للاسلام فى عقول الشباب،فان الاستعمار يعلم تمام العلم أن عدوه الأول هو الاسلام، يقول أحد المستعمرين فى احدى خطبه وهويحمل المصحف بيده : لن يقر للاستعمار قرارما دام هذا المصحف بين أيدى المسلمين » .

---

(١) الاسلام فى حياة المسلم للدكتور محمد البهى .

نماذج من شباب الاسلام

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القدوة الحسنة فى قوله وفعله وسلوكه ، وفى سائر مراحل حياته ، فى طفولته ، وفى الشباب ، وفيما بعد المبعث ، كلها حياة نقية خالصة ، لم تشبها شائبة ، وما عرف بين القوم الا بالأمين .

لقد تخرج من الرعيل الأول نماذج كريمة ، أخذت عنه واقتدت به ، واهتدت بهدى الله سبحانه وتعالى . ومن هؤلاء :

* على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، لقد قام - وهو شاب - بدور فدائى عظيم ، حين قدم نفسه قربانا فى سبيل عقيدته ، وفى سبيل الله ورسوله ، لقد بات - ليلة الهجرة - على فراش رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان على علم بمدى الخطر الذى كان يحدق به من كل جانب،قائلا:«والله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت على »

* وهذا هو سعد بن أبى وقاص نموذج فذ فى التضحية من أجل العقيدة ، حتى وإن تعارضت مع أعز الناس عليه ، ها هو ذا لم يبلغ من العمر عشرين سنة، يقول : « لما أسلمت وكنت رجلا بارا بأمى قالت : ياسعد ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ! فقلت : لا تفعلى ياأمى ، فانى لا أدع دينى ، ومكثت يوما وليلة لا تأكل ولا تشرب ، فأصبحت وقد جهدت ، فقلت : والله لو كان لك ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت هذا الدين بشئ .

فلما رأت ذلك أكلت وشربت،فأنزل الله سبحانه وتعالى:«وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا »

* وهذا عبد الله بن عباس كان فى شبابه يمثل الذكاء الحاد ، والعلم الجم، يقول ابن عباس : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم ، فوجد بعضهم من ذلك ، فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ، ومن أبنائنا من هو مثله ، فقال لهم عمر : انه من قد علمتم - أى من جهة ذكائه ومعرفته - قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم ، فسألهم عن هذه السورة : « اذا جاء نصر الله والفتح » فقالوا : أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم اذا فتح عليه أن يستغفره وأن يتوب اليه ، فقال : ما تقول ياابن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، لكن أخبر الله نبيه حضور أجله فقال : « اذا جاء نصر الله والفتح »فذلك علامة موتك «فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » فقال عمر : : تلوموننى عليه؟ ثم قال : « ما أعلم منها الا ما تقول » (١).

* * *

* وهؤلاء صفوة مختارة من شباب الإسلام أدوا مهاما فى غاية التضحية، وضربوا بها أروع الأمثلة ، انهم : عبد الله بن أبى بكر ، وعامر بن فهيرة ، وأسماء بنت أبى بكر .

* فأما عبد الله بن أبى بكر : فقد قام - فى ليلة الهجرة - بدور

---

(١) رواه البخارى ، القرطبى . ٢ / ٢٣٢.

الاستطلاع ، فجمع أخبار الأعداء ،وهى مهمة من أخطر مايكون[١]

* وأما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر : فقد مثل الجندية الاسلامية فى أسمى معانيها وأدق صورها ، حيث قام بتوفير الأمان ، فرعى غنم الصديق ، ليروح الى الغار فى الليل ، ليأخذوا حاجتهم منها ، ويعفى بالغنم آثار المشى الى الغار ، فيضل عنهم الأعداء .

* وأما أسماء بنت أبى بكر : فقامت بدور الفتاة المسلمة وأدت واجب التضحية على أعظم ما يكون ، فقد أتت بسفرتها - أى زادهما - ونسيت أن تجعل لها عصاما ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فاذاليس لها عصام ، فتحل نطاقها ثم تعلقها لذلك سميت ذات النطاقين [٢] .

* وهذا معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن عفرا وموقفهما المشرف يوم بدر ، قال عبد الرحمن بن عوف :

« انى لفى الصف يوم بدر ، اذ التفت فاذا عن يمينى و يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما اذ قال أحدهما سرا عن الآخر : ياعم أرنى أبا جهل ، فقلت : ياابن أخى ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله أن رأيته أن أقتله أو أموت دونه وقال الآخر سرا من صاحبه مثله ، قال : فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما اليه ، فشدا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه »[٣] .

---

(١) انظر كتابنا الهجرة النبوية .

(٢) ابن هشام ١٣٠/٢ .

(٣) رواه البخارى .

* ومن شباب الاسلام ، الذين كان لهم دور هام فى الدعوة الى الله ونشر تعاليم الاسلام : مصعب بن عمير ، أول داعية الى الاسلام فى خارج مكة ، عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا أثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذاك شيئا فأمركم الى الله عز وجل ، ان شاء عذب وان شاء غفر ، قال ابن اسحاق : فلما انصرف القوم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير معهم ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين ، كان يسمى المقرئ فى المدينة مصعب ، وكان أن فتح الله للاسلام بالمدينة بجهود مصعب وجهاده(١).

* ومن شباب الاسلام ، من قدم جهودا ضخمة ، فى ميدان القتال ، وفى ساحة الجهاد فى سبيل الله ، فأبلى بلاء حسنا ، ذلكم هو : أبو دجانة ، ففى يوم أحد أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم سيفا ، فقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام اليه رجل فأمسكه عنه ، حتى قام اليه أبو دجانة ، فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحنى ، قال : أنا آخذه يارسول الله بحقه فأعطاه إياه وكان ابو دجانه رجلا شجاعا يختال عند الحرب اذا كانت ، وحين رآه الرسول صلى الله

---

(١) ابن هشام ٢ / ٧٥ .

عليه وسلم يتبختر بين الصفين قال : « انها لمشية يبغضها الله الا فى مثل هذا الموطن » .

وروى عن الزبير بن العوام وكانت سنه اذ ذاك أربعا وثلاثين سنة يقول: غضبت فى نفسى حين سألت رسول الله السيف وأنا ابن عمته ، فمنعنيه ، وأعطاه أبا دجانة ، فقلت : والله لأنظرن ما يصنع ، فاتبعته فأخرج عصابة الموت، فجعل لا يلقى أحدا الا قتله ، قال الزبير : فقلت : الله ورسوله أعلم [١] .

* ومن النماذج المشرفة فى هذا المجال أيضا : الخنساء وأبناؤها وذلك في وقعة القادسية ، عندما هم المسلمون بفتح فارس ، وقد حضرت الخنساء ، وأوصت بنيها الأربعة ليلا بقولها يابنى انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين والله الذى لا اله الا هو انكم بنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية اصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وجللت نارا على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها تتقربوا الى الله ، وتظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة . فلما أضاء لهم الصبح ، باكروا الى مراكزهم ، فتقدموا واحد بعد واحد ، ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية أمهم لهم حتى قتلوا عن آخرهم ، فلما علمت بمصرعهم جميعا قالت:

---

(١) من أخلاق الرسول صلى الله عليه السلام: محمد محمد يوسف .

الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

ومن خلال تلك النماذج السابقة نستطيع أن نتعرف على ما كان عليه شباب سلفنا من صبر ومصابرة نتيجة ايمان عميق ، وعقيدة صحيحة ، وسلوك مستقيم ، وما اضطلعوا به من جهاد مبرور فى سبيل الحق ، ومن أجل رفع راية التوحيد مرفوعة فوق ربوع الأرض .

لقد مثلوا نماذج متنوعة ، فى جوانب متنوعة ، فمنها نماذج فى الجهاد ، وأخرى فى العلم والتعليم والدعوة الى الله سبحانه وتعالى ، الى غير ذلك من المثل والمبادئ والقيم والأهداف التى ترسموا فى سبيلها معالم الدين القيم الذى رباهم على الرشد والهدى ، وأنشأهم على العزة والكرامة، ووجههم الى سعادة الدنيا والآخرة .

الفصل الخامس

الاسلام والأسرة

ان اقامة المجتمع الفاضل القوى . لا تكون من السطح الخارجى دون ارساء دعائم البناء واقامة الاساس الذى يبنى عليه المجتمع .

فلو تصورنا - مثلا - مكانا ما أو أى جماعة من الجماعات البشرية ارادوا ان يقيموا مجتمعا فاضلا قويا مجتمعا له مكانته ورسالته وله شرف القيمة ، وكرامة الحياة وسعادة الأبناء فنهض اهل هذا المجتمع بإقامة الصروح وتشييد المنشآت واقامة كل الوسائل الحضارية وكل ما تحتاجه الحياة من مزارع ومصانع ومدارس ومتاجر ومستشفيات وجامعات وغير ذلك من مظاهر الرقى واسباب النهوض الحضارى .

الا أن انسان هذا المجتمع لم يتمتع بالقسط الكافى فى بناء كيانه الداخلى ولم ترعه اسرة نابهة قوية مترابطة سليمة . لم ترعه أسرة صافية المناخ . ولم تعده يد الأبوة الحانية ، فماذا يكون موقف هذا الانسان ؟ بل وماذا يكون مصير هذا المجتمع الذى كان ابناؤه صورة لهذا الانسان الضعيف المهزوز ، انه لاشك مجتمع يهدده الضياع لانه قام على غير اساس فالأسرة هى دعامة المجتمع وهى الخلية الأولى الحية التي يتكون منها افراده وتتلاقى فيها خلاياه والاسرة القائمة على اسس سليمة الصادرة من قيم فاضلة القائمة برسالتها خير قيام .. هى تلك الأسرة التى يرى الأب فيها انه راعى البيت والقائم على امره فيه وترى الأم انهامسئولة عن

ادارة شئون البيت والأبناء ، ومن غرس الفضائل الحميدة فى نفوس ابنائها وتربيتهم التربية السليمة وتنشئتهم النشأة المستقيمة ، ويرى الابناء فيها ما ينبغى عليهم من القيام بواجباتهم والنهوض بالحياة سيرا على الجادة وطموحا للمستقبل الزاهر والحياة السعيدة المقبلة عليهم وهم فى أمن نفسى واستقرار أسرى وظل من الاسلام يؤمنون به ويسعدون بتعاليمه وليست الاسرة القوية الفاضلة توزن بقوة عضلاتها ولابفضل أموالها وانما ميزان القوة والفضل محصور فى قوة عقيدتها التى تؤمن فيها بالله ربا وبمحمد نبيا ورسولا والرضى بالاسلام دينا ، هنا تكون القوة الحقيقية ، كما يكون الفضل الحقيقى فى مدى مشاركتها فى رسالتها لبناء الحياة ، وفى مدى عطائها وبذلها وعملها ونهوضها وتحليها بالفضائل والمحامد ،ومكارم الشيم من المرؤة والنجدة والبذل والتضحية ومكارم الاخلاق ، اننا حين نرى خلايا المجتمع مكونة بهذه المثابة وان وحداته هى تلك الاسرة ومثيلاتها من الاسر وهكذا ، فهو بلا شك مجتمع فاضل قوى له كرامته ومهابته . ولما كان للاسرة – فى الاسلام هذه الاهمية ، وكانت النظرة الحقيقية اليها على انها اساس المجتمع فقد عنى الاسلام عناية خاصة بشئون الاسرة وبكل ما يتعلق بها من مبادئ تنهض على هداها كما عنى بما يتصل بها من حقوق وواجبات ، وبما لها وما عليها ، ومن المعلوم ان السنة النبوية الشريفة على صاحبها افضل الصلاة والسلام مبينة للقرآن الكريم ومفصلة لمجمله وموضحة لمبهمه وان ماأجمله القرآن فصلته السنة من احكام العبادات وغيرها فقد ذكرت فى القرآن الكريم على طريق الاجمال ، فوضحها وفصلها رسول

الله صلوات الله وسلامه عليه بقوله وفعله ، أما فيما يتصل بشأن الاسرة وما ينطق بها من حقوق وواجبات وما يتصل بها من أحكام . فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى مفصلة فى القرآن الكريم ، من اللحظة الأولى التى يبدأ فيها التفكير فى الزواج قال الله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء او اكننتم فى انفسكم علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا .. الا ان تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا إن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا انّ الله غفور رحيم » [1] .

فعنى الاسلام بتوضيح كل ذلك فى القرآن من أول لحظة تكوين الزواج وانشائه الى ان يتفرق كل منها بالموت أو بالطلاق وما يتصل بكل الأحوال من أحكام ، وليس كثير ما وضحته السنة وبينته بالنسبة لما ورد فى القرآن الكريم من تفصيل احكام الأسرة وكان هذا من حكمة الله سبحانه وتعالى عناية بشأن الأسرة لاهميتها فى الحياة ولانها الاساس الذى يقوم عليه بناء المجتمع وحتى لا تكون احكامها بعد ذلك عرضة للأهواء والانحراف بها يمنه أو يسره ومحاولة التقصير فى حق من الحقوق أو الاهمال فى واجب من الواجبات يقول الاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة رحمه الله : « وان كانت عناية الاسلام بالعبادات جعلت احكامها عملية يتولى النبى صلى الله عليه وسلم تفصيلها لتربى النفوس عليها بالدربة و التهذيب لا بمجرد التلقين ، فعناية الاسلام بالاسرة كانت بالنص

(١) سورة البقرة : (٢٣٥)

الكامل على نظامها ، لكيلا ينصرف الناس بأهوائهم عنها ولكيلا ينكروا تطبيقها ويجعلوا لعقولهم سبب للتحكم فى احوالها ونظامها ولأنها متصلة بالرضا والغضب بين الزوجين والأقارب فكان لابد من ميزان مقرر ثابت يحكم الأهواء ويضع الامور فى مواضعها » أ.هـ .(١)

وهكذا تتضح لنا عناية الاسلام بحقوق الاسرة وواجباتها وبكل مالها وما عليها.. واذا كان الاسلام قد منح الأسرة كل هذه العناية فأولى بالأسرة فى جميع البلاد المسلمة أن تنهج نهج هذا الدين الذى يكفل لها حقوقها ، ويقيم لها سعادتها ويكون منها مجتمعا فاضلا قويا .. اولى ان تسير على هدى الاسلام مطبقة تعاليمه منفذة احكامه حتى تسعد بالأمن النفسى والأمن الخارجي والثراء الخلقى والثراء المادى كما هو شأن كل بلد أو جماعة تطبق شريعة الله وتنفذ أحكامه ، هدانا الله وجميع البلاد الاسلامية للنهوض بالأسرة على مبادئ الاسلام وفى نور الكتاب والسنة .

---

(١) من كتاب القرآن المعجزة الكبرى ص٦٨ ط دار الفكر العربى .

دعوة الاسلام الى الزواج

ولقد دعا الاسلام الى الزواج وحث عليه ورغب فيه لكل من كان مستطيعا قادرا عليه وعلى مؤنه واما من لم يستطع الزواج لعجزه فعليه بالصوم ، وفى الزواج عصمة للشباب من الزلل والخطيئة وحفاظ لحياته وخطاه من الانزلاق فى وحل المعصية والرذيلة ، وفيه حفظ للعين من النظر الى ما حرم الله فالنظرة سهم مسموم من سهام ابليس لعنه الله وفيه حصانة للشرف وحماية للاخلاق ثم هو الى جانب هذا فيه المودة والسكن والرحمة والسعادة والطمأنينة للاسرة والامان والاستقرار للبيت الزوجى . وانتشار واكثار للنوع الانسانى وبقائه وحفظه . وهو طريق العفاف ، ولقد ارشد الله تعالى العاجزين عن مؤن النكاح الى العفة ووعدهم بعد ذلك ان عفوا انفسهم ان يغنيهم من فضله ، لأن فضله اولى بأهل العفة الصالحين قال الله تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » واما اذا لم يستطع الشاب الزواج وعجز عن مؤن النكاح فعليه بالصوم فهو أهم وسائل الاستعفاف لانه يكسر الشهوة ويكف عن انتهاك الحرمات، وفيه مجاهدة للشهوات والأهواء ، وبالصيام يتعود الانسان على الفضائل والبعد عن الرذائل لأنه يهدف الى تقوى الله تعالى : كما قال سبحانه : « يأأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ولقد نادى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه شباب هذه الأمة الى الزواج وأرشده اذا عجز عنه ان يصوم وذلك فى قوله

صلوات الله وسلامه عليه :

« يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر واحصن للفرج . ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فانه له وجاء » (١).

والبعد عن الزواج غير مشروع لأن الزواج سنة الله سبحانه وتعالى جاء بها جميع الرسل ، وما من رسول من الرسل ، عليهم الصلاة والسلام من أولهم الى خاتمهم إلا وله زوج وذرية ، وعن قتادة عن الحسن عن سمرة ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن التبتل وقرأ قتادة ، « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » .

ومما تجدر الاشارة اليه أن القدرة على الزواج ومؤنته أمر نسبى . وهذه فى الغالب الأعم ميسور ، وليس المراد به كثرة العرض والمال والعقار حتى لا يتذرع كثير من الشباب أو الأكثر من أهل الفتاه بالرغبة فى كثرة المال والثراء .

بل أن الله سبحانه وتعالى قد وعد راغبى الزواج الذين يحققون شرع الله وسنته ودعوة دينهم وعدهم ان يغنيهم من فضله وامر الله تعالى الذين لا يجدون مؤن النكاح ان يعفوا انفسهم حتى يغنيهم الله من فضله قال الله تعالى : وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنيكم الله من فضله والله واسع عليم ، وليستعفف الذين لا يجدون

---

(١) رواه الأئمة : احمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابو داود وابن ماجه .

نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ... » (١).

وكما وعد الله تعالى الذين يستعفون بأن يغنيهم من فضله رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اكد هذا الوعد ووضح فأن المقصود بالذى يستحق ما وعد الله به وهو الذى يقدم على الزواج مبتغيا به العفة لان دافعه الى الزواج هو الدين وتحقيق سنة الله تعالى اما وعده بإعانة من يجاهد فى سبيل الله وهو الذى لا يقصد من جهاده الشهرة والسمعة وأن يقال انه شجاع .. ووعد ايضا باعانةالمكاتب الذى يريد الأداء .عن ابى هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه و سلم : ثلاثة حق على الله اعانتهم المجاهد فى سبيل الله والناكح يريد أن يستعفف والمكاتب يريد الأداء » (٢).

ويبرأ الرسول صلى الله عليه وسلم ممن كان مستطيعا قادرا على مؤنة ثم يعزف عنه ويتخلى عن سنة ربه وشرعه فى الحديث « فمن رغب عن سنتى فليس منى » ويقول صلوات الله وسلامه عليه فى شأن من كان موسرا مستطيعا للزواج ولم يتزوج:«من كان موسرا فلم ينكح فليس منا» وما ذلك الا لأن التارك للزواج تارك للعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

اذ ليس فى الاسلام - ابدا - ترك الزواج ، وفى الحديث لا ضرورة فى الاسلام رواه احمد وابو داود والطبرانى والحاكم وصححه . والضرورة

---

(١) سورة النور آية : ٣٢، ٣٣ .

(٢) رواه الترمزى والحاكم والدار قطنى وصححه بهذا اللفظ .

الذى لم يتزوج والذى لم يحج ويعنى الاسلام بتربية المرأة وتعليمهاوتهذيبها لتقوم برسالتها فى الحياة خير قيام ولتكون أمًا فاضلة تنشئ جيلا فاضلا .. ولا يترك الاسلام شأن المرأة دون ان يفصل ويوضح شأن بعض النساء من الجوارى وان لهن فى الاسلام تكريما وعناية فائقة وان الاسلام نظر الى شأن الجوارى نظرة انسانية حانية تتسم بالعطف والحنان والشفقة فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .« ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين عبد أدى حق الله وحق مواليه فذلك يؤتى أجره مرتين . ورجل كانت عنده جارية وضيئة فأدبها فأحسن أدبها ثم اعتقها . ثم تزوجها يبتغى بذلك وجه الله فذلك يؤتى أجره مرتين ورجل أمن بالكتاب الأول ثم جاءه الكتاب الآخر فآمن به فذلك يؤتى أجره مرتين » (١) .

---

(١) رواه الترمزى .

الزواج بين التحليل والتحريم

وقد وضح القرآن الكريم ، نظم العلاقات الزوجية ، وبين الحلال منها والحرام حتى يكون الرباط الاسرى موثقا واكيدا ومحترما ومصونا من كل دنس وهوى نقيا من أية شائبة من الشوائب وبين الله تعالى بعض ما كان معمولا به فى الجاهلية فجاء الاسلام فقضى عليه ونقى مناخ الأسرة من كل فساد وانحراف حتى تقوى اسس البيئة الاسرية من أول وهلة قال الله تعالى : « لا تنكحو ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا »[١] .

والمقت فى قوله : « أنه كان فاحشة ومقتا » والبغض فهو امر كبير فى نفسه ، ويؤدى الى مقت الابن أباه ، بعد ان يتزوج بامرأته فان الغالب ان من تزوج بالمرأة يبغض من كان زوجها قبله وكما قال الحافظ ابن كثير ولهذا حرمت امهات المؤمنين على الأمة لانهن أمهات لهم لكونهن زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وهو كالأب . بل حقه أعظم من حق الآباء بالاجماع بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ذكر القرآن الكريم بعد ذلك المحرمات من النسب . ومن الرضاع والمحرمات بالصهر وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم واخواتكم من الرضاعة .

---

(١) سورة النساء آية (٢٢)

وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم » (١) .

وفيما رواه ابن ابى حاتم - بسنده -عن ابن عباس قال:حرمت عليكم سبع نسباوسبع صهرا وقرأ:حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم .الآية

ومن انواع المحرمات : المشركات من عبدة الأوثان قال الله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم اولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » (٢) .

ومن أنواع المحرمات كذلك: البغايا : وهن اللاتى يجاهرون بالفاحشة ويتكسبن بها.قال الله تعالى:فى تحريم هذا النوع« الزانى لاينكح الا زانية أومشركة والزانية لا ينكحها الا زان أومشرك وحرم ذلك على المؤمنين»(٣)

واما بالنسبة لما احله الله تعالى من النساء . فقد ذكره سبحانه بعد بيان المحرمات فى قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غيرمسافحين فمااستمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعدالفريضة ان الله كان عليماحكيما ومن

---

(١) سورة النساء .
(٢) سورة البقرة اية (٢٢١) .
(٣) سورة النور اية : ٣ .

لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات والله اعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بأذن اهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غيرمسافحات ولامتخذات اخدان فاذا احصن فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وان تصبرواخير لكم والله غفور»[١] .

ومما اباحه الاسلام الزواج بالكتابيات وهذا من تسامح الاسلام الذى لا مثيل له ولكن المسلمة أفضل ، والمسلمة ذات الدين والخلق أفضل من أية مسلمة لا خلق لها ولا دين ، وفى الحديث .. « فاظفر بذات الدين تربت يداك » وفى شأن الكتابيات قال سبحانه : « اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » والاسلام دائما وابدا - يوجه المسلمين الى تخير الزوجة من اطيب العناصر ، من الحرائر المؤمنات - العفيفات - حفاظا على صلاح الاسرة .

فالزوجة هى اساس تكوين الاسرة ومنها سيولد النسل وفى احضانها سيعين الابناء فعلى الشباب ان يتخيروا الزوجة من بيئة عفيفة طاهرة وعلى النساء ان يتخلقن بأخلاق الدين والشرف والعفاف وعلى المجتمع المسلم - ذكورا واناثا التمسك بالدين والله الموفق والهادى الى سواء السبيل .

---

(١) سورة النساء اية : ٢٥.

فى الزواج يسار وسعادة

والزواج رابطة كريمة بها تتكون الاسرة وفيها تأنس النفس وبسببها يفئ الله تعالى على الاسرة خيرا وافرا ، ورزقا واسعا ، الاان بعض الناس قد يحجم عن الزواج متعللا بعلل واهية واسباب لا اساس لها من الصحة .

ومن اكثر الاسباب ذيوعا للاحجام عن الزواج الاعسار والفقر أو قلة ذات اليد أو كثرة الاعباء . لقد دعا الاسلام الى الزواج لمن كان قادرا ومستطيعا المؤنة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . « يامعشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لن يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » [1] .

فمن لم يكن مستطيعا فعليه بالصوم . فهو سبيل العفة التى امرالله تعالى بها . ، فى العفة هدى وخير كثير . وقد قال الله تعالى: « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » ولكن التعلل بالتبعات أو الزعم بأن الزواج سبب للعسر والمشقة لدرجة أن يعزف الكثير من الناس عنه ، أو يتأخرفيه تأخيرا طويلا كل هذا زعم باطل لا أساس له من الصحة بل أن الزواج سبب اليسار والسعادة ، وقد وعد الله تعالى من يريد الزواج الغنى واليسار قال الله تعالى : « وانكحوا الأيامى منكم والصلحين من عبادكم وأمائكم ان يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله . » وعن ابى بكر الصديق رضى الله عنه قال : اطيعوا الله فيما امركم به

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى : قال تعالى : « ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » [١] . وهكذا نرى وعد الله تعالى بالغنى واليسار والعون والمساعدة لأهل العفاف الذين يستهدفون بناء الاسرة وتكوين الحياة الزوجية الطيبة .

عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة حق على الله تعالى عونهم ، الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله رواه أحمد والترمذى فترك الزواج مخافة الفقر مذموم فى الاسلام . بل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا » رواه الدارمى وكان صلوات الله وسلامه عليه يحث المتزوج على الزواج ويشجعه ويعينه ويحث على مساعدته اذا كان محتاجا .

وكان بعض الصحابة قد أنقطع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا تتزوج فقال يارسول الله انى فقير لا شئ لى وأنقطع عن خدمتك فسكت ثم عاد ثانيا : فاعاد الجواب : ثم تفكر الصحابى وقال : والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يصلحنى فى دنياى واخراى وما يقربنى الى الله منى ، ولئن قال فى الثالثة لأفعلن فقال له الثالثة : ألا تتزوج قال : فقلت : يارسول الله زوجنى قال : اذهب الى بنى فلان فقل : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تزوجونى فتاتكم . قال : فقلت يارسول الله لا شئ لى

(١) رواه ابن ابى حاتم

فقال لأصحابه اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب فجمعوا له ، فذهبوا به الى القوم فأنكحوه . فقال له : أولم وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة (١) .

ومن النصوص السابقة يتضح لنا أن الاسلام يحرص كل الحرص على الزواج ، وعلى حياة السكن والمودة والألفة لتتكون الاسرة المسلمة وتتكاثر الاسر التى هى دعائم المجتمع الاسلامى الكبير . بيد أن الكثيرين من الناس ، راحوا يستبقون الخطى وراء ظواهر براقة فتكلفوا شططا وتعبوا وأتعبوا أنفسهم وأرهقوا الأسرة الناشئة بالعديد من التكاليف من أول الطريق فكان السباق على الأثاث الفاخر ، والمغالاة فى المهور الخيالية التى تثقل كاهل الشاب وغير ذلك من التكاليف .

فكانت النتيجة عزوف البعض وتأجيل الآخرين واجهاد غيرهم مما تسبب عنه الكثير من المتاعب المادية والمعنوية .

والمجتمع الاسلامى لابد وان تكون نظرته للأسرة الناشئة نظرة حانية تتسم بالعفاف والمساعدة والعون والتشجيع وأن الايمان والخلق الفاضل هما الثورة التى يتسابق عليها الجميع فى بناء الاسرة المسلمة الفاضلة والله تعالى ولى التوفيق .

---

(١) رواه أحمد باسناد حسن .

حول تخير الزوجة

قال الله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بأذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فاذا أحصن فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » [١] .

* اكتنفت هاتين الآيتين آيات سابقة لها ، وأخرى لاصقة بها ، فأما الآيات السابقة لها فقد تحدثت عن المحرمات من النساء فى قول الله تعالى: « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم » .. الى قوله تعالى : «والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم كتاب الله عليكم » ثم انتقلت الآيات الى بيان ما يحل من النساء فى قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضه ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما » ثم جاءت الآيات التى معنا لبيان نوع آخر مما يحل الزواج به وهو ملك اليمين وذلك فى قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمما

---

(١) سورة النساء آية : ٢٥ ، ٢٦

ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » فوضحت شروط هذا الزواج وحكمة تحليله والفرق بين عقوبة الفاحشة بالنسبة للحرائر والإماء فأبرزت الآيات فى مجموعها حرمه الأعراض، وأما الآيات اللاحقة بها فقد تحدثت عن بقية المحرمات ، عن حرمة المال ، وحرمة النفس، انها ثلاث حرمات هى أعز وأغلى ما يحرص الناس عليه فى حياتهم ، ولطالما حفلت آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه بها، ليأمن الناس فى مجتمعاتهم وتسكن حياتهم فلا تدنسهم فاحشة ، ويلاحقهم خوف ، ولا يفزعهم عدوان .

وفيما رواه الشيخان من خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم - يوم النحر : « ... فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم الا ليبلغ الشاهد الغائب ، فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه » .

والآيات اللاحقة هى قوله تعالى : « يأأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراضى منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » وفى هذا التذكير لهم برحمة الله بهم واذا لم يجد التذكير فهناك التحذير : « ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسرا » وتختم الآيات مطالها بحقيقة قرآنية رائعة تكشف للمسلم عن مدى رحمة الله الواسعة اذا اجتنب الوقوع فى تلك الكبائر ولم يعتد على حرمات العرض والمال والنفس « ان

تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » .

* وفى الآيات الكريمة توجيه من الله تعالى الى تخير الزوجة من أطيب العناصر من الحرائر المؤمنات أما اذا لم يستطع المسلم طولا أى غنى وسعة فله أن يقصد زواج غير الحرائر من المؤمنات حيث عجز عن الزواج من الحرائر وخاف المشقة والوقوع فى الزنا ومع هذا فقد أكد القرآن أهمية الحرص على الزواج من الحرائر المؤمنات حفاظا على صلاح الأسرة والبيئة التى سيكون منها النسل ويعيش فى أحضانها الاولاد . فمع اباحة الزواج من غير الحرائر عند الضرورة ، بين الله تعالى أنه مع ذلك فان الصبر ومقاومة الرغبة فى الزواج خير من التسرع والتعرض لمثل هذا قال تعالى:« وان تصبروا خير لكم »والمراد بالمحصنات هنا الحرائر،وأطلق لفظ المحصنات فيما سبق قبل هذه الآية وأريد به النساء اللواتى فى عصمة أزواجهن ، فالزواج حماية من المعاصى والنزوات ، ووقاية من نوازل الحياة والضرر .

* أما المحصنات فى هذه الآية فهن الحرائر اللواتى صانتهن الحرية من الابتذال والسقوط فكأن الأسلوب القرآنى الحكيم حين يطلق على النوعين كلمة المحصنات انما يريد أن ينبه على أن الزواج عصمة من الزلل ، وحفاظ من التردى فى وحل المعصية فالمتزوجات محصنات وايضا فالحرائر محصنات أما الاماء فأقل حصانة فالرق يغض من الاحساس بالعزة والكرامة ، ولا شك ان الشعور بالكرامة يحرك فى نفس الانسانة الحرة العزة والاباء كما هو الحال ايضا بالنسبة للحالة الاجتماعية والاقتصادية فهبوط المستوى فى هذه الناحية قد يقلل من الشعور بالمعنويات ، وقد

سمى القرآن الإماء (فتياتكم) واستبعد أى احساس بالاستعلاء ، وأبان ان الايمان من شأنه أن يرفع مستوى الغنيات المؤمنات ويجعلهن مع الحرائر فى مستوى واحد والله أعلم بحقيقة هذا الإيمان ودرجته فرب أمة تكون أكمل ايمانا من حرة فتصبح عند الله تعالى اكرم وأفضل فالمؤمنون أخوة وبعضهم من بعض فلا يليق ان يعدوا نكاح الأمة عند الحاجة اليه عارا «والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض » .

* وقد بينت الآيات ان الأمة كالحرة فى تولى أوليائها لتزويجها فلا يصح ان تزوج نفسها بل لابد من أذن وليها ، فبعد رضا الولى يقوم وليها فى النسب يتولى العقد ، وهى كالحرة ايضا فى وجوب إداء المهر اليها فريضة بالمعروف بغير مطل أو اضرار أو نقصان « فانكحوهن . بأذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف .. » وأما طريق المتاع فلا يختلف عن طريق المتاع بالحرة لقد نص القرآن على ضرورة كونهن محصنات غير مسافحات أى عفيفات غير مجاهرات بالسفاح ولا متخذات أخدان بمعنى أخلاء فى السر .

* وأما عن الفرق فى عقوبة الفاحشة بين الحرائر والأماء فقد راعى الإسلام أن الامة أقل استطاعة على صيانة نفسها من الحرة فهبوط المستوى يضعف الشعور بالمعنويات لهذا جعل حد الرقيقة – بعد الاحصان – فى الفاحشة نصف حد الحرة التى لم تتزوج وهو خمسون جلدة فأما قبل الاحصان فعليهن التأديب « فاذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .

أما حكمة تشريع هذا الزواج من الفتيات المؤمنات فترجع الى أمرين: الأمر الأول :

الحفاظ على كرامتهن وآدميتهن وانهن لسن هابطات أو من مستوى آخر غير مستوى الحرائر فان الرق أمر عارض لأسباب حربية ونظامية ولذا سماهن القرآن « فتياتكم » وقال « بعضكم من بعض » وشرع لهن من الحقوق والشروط ما يحفظ كرامتهن .

الأمر الثانى :

شرع الزواج من الفتيات المؤمنات تخفيفا وتيسيرا على من يخاف على نفسه مشقة مغالبة الشهوة لمن لا يستطيع الزواج من الحرائر ، أما من استطاع أن يصبر فذلك خير له حتى لا ينظر الناس الى أبناء الأمة نظرة أقل من نظرتهم الى أبناء الحرة ولأن الاماء أقل تحفظا وصيانة من الحرائر « ذلك لمن خشى العنت منكم وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم » .

* واذا كان القرآن قد قرر حكم الزواج من الفتيات المملوكات ، وليس بيننا الآن مملوكات ، الا أن فى هذا التوجيه الحكيم إرشادا لتخير الزوجة من بيئة عفيفة طاهرة ولهذا التوجيه ايحاؤه لإرشاد شباب الأمة الاسلامية الى حسن الاختيار فى احتياط وحذر ، وتوجيه للنساء ايضا ان يتخلقن باخلاق الشرف الانسان حيالها فى مهب الفتن ، وعرضة للزلات واللمم كعدم الطول أو احتقار الاماء والطعن فيهن أو عدم معاشرتهن بالمعروف أو سوء الظن بهن ، ولهذا كله وغيره مما يشق التحرز منه ختم

الله تعالى الآية ببيان مغفرته ورحمته بعد توضيح أحكام شريعته فقال « والله غفور رحيم » .

* وبعد أن ذكر الله تعالى أحكام النكاح ابان بعد ذلك الحكمة من ذكرها وهي توضيح ما فيه صلاحهم وسلامة فطرتهم ، ومناهج من سلف ، ليكونوا بهذا تائبين مما سلف في الجاهلية وأول الاسلام حيث انحرفوا عن سنن الفطرة السليمة فكانوا ينكحون ما نكح آباؤهم ، ويقطعون أرحامهم ، وهم بهذا البيان والهداية تطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ».

وفي هذا توضيح لرحمة الله ورضوانه ، فهو الذى يبين السبل ، ويوضح الطريق وينيره لعباده ليسلكوه على هدى حتى يتوب عليهم فهو اشد ما يكون فرحا بتوبة عبده ، وفيما رواه البخارى ومسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لله افرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية – أى فلاة – مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة واستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع الى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع يده على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته .

توسعة الأسرة فى الإسلام

استهدف الاسلام لبناء الاسرة قوة واتساعا لانها المجتمع الصغير بل الأمة الصغيرة فما كان المجتمع الا مجموعة من الاسر ، وما كانت الأمة الا مجموعة من المجتمعات . فالعناية بالأسرة عناية بالمجتمع وعناية بالأمة بأسرها اذ أن الاسرة هى اللبنة الأولى والاساس الاصيل فى بناء الافراد والجماعات والأمم والشعوب وفى اتساع الاسرة تقوية لها ، ودعم للمجتمع والامة فهى بمثابة الرافد القوى للحياة الانسانية . وتقوى الاسرة ويشتد ازرها بتقوية روابطها وثبات اصولها واشاعة الامن والاستقرار فى جوانب حياتها - وكلما اتسعت الاسرة وكثر اعضاؤها كانت اكثر قوة وأعظم نفعا وزيادة فى عدد افراد المجتمع والأمة ونهوضا بالحياة وسعادتها واذا ألقينا نظرة الى ما شرعه الاسلام من وسائل تكوين الاسرة لرأينا أنه يدعو الى اتساعها وانتشارها وزيادة اعدادها عن طريق النسب والمصاهرة .

قال الله تعالى : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » ومن المحرمات التى ذكرها الله تعالى : يتضح سبب قوى من اسباب اتساع الاسرة ، هذا بالإضافة الى ما تشتمل عليه مقاصد التحريم من حكم اخرى كالوقاية من الشحناء والخصومات لأصحاب القرابة القريبة جدا صلتهم بالأسرة موجودة فهم ليسوا فى حاجة الى ربط بينهما .

نعم قد لاتكون القرابة قريبة جدا أو قد توشك على الأفتراق فيتحقق بالزواج نسب قرب ومودة كأبناء العم وابناء الخال .

أما من كانوا أقرب منهم فعلتهم قوية ولهذا ولغيره من الاسباب الاخرى كانت المحرمات المذكورة فى قول الله تعالى : « حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخوانكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخت وامهاتكم اللاتى أرضعتكم واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين إلاما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما » (١) .

ويقول الاستاذ محمود العقاد رحمه الله وتتحقق سعة الاسرة وامتدادها ووثامها بنظامين من النظم التى شرعها لها الاسلام وهما نظام المحارم فى الزواج ونظام الميراث .

فالاسلام يحرم الزواج بالأقربين ، ولا يبيح من ذوى القرابة الامن اوشكوا ان يتفرقوا كأبناء العمومة والخؤولة . ثم يقول والمقاصد من هذا التحريم متنوعة لا نحصيها فى هذا المقام أجلها واجداها توسعة الاسرة ووقايتهامن شواجر الخصومة والبغضاء وان يتحق بالزواج عن اسباب المودة والنسب مالم يتحقق بالقرابة فيرجع الى الاسرة من أوشك ان ينفصل عنها ويحرم الزواج بذوى القرابة الحميدة التى لاحاجة بهاالى توثيق النسب والمصاهرة .

ولتأكيد الطلب فى اتساع الاسرة وكثرة أعدادها وزيادة قوتها رغب الاسلام فى اختيار الولود الودود لانها التى يمكن ان يحصل بها مقاصد الزواج

---

(١) سورة النساء آية ٢٣

ويمكن معرفة ذلك بالنسبة للبكر بمعرفة أقاربها ، وقد خطب رجل امرأة عقيما فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى خطبت امرأة ذات حسب وجمال وانها لا تلد فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوجوا الودود الولود فانى مكاثربكم الامم يوم القيامة » وقد انكر الاسلام أى تصرف . فيه تضييق لابعاد الاسرة كالعزوف عن الزواج مثلا حتى ولو كان انصرافا للعبادة لان مثل هذا التصرف يتنافى مع الحنيفية السمحة ، ولأن فى الزواج اعفافا للنفس وتكثيرا للنسل وتحقيقا لحكمة الله تعالى فيه وعن انس ان نفرا من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألو عن عمله فى السر : فقال بعضهم : لا اتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم ، وقال بعضهم لا أنام على فراش ، فحمد الله وأثنى عليه فقال: مابال اقوام يقولون كذا وكذا لكنى اصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »(١) .

وفى الزواج طلب للأولاد الصالحين الذين يكثر بهم سواد الامة الاسلامية فالزواج نعمة من الله والاولاد نعمة من الله والاحفاد نعمة من الله أمتن الله تعالى على عباده ، حيث جعل لهم ازواجا من جنسهم يتآلفون ويتوادون ويتراحمون وجعل لهم الابناء والاحفاد والله سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين ، فهو سبحانه يرزق الجميع من ا لطيبات وفى هذا كله ما ستوجب على الناس شكر ربهم وحده على نعمه التى لا تحصى .

قال الله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبا لباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » (٢) .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة النحل اية : ٧٢ .

من أهم الظواهر لتكوين الاسرة

لقد عالج الاسلام كل ما يتصل بتكوين الاسرة من ظواهر على ضوئها يهتدى الرجل الى اختيار شريكة حياته وربة بيته ، وبين الاسلام ان للخاطب ان ينظر الى من يريد خطبتها ولم يبح له أكثر من هذا وأما ما يحدث الآن فى بعض المجتمعات من تهاون بعض الأسر فى اباحة اختلاط الخطيب بخطيبته والخلوة بها فحرام لأن المرأة محرمة عليه ، قبل العقد ولا تسلم الحال ،ان يحدث بسبب ذلك بعض ما حرمه الله ، عن جابر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يخلون بأمرأة ليس معها ذو محرم منها فان ثالثهما الشيطان »[1] .

وفيما رواه الامام أحمد أيضا بسنده - عن ربيعة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بأمرأة لا تحل له فإن ثالثهما الشيطان الا محرم » . وكان هذا التوجيه النبوى اصلاحا لحياة الناس وصونا لكرامة المرأة وصونا لشرفها . ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسر الاسلام لراغبى الزواج وتسهيل الطرق أمامهم ، وبين كراهية اكثار المهر بالنسبة الى حال الزواج ، وذلك فى قوله فى الحديث : عن ابى هريرة قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال:انى تزوجت امرأة من الانصار فقال له النبى صلى الله عليه وسلم:هل نظرت اليها ، فان فى عيون الأنصار شيئا ؟ قال : قد نظرت اليها ،

---

(١) رواه الامام أحمد

قال : على كم تزوجتها ؟ قال على أربع أواق فقال له النبى صلى الله عليه وسلم قال : على أربع أوراق ؟؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ، ما عندنا ما نعطيك منه ولكن عسى ان نبعثك فى بعث تصيب منه قال : فبعث بعثا الى بنى عبس بعث ذلك الرجل منهم . (١) وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغالاة فى المهور قال صلى الله عليه وسلم :« خير النساء أحسنهن وجوها ،وأرخصهن مهورا »والمغالاة فى المهور معول هدام يقضى على رغبات الكثير من أهل العفة الراغبين فى الزواج وهو فى نفس الوقت دعوى باطلة تساعد على ضياع قسط كبير من أعمار الشباب دون تحقيق سنة الاسلام بالزواج ، بل قد تكون سببا من أسباب انتشار الرذيلة والفوضى الاخلاقية، التى تهدد المجتمع بالتصدع والانهيار ولامبرر لها ألا تفاخر بعض الأسر فى تكوين الأثاث وأغلى الرياش مباهاة وظهورا وقد يدعو الامر الى ان تستدين بعض الأسر الفقيرة .

وليس معنى هذا ان الاسلام يدعو الى نقص حق المرأة فى الصداق أو تحريم كثرة المهر ؟ لا ، فان الاسلام انما يكره تلك المغالاة التى حادت عن الجادة . أخرج عبد الرزاق من طريق عبد الرحمن السلمى قال عمر : لا تغالوا فى مهور النساء فقالت إمرأة : ليس ذلك لك ياعمر ، ان الله يقول: « وآتين احداهن قنطارا » من ذهب قال ، كذلك هى قراءة ابن مسعود فقال عمر امرأة خاصمت عمر فخصمته واخرجه الزبير بن بكار من وجه آخر فقال عمر امرأة اصابت ورجل أخطأ .

---

(١) رواه مسلم .

من حقوق الزوجة على زوجها

لكل فرد من أفراد الاسرة حقوق وعليه واجبات وقد نظم الاسلام العلاقات الاسرية تنظيما دقيقا محكما ، وجعل لها من الضوابط ما تستقيم به حياتها وتنتظم به فى حياتها الأجتماعية .

وأول أفراد الأسرة وأولاهم بذلك انما هما الزوجان اذ هما الأصل الذى تصدر عنه علاقات الابناء وتنطلق منه خطاهم فى المجتمع . ولذا عنى الاسلام بحقوق كل من الزوجين فجعل للرجل حقوقا وعليه واجبات وجعل للمرأة حقوقا وعليها واجبات ، فالغاية المنشودة فى الأسرة الإسلامية تتركز فى حياة المودة والسكينة والهدوء والطمأنينة ، فتسكن الزوجة الى زوجها ويسكن الزوج الى زوجته وتشرق بينهما حياة ظليلة تكتنفها المودة والرحمة كما قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » انها الحياة الآمنة التى لا تلاحقها المخاوف . الحياة المطمئنة التى لا تزعجها القلاقل . يعيش فيها الزوجان وكل منهما ستار للآخر يقى صاحبه الجنوح الى الخطأ أو الانحراف، ويقيه أن يزل ويطغى ان كلا منهما فى أشد الحاجة الى صاحبه. وهذا هو السر فى التعبير القرآنى والله أعلم - بقوله سبحانه وتعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وللزوجة حقوقها المشروعة التى صانها الاسلام وحافظ عليها ودافع عنها وتلاحقت وصاياه بها . لما لها من أهمية قصوى فى حياة الاسرة .

وفى إعداد لبنات المجتمع الصالحة واعضائه النافعين فشرع لها حقوقها ، من مهر ومأكل وملبس ومسكن ونفقة وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الفقه الاسلامى بتوسع، وحسبنا فى هذا المقام ان نشير الى بعض وصايا الاسلام بشأن المرأة التى كانت بحق أسسا قوية نهضت عليها دعائم الاسرة بعد ذلك فلم تتعرض للتصدع أو الى الانهيار ، لقد كانت نظرة الاسلام الى المرأة فاحصة ودقيقة ومحكمة وبعيدة المدى فأحاطها بسياج من الوصايا لتظل الحياة معها آمنة مستقرة لا تتعرض لعواصف الحياة ولاإلى تيارات الخلافات فنبه الاسلام الى ضعفها والى أنها خلقت من ضلع أعوج وليس فى وصف الاسلام لها بأنها خلقت من ضلع أعوج ما ينقص من قيمتها لقد كفل الاسلام حقوق المرأة فى جميع مراحل حياتها وفى كل ادوار تكوين الأسرة ولا يقلل الوصف من قيمتها ولا يحط من منزلتها . بل بالعكس لقد كان فى الاشارة الى ذلك تنبيه للرجال على أن يحتملوا الحياة معها مهما كانت شريطة أن تقيم شرع الله وتسير على آدابة .

ولذا نجد أن الحديث الشريف الذى ذكر وصف المرأة بالعوج . قدم هذا الوصف بتأكيد الوصية بالنساء وجعل وصفهن بالعوج كسبب للوصية ليكون الاحتمال الاسرى والتعاطف والمودة ثم أردف الوصف كذلك بالوصية بالنساء . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت واستوصوا بالنساء خيرا ، فان المرأة خلقت من ضلع أعوج وان أعوج شئ فى الضلع أعلاه إن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج

استوصوا بالنساء خيرا » (١) .

كما أمر الله تعالى بالمعاشرة بالمعروف فى قوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف » وأشار الى تعظيم حقوقهن فى قوله « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » كان أخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه جعل يقول « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن مالا يطيقون الله الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم - يعنى أسراء أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٢) .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والأطفال وفى الحديث يقول انس رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان .

وكان صلوات الله عليه يزيد على الاحتمال بالمداعبة والمزح والملاعبة تطييبا لقلوبهن حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة فى العدو فسبقته يوما وسبقها فى بعض الايام فقال عليه الصلاة والسلام « هذه بتلك »(٣) .

وقالت عائشة رضى الله عنها « سمعت أصوات الناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء فقال لى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .
(٢) رواه النسائى وابن ماجه .
(٣) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه فى حديث عائشة بسند صحيح .

وسلم أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قلت : نعم . فأرسل اليهم فجأوا وقام رسول الله بين البابين فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون . وأنظر وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حسبك وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ثم قال : ياعائشة حسبك فقلت نعم فأشار اليهم فانصرفوا » متفق عليه . ومما تجدر الاشارة اليه أن وصايا الاسلام فى هذا الجانب لم تكن مفتوحة الأبواب على مصاريعها بل كانت مقيدة بما هو غير محرم ومحددة بما هو مشروع للترويح عن النفس ، وتهلل الحياة وانشراحها كما سنوضح ذلك بمشيئة الله تعالى والله ولى التوفيق .

العدل بين النساء

اباح الاسلام التعدد : لحكم عالية ، كان التشريع الاسلامى أقوم وأحكم وأدق ما يكون فيها .

فعن الرجال من قد تكون أمرأته غير منجبة ، أو بها مرض ويكون هو شديد الرغبة لتلبية حاجته فى الحال ، وقد يكثر النساء حتى يصبح عددهن أكثر من عدد الرجال لا سيما فى أوقات الحروب

وعندئذ يكون التعدد حلا لمشاكل عديدة قد تطفو على سطح الحياة الزوجية والاخلاقية بعد ذلك . لكن الاسلام حين اباح التعدد اباحه فى حدود واشترط له ما تسكن به حياة الاسرة وتطمئن . فقد كان التعدد فى أمم أخرى غير مقيد ولا محدد قبل الاسلام قد يبلغ أكثر من أربع زوجات ولكن الاسلام حدده بحيث لا يزيد العدد عن أربع ومن دخل الاسلام ومعه أكثر من أربع أمر بفراق ما زاد عن العدد واختيار أربع فقط فعند ما أسلم غيلان الثقفى وتحته عشرة نسوة . قال له النبى صلى الله عليه وسلم «أختر منهن أربعا وفارق سائرهن » (١) .

ثم أن الاسلام أشترط لمن يريدأن يتزوج بأكثر من إمرأة أن يأنس فى نفسه القدرة على القيام بالعدل بين الزوجات العدل فى المسكن والمطعم والنفقة والمبيت ونحو ذلك . ومن لم يأنس فى نفسه القدرة على العدل بين زوجاته فليس له أن يعدد ،لأن الظلم حرام ، وتفريطه فى الحقوق حرام

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

لأن الله تعالى يقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وحذر الاسلام من التفريط فى حقوق الزوجات ، ومن الظلم وأن عاقبه الظلم وعدم العدل أليمة ونهايته سيئة فى الدنيا وفى الآخرة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى اله عليه وسلم:« من كانت له أمرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط ». وفى رواية أخرى وشقه مائل(١) وكل أمر يستطيع أن يعدل الزوج فيه بين نسائه فلا يعدل فيه يدخل فى نطاق هذا التحذير والتهديد الوارد فى الحديث .

وأما الأمر الذى لا يستطاع العدل فيه فإنه معفو عنه وذلك هوالميل القلبى يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز«ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل»ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه هوالقدوة كان يعدل بين نسائه غاية العدل وكان اذا أراد سفرا أقرع بينهن أى أجرى القرعة بين أمهات المؤمنين فأيتهن خرج سهمها سافر بها .

وما ذلك الا للحفاظ على المشاعر و الاحاسيس وصيانة للقلوب والنفوس .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك يعنى القلب (٢) .

---

(١) رواه أصحاب السنن .

(٢) أخرجه أصحاب السنن .

وحتى فى مرضه صلوات الله وسلامه عليه فإنه لم يشأ أن يكون فى بيت واحد أو عند واحدة من أمهات المؤمنين دون رضا الباقيات مع أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يستطيع أن يدور عليهن ، ولكنه صاحب الاخلاق العالية ، والاسوة الحسنة فلذا نراه قد أستأذنهن أن يكون عند عائشة رضى الله عنها . فأذن له صلى الله عليه وسلم ..

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : بعث رسول الله صلى الله عليه فى مرضه الى نسائه فاجتمعن فقال : أنى لا أستطيع أن أدور بينكن فان تأذن لى أن أكون عند عائشة فعلتن فاذن له [١] .

---

(١) أخرجه أبو داود .

حقوق الزوج على زوجته

فى ظلال الاسرة المسلمة ، تنمو اخلاق عالية رفيعة ويعيش كل من الزوجين مع الآخر يحبوه بالقيم النبيلة الفاضلة التى تصون دينه وشرفه وكرامته.. والى جانب ذلك تفتح تلك القيم الاسلامية الكريمة نوافذ السعادة والغبطة للأسرة حتى يصبح مناخهاأطيب مايكون وأصح مايكون .

ولقد سبق الحديث عن بعض تلك القيم والاداب وما يتصل منها بحقوق المرأة المسلمة مع زوجها وأما بالنسبة لحقوق الزوج فإن تأكيد الاسلام على حقوق الزوج جاء بصورة حاسمة واضحة غاية فى تلك التأكيد ووجوب طاعته ففى الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » (١) .

ومعلوم أن السجود لايكون الالله رب العالمين ورسول الله صلي الله عليه وسلم لا يأمر بالسجود الا لله وحده فهو المعبود والمقصود ولا شريك له وحقه مقدم على كل شئ وطاعته سبحانه وتعالى واجبة قبل كل شئ .
ولكن الحديث يؤكد الوصية بحقوق الزوج وطاعته وعدم اهمال حقه بأى حال من الأحوال من قبل المرأة فقد تعرض لها أسباب أو تخدعها مغريات فتهمل فى حقه أو تقصر فى طاعته وقد تتغير به الايام وقد يتغير اليسر الى عسر وقد تتغير الصحة الى مرض فأحداث الحيا ة كثيرة وتقلباتها

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود وابن ماجه وابن حبان .

متعددة وتنوعة لا تقع تحت حصر فهل تتعرض العلاقة الزوجية لهذه المؤثرات وهل تخضع الطاعة لهذه الأسباب كلا فان الوفاء خلق اسلامى كبير وكما يطالب الرجل بحقوق المرأة فان المرأة مطالبة بحقوق الرجل .

وتسد تعاليم الاسلام كل الثغرات أمام تيارات الغضب وعدم الرضا وغير ذلك من المؤثرات والاسباب التى تذهب بشئ من حقوق الزوج لدرجة أن الوصية بتلك الحقوق تأتى صيغتها النهائية التي ليس بعدها وصية ولا تأكيد فوق ذلك .

فان السجود وهو منتهى الخشوع والخضوع والطاعة لله تعالى . ولذلك كان الانسان أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد هذا السجود لو كان يصح - افتراضا وتمثيلا - أن يأمر أحد به أحدا لأمر المرأة به طاعة لزوجها . ثم يأتى التعليل وتوضيح السبب فى هذا التأكيد .

« من عظم حقه عليها » . فالحديث يؤكد الوصية بحق الزوج وطاعته ومن أهم حقوق الزوج محافظة المرأة على دينها وخلقها محافظتها على شرفها وكرامتها . ومحافظتها على مال زوجها وعدم مطالبتها مما وراء الحاجة واتباعها طريق الحلال وتذكيرها لزوجها بذلك . لقد كان الرجل من السلف اذا خرج من منزله تقول له إمرأته وأبنته اياك وكسب الحرام . فانا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار .

وهم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره فقالوا لزوجته لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة فقالت زوجى منذ لموقف من سلفنا لا يهمنى تقصير الرجل فى حق بيته ولا اهماله القيام بما يجب عليه نحو أسرته من

نفقة ولكنه يعنى مدى رضا المرأة وقناعتها وعلمها ومعرفتها بأن الرزق من عند الله وما راعى الاسرة الا سبب مباشر للأكل من هذا الرزق الذى يسوقه الله . ومن الواجبات على المرأة أن تحفظ مال زوجها واذا انفقت فى غير افساد كان لها أثرها على الانفاق ولزوجها اجره بما كسب كما جاء فى الحديث « إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب » (١) وفى الحديث « أيا إمرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » (٢) .

ويعد الاسلام رضا الزوج من أهم أسباب دخول المرأة الجنة ولكن ينبغى أن تقيد هذا الرضا حيث لا يتعارض مع أمور الدين فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وانما المقصود برضا الزوج على المرأة هو حسن معاملتها وأدبها وألتزامها بمبادئ الاسلام التى قررها للحياة الزوجية التى تشرق بالمودة والوئام والتفاهم والانسجام وتتجاوب فيها العواطف المخلصة الى أنبل المقاصد وأسمى الاهداف الكريمة .

وفى ظلال الاسرة المسلمة يلقى الابناء عناية فائقة ويستشعرون طعم الحياة الآمنة المستقرة ويبكر فيهم النبوغ ولا تتعقد بينهم أمور الحياة .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

ظاهرة النشوز عند بعض الرجال

لشئون الاسرة أهميتها الكبيرة فى سائر الجوانب المتعددة وقد عنى القرآن الكريم بها وحفلت آياته البينات بما يوضح حقائقها ويضئ الطريق الصحيح أمام المجتمع الاسلامى . ليتحقق العدل الالهى فيما يتصل بسائر الحقوق والواجبات .

قال الله تعالى: « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما » (١) .

وقد كان الناس يستفتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النساء. وما يتعلق بهن من ميراث . فيرد الله سبحانه وتعالى على طلبهم هذا .. ويأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم .. ويخبرهم بأن الله بنفسه هو الذى سيفتيهم : « قل الله يفتيكم فيهن » وذلك بما جاء فى القرآن من أحكام الميراث كما أنه يفتيهم فى شأن يتامى النساء .. حيث لم يعطوهن فى الجاهلية حقوقهن. وبقيت هذه الرواسب فى النفوس فسألوا عنها .. وقد كان أولياء اليتامى يرغبون عن نكاحهن اذا كن دميمات ان يتزوجن طمعا فى الميراث وكذلك بالنسبة للصغار المستضعفين من الولدان فأمرهم الله تعالى بالعدل فى المهر وفى الميراث ..

---

(١) سورة النساء آية ١٢٧ .

واذا لم يحققوا العدل فان الله عليم بكل أفعالهم وتصرفاتهم وظلمهم فيجازيهم على ذلك . وعن عائشة رضى الله عنها « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن » الى قوله « وترغبون أن تنكحوهن » قالت عائشة . هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها ما شركته فى ماله حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها - أى لا يريد زواجها لدمامتها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فنزلت الآية..

وتكشف لنا آيات القرآن الكريم عن ظاهرة النشوز في بعض أشكالها .. فانها كما تكون فى المرأة تكون فى الرجل فما حكم من توقعت من زوجها نشوزا.. وخافت ترفعه عليها والتقصير فيها لبغضها أو الاعراض عنها بوجهه عن هذا يجيب القرآن الكريم فى قول الله تعالى .. « وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » (١) .

ان القرآن الكريم يجيب على مثل ذلك بقوله : « فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا » فى القسم أو فى النفقة مثلا : فتترك الزوجة له شيئا رغبة فى الأستمرار والبقاء هذا اذا كانت راضية بذلك والافعلى الزوج حينئذ أن يوفيها حقها أو يفارقها .

ويوضح الله تعالى .. بأن الصلح أفضل الحلول وخير من الفرقة ومن

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .

الاعراض والنشوز كما يكشف القرآن عما طبعت عليه النفس البشرية وما هو كامن فى جبلتها من شدة الحرص والشح « وأحضرت الانفس الشح » ولكن ليس معني هذا الوقوف عند حدود هذا الجانب المادى .. ولا أن يكون التعامل بأعتبار ذلك فحسب .

فهناك جانب آخر أسمى وأرقى .. أنه جانب الاحسان والتقوى الذى يمسك بزمام الإنسان ويوقظ فيه الضمير الدينى والاحساس بأن الله عليم بكل شئ خبير بكل ما يعمله « وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » فاذا تجشم الرجل مشقة مغالبة النفس ومصابرتها على ما يكره من زوجته وأعطاها حقها وعاملها بالحسنى فله عند الله العليم الخبير أوفر الجزاء . ثم يضع الاسلام حقيقة واقعية أمام العين لا يستطيع الانسان أن ينكرها بحال من الأحوال وهى أن النفس ذات ميول فقد يميل الانسان الى إحدى زوجاته أكثر من الأخرى وبالتالى لا يستطيع أن يحقق المساواة بين نسائه من جميع الوجوه فاذا مال الى إحدى زوجاته فلا يميل كل الميل فى القسمة والنفقة وغير ذلك مما يترتب فلا يترك الاخرى تشبه المعلقة .. فلا هى أيم ولاهى ذات زوج .

فعلى الزوج أن يقوم بالعدل والاحسان . والاصلاح فى القسمة والا يجور أو يغبن فإنه إن سوى فى الحقوق والأمور المتعلقة بالقسمة أو النفقة وغير ذلك مما هوظاهر وواضح فإن الله يغفرله ما هو يمسكه من الميل الذى فى قلبه ويرحمه اذا سار على العدل والاحسان قال الله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها

كالمعلقة وأن تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما » [١] .

أما عندما تستحكم الجفوة بين القلوب .. فان الاسلام لا يرضى للعلاقة الزوجية أن تتأجج بالنفور والكراهية .. وتظل مجرد علاقة فى الظاهر لا غير بينما هى فى الحقيقة انفصال وجفاء لا يكره الاسلام أحد الزوجين على حياة لا تطاق فعندما ينفذ كل وسائل التوفيق والاصلاح والمودة والرحمة .. أو الصبر والاحسان . عندما يتفذ ذلك كله .. فإن لا مفر من الفراق وحينئذ يتولى الله الأمور بحكمته وبما يراه أصلح .. فهو يعد كلا منهما بأن يغنيه من فضله .

« وان يتفرقا يغن الله كلامن سعته وكان الله واسعا حكيما » [٢] .

ثم تعقب آيات الله البينات على ما سبق من تقرير المبادئ الإلهية وما يتصل بأحكام الأسرة وشؤونها مبينة أن الله بيده مقاليد كل شئ وهو المالك والحاكم والمتصرف فى كل ما يتصل بشئون السموات والأرض .

فجدير بعباده المخلوقين أن يتقوه .. ويطيعوه .. ويخافوا عذابه قال تعالى: « ولله ما فى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فان لله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا » [٣] .

وهذا التعقيب الذى جاء بعد بيان ما يتصل بشئون الاسرة من أحكام

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٩ .
(٢) سور النساء آية :.١٣ .
(٣) سورة النساء آية ١٣١ .

ومبادئ يدل على أهمية شئون الاسرة وما يتصل بها بحيث لا يصح التهاون فيها، أو التفريط فى حق من حقوقها .

واذا ما تبين لنا عناية الاسلام بشئون الاسرة وسائر أحكامها ومعالجة كل تفاصيلها ودقائقها والتحذير من الظلم أو الاساءة فى حق من الحقوق اذا ما تبين ذلك ، فأولى بالمجتمعات الاسلامية أن تعنى بالأسرة ورعايتها والعناية بتوجيهها وبنائها على أسس الاسلام وأحكامه ومبادئه وأخلاقياته الفاضلة .

المحافظة على أسرار البيت الزوجى

للعلاقة الزوجية حرمتها ومكانتها ، فهى علاقة سكن ومودة ورحمة، قال الله تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [(١)] .

وقال سبحانه : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » [(٢)] .

فدائرة العلاقة الزوجية فى رحابتها وأمتدادها ينبثق منها معان رفيعة رائدة.. فهى ليست محصورة فى الجانب الحسى ، وعلاقة الجسد بل أن وراءها المحافظة على بقاء النوع الانسانى والاستعفاف والترابط القوى بين كل من الزوجين وبين كل من الاسرتين . مما يعمل على اثراء التواصل،وتنمية وشائج القربى والرحم . وهذه الصلات ومالها من روابط وثيقة ، تترعرع فى ظلال المودة والرحمة التى أفاءها الله تعالى على تلك العلاقة الوثيقة . ولما كان للعلاقة الزوجية هذه المنزلة كانت جديرة بأن تحاط برعاية فائقة وعناية بالغة ، فكل من الزوجين ، زينة وستار للآخروسكن ولباس كما قال الله سبحانه . « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » [(٣)] .

قال ابن عباس وغيره فى معانى هذه الاية «هن سكن لكم وأنتم سكن لهن » وقال الربيع عن أنس : هن لحاف لكم وأنتم لحاف تحفظ و تستمر

(١) سورة الروم .
(٢) سورة الاعراف .
(٣) سورة البقرة اية ١٨٧ .

بحيث يصان البيت الزوجى عن كشف شئ منه ، بل يظل داخل هالة المودة والرحمة والمحافظة والرعاية

فالمرأة المسلمة الصالحة مطيعة لزوجها ، تحفظه في غيبته فى نفسها وماله قال الله تعالى :

فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » (١) .

وفيما رواه ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير النساء إمرأة اذا نظرت اليها سرتك ،اذا أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » . قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية . « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » وليس امر المحافظة على هذا الجانب فحسب . بل ثمة جوانب أخرى يجب الوقوف عندها.فمن ذلك اسرار المأكل وغيره مما يكون عادة فى البيت من الفاكهة وغيرها ، فان كان الموجود قليلا ، فليكن الرضا وعدم السخط والشكوى ، وان كان كثيرا ، فليكن الشكر لواجب النعمة ، وعدم التباهى بذلك والتحدث لا سيما اذا كان الجار فقيرا .

فإن لم يعطه منه فلا أقل من يحتفظ بما عنده ولا يخرج بالفاكهة الأطفال ليغيظوا بها أطفال الفقراء . ومن الجوانب الهامة والجديرة بالمحافظة عليها .. ما يحدث من الخلافات الزوجية و هذا جانب له أهميته

---

(١) سورة النساء .

فى وجوب تضييق دائرة الخلاف ومحاولة علاجها بين الزوجين دون تسرب خبر منها للناس أو أرتفاع صوت أو صياح .. وقد شرع الاسلام لمعالجة أحوال النشوز والخلاف ما يكفل الامن السريع للبيت الزوجى وهو علاج يتم فقط - بين الزوجين بحيث لا تتطاير به الآسباب ولا تتكشف معه الأسرار، وإنما يتم العلاج فى سرية تامة وبقواعد دقيقة ومحكمة ، وبمشيئة الله نتحدث عنها فى مكانها من موضع آخر وأما عند توقع الخطر ، وخوف الشقاق ، وتعرض البيت الزوجى لاسباب التصدع والانهيار، وحدوث الفرقة، وما يترتب عليها من تعرض الطفولة البريئة الى الضياع ، ففى هذا الموطن يكون تدارك الموقف وعلاجه على نحو آخر .

ويحدثنا عنه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا أصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا . » [١] .

وهنا ندرك الحكمة العالية فى التعبير بقوله - حكما- فمن طبيعتة ومن شأنه وشرطه أن يكون عادلا صالحا محبا للخير ، وعن ابن عباس : أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسئ - وفى تسميتهما - بالحكمين - ما يشير الى انهما يحكمان بالعدل ويتوخيان الصالح العام ، للزوجين وللأبناء ويحرصان على خير البيت الزوجى ، ومن شأن - الحكم - أن يحكم بغير

---

(١) سورة النساء آية : ٢٥ .

رضا المحكوم عليه فلا يؤثر عليه الهوى ولا تؤثر عليه الانفعالات النفسية لأن رائده العدل والتوفيق بين القلبين المتنافرين .

ولنا – هنا – أن نتساءل : هل هذان الحكمان قائمان من جهة الحاكم؟ فيحكمان وان لم يرض الزوجان ؟ أو أنهما وكيلان من جهة الزوجين ؟ يرى بعض العلماء أنهما وكيلان من جهة الزوجين ؟ كما قال الله سبحانه : « فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » أن من شأن من هو من أهل الانسان أن يكون حريصا على الاسرار ومحاولة دفنها وعدم التشهير بها ومن كان من أهل الانسان كذلك فشأنه أنه مؤتمن على الأسرار ، وحريص على حب الخير والتوفيق والاصلاح أن الاسلام حرص على صيانة الاسرار وعدم تعرض أى الزوجين للحرج ، حين يكون الحكم أجنبيا عنه فيخدش الحياء أو تتعرض كرامة ومكانة أحدهما الى الاهتزاز.

واذا انتقلنا الى جانب آخر – غير هذا – من جوانب الاسرار الزوجية، وهو جانب العلاقة الخاصة بين الزوجين ، نجد أن الاسلام قد صان هذا الجانب صيانة قوية وحذر من كشف هذا السر أو الاستهانة بالتحدث به ، كما هو شأن المجتمعات البعيدة عن روح الاسلام ، والتى يتناقلها فيها ضعاف الدين والخلق والحمقى ..

عن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعود عنده فقال : لعل رجلا يقول ما فعل بأهله ، ولعل إمرأة تخبر بما فعلت مع زوجها فأزم القوم أى سكتوا وجلين فقلت : أى والله يارسول الله أنهم ليفعلون وانهن ليفعلن قال : « فلا تفعلوا ، فإنما

مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون » [١] .

ان تلك العلاقة بين الزوجين أمانة ، فيجب على كل منهما أن يصونها ، فمن أخطر ما يكون خيانة تلك الامانة وافشاء هذا السر ، حين يفضى الى امرأته وتفضى اليه ثم ينشر سرها .

(١) رواه أحمد .

لا يخلون أحدكم بأمراة الا مع ذى محرم

من التشريعات الاسلامية لصيانة البيت المسلم ، تحريم الخلوة بالأجنبية منعا لوساوس الشيطان ، وابعاد الهواجس النفس الأمارة بالسوء ، فقد جاء فى الصحيحين « لا يخلون أحدكم بإمرأة الا مع ذى محرم » ومما حرص عليه الاسلام فى هذا الصدد خلوة المرأة بأقارب زوجها كخلوتها بأخى زوجها أو بابن عمه أو ابن خاله . لما فى ذلك من التساهل الذى يمكن أن يحدث من أهل القرابة ومثل أقارب الزوج أيضا أقارب المرأة ممن ليسوا محارم لها كإبن عمها وابن خالها وابن عمتها وابن خالتها فليس لهم الخلوة بها ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أياكم والدخول على النساء » فقال رجل من الانصار يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال «الحمو الموت » متفق عليه وهم أقارب المرأة . وليس الأمر قاصرا على ما يخشى حدوثه من فتنة بل لأن فى ذلك فتحا لنوافذ القيل والقال . وإثارة للشبه ألسنة السوء وما يترتب على ذلك أيضا مما لا تحمد عقباه ، ومما يترتب عليه تخريب البيوت .

ولقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة على ذلك . عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم احدى نسائه . فمر به رجل فدعاه وقال يافلان هذه زوجتى ، فقال يارسول الله من كنت اظن فيه فإنى لم اكن اظن فيك فقال عليه الصلاة والسلام : ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وبهذا يعطى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه درسا من أقوى ما يكون فى دفع الشبهات وظن السوء حتى لا يتعلل احد ما كائنا من كان بأنه فوق الشبهات ، كما كان لموقف موسى عليه السلام من إبنه شعيب أثره كذلك فى البعد عن مواطن الشبهات . وذلك عندما وجهت اليه دعوة أبيها ، فطلب منها أن تسير خلفه وان تصف له الطريق ولم يكن هناك أدنى شك بين الطرفين فى نفسيهما . ولكنه الدين فى تعاليمه السامية . بعدا عن الشبهات ومنعا لاثارة الفتن والكلام ونشرا للأدب العالى فى البيوت المؤمنه لتلتزم الجادة والسير على المنهج الأمثل . ومن تشريعات المحافظة على البيت المسلم التزام المرأة المسلمة بزيها الاسلامى الذى يوافق شرع الله والذى يغطى جميع جسدها والا يكون رقيقا ولا ضيقا . فقد جاء فى الحديث « أن من أهل النار نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات » (١).

وقد دخلت نسوة من بنى تميم على عائشة رضى الله عنها وعليهن ثياب رقاق فقالت عائشة «ان كنتن مؤمنات فليس هذا بثياب المؤمنات» (٢)

والاسلام بهذه التعاليم انما يريد بناء بيت اسلامى يتسم بالعفة والطهارة والنقاء .

وينأى عن الرذيلة والضلالة والمعاصى ما ظهر منها وما بطن ، وواضح أن للأم أثرا كبيرا فى حياة الأبناء فإذا كانت صالحة مستقيمة تلتزم بالثياب الاسلامية والحجاب الاسلامى . فلا شك أن الأبناء ينشأون

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه الترمذى

نشأة صالحة . ففى أحضان الام تنمو عواطف الأبناء وعاداتهم وتقاليدهم و سائر أخلاقهم وفضائلهم وجاءت تعاليم الإسلام موجهة جميع المؤمنين والمؤمنات الى ما فيه الطهر . والعفاف ، فأمر الاسلام بغض البصر وعدم أختلاط الرجال بالنساء وأحاط الاسلام الاسرة المسلمة بتعاليم قوية تكفل للأسرة وللمجتمع السداد والرشاد وكان لمشروعية الحجاب أثر بالغ فى الحفاظ على عفاف الأسرة وأخلاقها و كرامتها .وقد ثبت فى الصحيحين قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « وافقت ربى عز وجل فى ثلاث : قلت يارسول الله لو أتخذت من مقام ابراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وقلت يارسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلوحجبتهن فأنزل الله آية الحجاب وقلت لازواج النبى صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه فى الغيرة « عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن » فنزلت آية الحجاب فى صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه . وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة وقيل فى سنة ثلاث . روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فاذا هو يتهيأ للقيام . فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام . فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فاذا القوم جلوس ، ثم أنهم قاموا فانطلقوا فجئت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد أنطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب

بينى وبينه فأنزل الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث . أن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلبوكم وقلوبهن » (١) .

وكما شرع الله تعالى الحجاب حفاظا على الاعراض وصيانة من الشبهات فإن الله تعالى أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأمر نسائه ونساء المؤمنين بالستر الكامل بأن يدنين عليهن من جلاليبهن ليتميزن عن نساء الجاهلية قال تعالى : « ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلاليبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما (٢) .

واذا كان ذلك التوجيه الآلهى قد نزل فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وقرنه خير القرون . فما بالنا بحاجتنا اليه اليوم حيث تحاول المدنية الحديثة أن تزحف على بعض المجتمعات وما بالنا ونحن فى أمس الحاجة الى الالتزام به والاستمرار عليه والدعوة الى عدم التفريط فيه فى وقت من الاوقات أو حال من الاحوال حيث يوجد الرجال الاجانب وتوجد النساء ان فى تعاليم الاسلام نهوضا بالأسرة المسلمة الى مراقى السعادة والسكينة والى حياة الأمن والطمأنينة ..والله يوفقنا الى ما يحبه ويرضاه.

---

(١) الاحزاب (٥٣) .

(٢) سورة الاحزاب (٥٩) .

مشكلة المغالاة فى المهور وكيف حلها الاسلام ؟

تتكون الامة من مجتمعات متعددة وتتكون المجتمعات من أسر كثيرة وأساس الاسرة الزوجان واساس أرتباط الزوجين هو الزواج .

ومن هنا ندرك أهمية الزواج كأساس أصيل من أسس الحفاظ على النوع الانسانى وبناء الاسس وقيام المجتمعات ونشأة الامة . ومن أجل هذا عنى الاسلام عناية فائقة بشأن الاسرة وحث على تكوينها عن طريق الزواج . فقد خلق الله تعالى لنا من أنفسنا أزواجا وجعل الهدف من وراء ذلك السكن حيث يسكن الرجل الى إمرأته ويتبادلان المودة والرحمة . اللتين تنعشان حياتهما الزوجية وتسعدان الاسرة بعد ذلك قال سبحانه «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وحض الاسلام على الزواج ايضا ابتغاء الولد . ليسعد المجتمع بالبنين والحفدة وليكون طريق العفة والامان والآدب والسعادة ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : «يامعشر الشباب من أستطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » .. (١) .

ولهذا كان الامتناع عن الزواج خروجا عن الفطرة والسنة والدين و فى الحديث : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » وفيما رواه البيهقى : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان موسرا لان يتزوج ثم لم يتزوج

(١) رواه الشيخان .

فليس منى . وحتى لو كان الامتناع عن الزواج للعبادة والتخلى عن متع الحياة بما فى ذلك الزواج ، فإن الاسلام يكره ذلك ولا يبيحه ولا يستحسنه وقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفضه لهؤلاء النفر الذين أعتزموا على التخلى عن متع الحياة وراحتها وعن الزواج حين أراد بعضهم الا يتزوج وأراد الآخر أن يصوم ولا يفطر و أراد الثالث أن يصلى الليل ولا يرقد فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه « انتم الذين تقولون كذا وكذا أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له . ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » بيد أن قضية عدول بعض الشباب عن الزواج أو تأخيرهم فيه ما زالت قائمة وبصورة واضحة رغم ما فى تعاليم الاسلام ومبادئه التى قررها من الحث والدعوة الى الزواج . والتحذير من العزوف عنه وما يتبعه من أضرار .

ولكن وراء المشكلة اسباب إقتصادية كثيرة أهمها ، عدم توفر المال الكافى فى يد الشاب الذى يقدم على الزواج ومطالبة أهل من يخطبها بمهر كبير يغالون فيه الى جانب العديد من التقاليد التى تولد بعضها من التفاخر والتكاثر ووفد بعضها مع المدنية الحديثة كل ذلك دفع بمشكلة الزواج فى نفوس البعض الى ما يشبه التعقد ، فقد أصبحت عند بعض الشباب نظرة نفسية قائمة ربما يتهيب معها أن يفتح بيتا وأن ينشئ أسرة وأن يكون أبا . وأن يحتمل الأعباء فيرى أنه أضعف وأقل يدا من أن يقوم بكل هذا .

ومع تطور المشكلة بتطور المدنية والتكاثر فى الجهاز وفى أثاث

المنزل وكثرة المهور والمغالاة فيها مع كل هذا فقد وضع الاسلام ما فيه علاج لتك النظرة القائمة وعلاج للناحية النفسية فقد وعد الله سبحانه وتعالى ، راغبى الزواج بأن يغنيهم الله من فضله ووعده الحق لا يتخلف بقول الله سبحانه « وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيكم الله من فضله » وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يقول : انجزوا ما أمركم به الله ومن الزواج ينجزلكم ما وعدكم من الغنى وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عجبى ممن لا يطلب الغنى فى الزواج وقد قال الله تعالى : «إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله»

وأما نظرة الاسلام الى الزواج . فهى نظرة دقيقة حكيمة تقوم على أساس أنه رابطة وثيقة ، ميثاق غليظ لا ينهض إلاعلى أساس من الدين والخلق لا على كثرة المال والجاه والمنصب والتكاثر والتفاخر . ففى الحديث: « اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض و فساد كبير » .

وفى يسر الاسلام وسهولة تعاليمه ما يحل مشكلة التوقف عن الزواج . اذ أنه لم يشترط على غير القادر الا ما يستطيع أن يؤديه حتى ولو كان ابسط شئ أو أقل ما يتمول ففي الحديث : « التمس ولو خاتما من حديد » بل انه اذا لم يكن معه أقل ما يتمول فحسبه ما يحفظه من كتاب الله فعندما رجع الرجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له التمست فلم أجد ولو خاتما من حديد فقال له النبى صلى الله عليه وسلم هل معك شئ من القرآن قال : نعم قل هو الله أحد والمعوذتان » فقال صلى

الله عليه و سلم « زوجتكما بما معك من القرآن » و يروى أبو نعيم في « الحلية » يقول : خطب أبو طلحة أم سليم قبل أن يسلم فقالت : اما أني فيك لراغبة وما مثلك يسرني ولكنك رجل كافر وأنا إمرأة مسلمة . لا يحل لى أن أتزوجك . فقال ما دهاك يا رميصاء ؟ فقالت : وماذا دهاني قال أين أنت من الصفراء والبيضاء يريد الذهب والفضة - قالت : لا أريد صفراء ولا بيضاء فأنت امرؤ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . أما تستحى أن تعبد خشبة من الارض يجرها لك حبشى بنى فلان أن أنت أسلمت فذلك مهرى ولا أريد من الصداق غيره . قال ومن لى بالإسلام يا رميصاء قالت : لك بذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم . فاذهب اليه .

فانطلق أبو طلحة يريد النبى صلى الله عليه وسلم وكان جالسا في أصحابه فلما رآه قال . جاءكم أبو طلحة غرة الاسلام بين عينيه . وأسلم أبو طلحة أمام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأخبره بخبر الرميصاء فزوجه اياها على ما شرطت وهذا مثل رائع للمرأة المسلمة التى لا تنشد في زوجها ذهبا ولا فضة ولا مالا ولا عرضا من أعراض الحياة الدنيا انما تنشد فيه الدين أولا وأخيرا .

ومن كل ما سبق تتضح لنا حقيقة الزواج فى الاسلام أنه لا تكلف فيه ولا عسر ولا مشقة . بل أن تعاليم الاسلام تقضى - تماما - على مشكلة المغالاة - فى المهور ومشكلة التفاخر والتكاثر فى إجراءات الزواج أثاثه : لتفتح الباب أمام راغبى الزواج وطلاب العفة . ليكونوا اسرا

طاهرة كريمة أساسها الاسلام .

وحتى لا يتفاخر البعض بكثرة الصداق وحتى لا يتكاثر الناس فيه ويغالوا في مقداره نجد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يبين أن خيره أيسره فيقول : «خير الصداق أيسره » (١) .

وكذلك حتى لا يتفاخر الناس في إجراءات الزواج والاحتفال به والمغالاة في الاثاث والتكاليف التي تثقل كاهل الرجل بين ايضا أن أعظمه أيسره مئونة فقال صلى الله عليه وسلم .

« ان أعظم الزواج بركة أيسره مئونة »(٢) وعندما سأل صلى الله عليه وسلم رجلا تزوج وقال له على كم تزوجتها قال : علىّ أربع أواق فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرق هذا الجبل ؟

وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة في المهور .

ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين هذا :وان المغالاة في المهور معول هدام يقضى على رغبات الكثيرين من أهل العفة الراغبين في الزواج وفي نفس الوقت دعوى باطلة تساعد على ضياع قسط كبير من أعمار الشباب دون تحقيق سنة الاسلام بل قدتكون سببامن أسباب

---

(١) رواه أبو داود والحاكم وصححه .

(٢) رواه أحمد .

انتشار الرذيلة والفوضى الاخلاقية التى تهدد المجتمع بالتصدع والانهيار ولا مبرر لها الا تفاخر بعض الاسر .

وليس معنى هذا ان الاسلام يدعو الى أن يكون حق المرأة فى الصداق قليلا بل أنه يكره تلك المغالاة التى حادت من الجادة وأصبحت عقبة أمام الزواج .

أما اذا توفر المال وكان الزوج ذا يسر وغنى فان الاسلام يجيز كثرة المهر أخرج عبد الرزاق من طريق عبد الرحمن السلمى قال :قال عمر : لا تغالوا في مهور النساء فقالت إمرأة : ليس هذا لك يا عمر.ان الله تعالى يقول:«آتيتم احدهن قنطارامن ذهب» قال وكذلك هى ابن مسعود فقال عمر امرأة خاصمت عمر فخصمته . وبعد : فإنا لنرجو الله تعالى ان يوفق الاسر الاسلامية الى الأخذ بمبادئ الاسلام التى لا علاج لمشكلة الزواج الا بها .والله الموفق والهادى الى سواء السبيل .

قضية تعليم المرأة

لقد أعطى الاسلام المرأة حقوقا كثيرة بعد أن كانت مهضومة الحق فى الجاهلية . لقد منحها الاسلام حقها فى الميراث وحقها فى التملك وحقها فى الصداق . وجعل لها أهميتها فى التعاقد وفى إجراء العقود من بيع وشراء أو رهن أو هبة أو وصية .. كما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى شئون المسئولية والجزاء . والثواب والعقاب . بمعنى أن المرأة التى تعمل صالحا وهى مؤمنة جزاؤها فى الدنيا وفى الآخرة كما قال الله جل شأنه : « من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهومؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ويقول سبحانه : « للرجال نصيب مما أكتسبوا وللنساء نصيب مما أكتسبن»... (١) .

وسوى الاسلام بينهما فى الحدود وفى سائر أنواع الجزاء والعقوبات ففى حد الزنا وتطبيقه على الرجال والنساء . يقول الله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » وفي حد السرقة : يأمر الاسلام بتطبيق قطع اليد للسارق رجلا كان أو إمرأة . « والسارق والسارقة فقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » (٢) .

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى ذلك فإنه أعطى المرأة حق التعليم والثقافة وأباح لها أن تتعلم العلم والأدب بل أنه يوجب عليها ما يتصل بأمور الدين . لتقف على معرفة الاحكام ولتحسن القيام بالعبادات

---

(١) سورة النساء آية (٣٢) .

(٢) سورة المائدة (٢٨)

وسائر الوظائف فى هذه الحياة . وقد جاء فى الحديث . طلب العلم فريضة على كل مسلم . رواه ابن ماجه . وكلمة مسلم تشمل الرجل والمرأة كما يقول العلماء ..

ويقول أبو قلابة : « أى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم الله أو ينفعهم الله به ويغنيهم وفى هذا ما يشير الى أهمية إعداد الابناء بما ينفعهم ذكورا كانوا أو إناثا ولم يفرق الاسلام فيما منحه من حق « التعليم » للمرأة المسلمة بين أن تكون حرة أو أمة. بل أن توجيهات الاسلام فيما يتصل بشأن الامة كانت أكيدة. عن أبى بردة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ايما رجل كانت عنده وليدة أى جارية - فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها.ثم أعتقها وتزوجها فله أجران »(١) .

وبهذا رغب الاسلام فى تعليم المرأة وحث عليه ووضح ماله من أثر هام ومسودة كريمة .

وان العلم من الحقوق الاساسية التى لا غنى للحياة عنها بحال من الاحوال فإن شئون المجتمعات الانسانية لا تنهض على المأكل والمشرب والملبس والمسكن فحسب ، فتلك حقوق مادية ، اما تلك الحقوق المعنوية والروحية . فلها أهميتها فى تيسير الحياة وتنظيم تلك الحقوق المادية الاخرى . ولا يتأتى ذلك الا بتثقيف القلب والروح وتهذيب العقل وتعليمه

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه

ولقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ تعليم المرأة وتثقيفها بما كان يصنعه مع المسلمات من تخصيص يوم يجلس لهن فيه ومن تعليم أمهات المؤمنين .

روى البلاذرى فى « فتوح البلدان » أن الشفاء العدوية وهى سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة فى الجاهلية . وكانت تعلم الفتيات . وان حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام . ولما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب الى الشفاء العدوية أن تتابع تثقيفها وأن تعلمها تحسن الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة . والعديد من الشواهد يدل على تعلم النساء وظهورهن فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة منذ عصر بنى أمية .

وذكر ابن خلكان ان السيدة نفيسة بنت الحسن الانور بن زيد الأبلج بن الحسن بن على بن أبى طالب لها بمصر مجلس علم حضره الامام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه الحديث وروى ابن المقرى فى كتابه « نفح الطيب » أنه كان لابن العطرف اللغوى جارية اخذت عن مولاها النحو واللغة ولكنها فاقته فى ذلك وبرعت على الاخص فى العروض حتى سميت « بالعروضية » . وأنها كانت تحفظ عن ظهر قلب كتابى « الكامل » « للمبرد » « والامالى » لابن على القالى من حقوق الانسان فى الاسلام للدكتور على عبد الواحد وافى .

واذا تقرر فى الاسلام للمرأة هذا الحق فإنه ينبغى أن ينظر الى قضية تعليم المرأة نظرة عادلة ومثمرة بحيث لا يطغى تعليمها وحقها فيه . وما

أتاحه الاسلام لها لا يطغى هذا على دورها كزوجة وعلى دورها كأم فهذا هو دورها الاصيل وبين الأمومة والزوجية تكون رسالة المرأة فى الحياة وما تعليمها الذى منح الاسلام لها كحق الامكمل وهاد لدورها ورسالتها ثم أنه الى جانب تلك محكوم بمبادئ الاسلام وآدابه وأخلاقه بمعنى أن المرأة التى تتلقى العلم يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن إختلاطها بالرجال الاجانب محافظة على زيها الاسلامى وعلى احتشامها ووقارها وعفتها واخلاقها .

ومن ناحية أخرى لا يكون قيام واجب على حساب آخر من واجبات الأمومة والزوجية .. وهكذا كان النساء فى صدر الاسلام فهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق تقول : « كنت أخدم الزبير زوجها خدمة البيت كله وكنت أسوس فرسه وأعلفه واحتش له . وكنت أحرز الدلو واسقى الماء واحمل النوى على رأسى عن ارض له على ثلثى فرسخ » وفى الحديث : «...والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها »[1] واذا كان الاسلام قد منح المرأة تلك الحقوق السابقة فانه قد أكد واجبها كزوجة وواجبها كأم وسائر مايجب أن تقوم به من تربية أبنائها وكل ذلك فى حدود ما رسمه الاسلام وما حدده فى الكتاب والسنة وفى تاريخ سلفنا بحيث لا تجرفها المدنية الحديثة الى الخروج من دائرتها التى رسمها لها الدين .

كما ينبغى أن ننبه الى حكمة الاسلام العالية فى التفريق بين المرأة والرجل فى بعض الأمور والحقوق وأن ذلك من صميم العدالة الالهية اتساقا مع طبيعة كل من الجنسين وخصائصه وتكوينه . ودوره فى الحياة كحقها فى الميراث على النصف من نصيب الرجل وغير ذلك مما قررته الشريعة الاسلامية ..

---

(١) رواه البخارى ومسلم

ضوابط إسلامية لحماية البيت الزوجى

لقد حرص الاسلام على استقرار البيت الزوجى واستتباب الامن والطمأنينة داخل الاسرة المسلمة حتى لا تتعرض فى يوم من الايام للضياع أو الانهيار .

وما شرع الاسلام الطلاق إلا كحل أخير ليس فى الحياة سواه حيث تنفذ كل الوسائل ويصبح ضرورة ملحة ، وأما الطلاق بغير ضرورة وبدون استنفاد الوسائل فهو حرام .

لقد حرمه الاسلام لما فيه من الضرر بالنفس وبالزوجة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » (١) .

وأما بالنسبة لما يصنعه كثير من الرجال من كثرة الزواج بالنساء وكثرة الطلاق لهن فهذا حرام ، وقد سمى الاسلام هذا النوع من الرجال أو النساء بالذواقين والذواقات .

وقد مقت الله تعالى هذا الصنيع وكرهه وحرمه وكره اصحابه . لما يترتب عليه من هدم الحياة الاسرية كلما أرادت أن تقوم وتقويضها كلما أخذت تنهض والقضاء على براعم الحياة وازهارها من الاطفال الذين يملأون البيوت سعادة وحنانا وتتدفق القلوب عليهم حبا وعطفا ورحمة وسلاما .

إن أمثال هذا النوع من الناس لا يبتغى من زواجه عفة نفسه وزوجه وانجاب الذرية الصالحة واقامة المودة والسكن والرحمة فى البيوت اذ لوكان

---

(١) رواه ابن ماجه الدار قطنى .

كذلك لو كان يبتغى بالزواج ما شرع من أجله الزواج ولما كان ذواقا بل كان محافظا وملتزما ومتمسكا بأهله واسرته ولكن هذا الضرب من الناس لا يريد الا شهوته ولا يجرى الا وراء المتعة الجسدية التى لاتنهض به الا الى الضياع وسخط الله سبحانه وتعالى وقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية الله تعالى لهذا النوع من الناس فقال : « ان الله لا يحب الذواقين ولاالذواقات »[١] كما أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهيته لهذا النوع من الناس كذلك رجالا كانوا أم نساء فقال صلوات الله وسلامه عليه « لا أحب الذواقين من الرجال والذواقات من النساء »[٢] .

وإذا كان الطلاق أبغض الحلال الى الله فان جميع مرات الطلاق دفعة واحدة مما يكرهه الاسلام كذلك اذ فيه استعجال لفصم عرى الحياة الزوجية وتمزيق لأواصر الحياة الأسرية فعندما أخبر رسول الله صلى عليه وسلم عن رجل طلق أمرأته ثلاث تطليقات جميعا قام غضبان ثم قال « ايلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » حتى قام رجل فقال : يارسول الله الا اقتله ..[٣].

وإذا كان ذلك بالنسبة للرجال . وان الاسلام قد وجههم الا يعبثوا بميثاق الزواج الغليظ أولا يسارعوا بالطلاق وبغضه الله تعالى لما فيه من الاضرار التى تلحق الزوجين والابناء بصفة خاصة . وأباحه الاسلام فى حدود وحرم مضارة الزوجة كذلك حرم على الزوجة العبث به قال صلى الله

---

(١)رواه الطبرانى فى الكبير .
(٢) رواه الدار قطنى والطبرانى .
(٣) رواه النسائى .

عليه وسلم « أيما إمرأة سألت زوجها الطلاق فى غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة »[١] .

ولكن بعض الرجال قد يلجأ الى بعض الحيل حتى تضطر زوجته الى طلب الطلاق منه فيضار الزوجة أو يسئ عشرتها لتفتدى نفسها منه ببعض ما آتاها من المال وهذا حرام ما دامت لم ترتكب فاحشة فقد قال الله سبحانه: « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينه »

واذا كان الزوج هو الكاره لزوجته والراغب فى فراقها واستبدالها فلا يصح أن يأخذ شيئا من الزوجة لأن الله تعالى يقول : « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » إنها تعاليم الاسلام العالية وحكمه الدقيقة التى تحفظ كيان الاسرة وتحيطها بسياج من الادب العالى وتصون العلاقة من التعرض لما لا تحمد عقباه .

انها الحماية لحقوق كل من الزوجين والتأكيد بالأخص على أضعفهما وهى المرأة . ومضاعفة التأكيد للبعد عن فصم عرى الزوجية حتى لا يتعرض الابناء للضياع وحتى لا يكون الابناء هم ضحية هذا التسرع الممقوت أو التصرف المرذول ولتظل حياة الاسرة مشرقة بالأمن والاستقرار هادئة وآمنة ومستبشرة .

---

(٤) رواه البخارى .

من آداب الاسلام الاستئذان

الاسلام هو دين الأدب العالى والذوق الرفيع ، والخلق الفاضل الكريم ، فهو يحرص على حرمة البيوت واحترام المشاعر والاحاسيس ، وصيانة الاعراض ومن أجل هذا شرع الاستئذان ، فعن يسر بن سعيد قال: سمعت ابا سعيد الخدرى يقول . كنت جالسا بالمدينة فى مجلس الانصار فأتانا أبو موسى فزعا أو مذعورا قلنا : ما شأنك ؟ قال : ان عمر ارسل الى آتيه فآتيت بابه فسلمت ثلاثا . فلم يرد على فرجعت .. فقال : ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : إنى أتيتك فسلمت على بابك ثلاثا فلم يردوا على فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا إستأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » [1] ، فقال عمر : أقم عليه البينة والا أرجعتك ، فقال أبى بن كعب ، لا يقوم معه الا أصغر القوم قال أبو سعيد : قلت أنا أصغر القوم قال فأذهب به . وزاد ابن أبى عمر فى حديثه قال أبو سعيد فقمت معه فذهبت الى عمر فشهدت ، رواه مسلم. وفى هذا الحديث الشريف بيان لكيفية الاستئذان ، كما وضحها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وكما وعاها الصحابة الاطهار رضوان الله تعالى عليهم اجمعين . كما أن هذا الحديث يكشف لنا عن منزلة حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .فى نفوس أصحابه ، وعن دقتهم وحيطتهم فى تلقى الحديث وفى تحمله وادائه أما عن الاستئذان : فالمشروع فيه ، أن

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير .

يكون ثلاثا.ويجمع فيه بين السلام والاستئذان كما قال الله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم أرجعوا فأرجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (١) .

ولكن هل يقدم الاستئذان على السلام ؟أم يقدم السلام على الاستئذان ؟ أما الرأى الذى صححه العلماء وجاءت به السنة . وقال به المحققون ، فهو تقديم السلام بمعنى أن يقول المستأذن السلام عليكم ، أأدخل ؟ وهناك رأى ثان يرى تقديم الاستئذان . وأما الرأى الثالث : وهو الذي اختاره الماوردى فيرى أنه ان وقعت عين المستأذن على صاحب المنزل ، قبل دخوله قدم السلام والا قدم الاستئذان . واما اذا استأذن ثلاثا فلم يؤذن له ، وظن أنه لم يسمعه ففيه ثلاثة مذاهب ، أشهرها : أنه ينصرف ، ولا يعيد الاستئذان . والثانى : يزيد فيه . والثالث : أن كان بلفظ الاستئذان المتقدم لم يعده وان كان بغيره اعادة فمن قال بالاظهر فحجته قوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث .. « فلم يؤذن له فليرجع »..

ومن قال بالثانى . حمل الحديث على من علم أو ظن أنه سمعه فلم يأذن له من صحيح مسلم بشرح النووى . وفى قول أبى بن كعب رضى

---

(١) سورة النور (٢٧ - ٢٩) .

الله عنه « لا يقوم معه الا أصغر القوم » فى هذا القول منه إنكار على عمر رضى الله عنه حيث أنكر الحديث مع أنه حديث معروف لكبارهم وصغارهم حتى أن أصغرهم يحفظه وسمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ البعض من هذا الحديث دليلا على عدم الاحتجاج بخبر الواحد زاعما أن عمر رضى الله تعالى عنه قد رد حديث أبى موسى لكونه خبر واحد . ولكن هذا المذهب القائل بعدم الاحتجاج بخبر الواحد مذهب باطل غير صحيح فقد دل على الاحتجاج ووجوب العمل به : فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وسائر الصحابة . وانعقد اجماع من يعتقد به على ذلك ، وليس فى هذا التصرف من عمر رضى الله عنه ما يدل على رد خبر الواحد وانما فيه دليل على عدم رده ، لأنه طلب منه أخبار رجل آخر حتى يعمل بالحديث . ومعلوم أن خبر الاثنين ، هو خبر واحد بل وما زاد على ذلك حتى يبلغ التواتر فهو خبر واحد .

كما يدل على عدم رده خبر الواحد ، ما جاء فى الرواية فيرى - عند مسلم - أن ابيا رضى الله عنه قال : يا ابن الخطاب فلا تكونن عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : سبحان الله انما سمعت شيئا فاحببت أن اتثبت .

ومما سبق يتضح أن توقف عمر رضى الله عنه فى قبول الخبر والعمل به ليس لأنه خبر واحد ولكنه اراد التثبت والحيطة ، واراد ان يسد الباب فى وجوه المنافقين والكاذبين والمبتدعين وغيرهم ممن تسول لهم انفسهم أن يقولوا على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ما لم يقله ، وعلى ضوء

هذا التصرف من الخليفة العادل والصحابى الجليل عمر بن الخطاب رضى الله عنه قانونا فى الرواية . يتلخص فى التثبت البالغ والحيطة والدقة الفائقة لما يأتى :

أولا : لزجرمن يحاول الدس أو الوضع فى الحديث فان من كان دون ابى موسى اذا رأى مثل هذه القضية أو بلغته وكان فى قلبه مرض، وأراد وضع الحديث خاف من مثل قضية أبى موسى فامتنع من الوضع أوالكذب

ثانيا : المنع من المسارعة الى الرواية بغير يقين وتثبت . وليس فى هذا التصرف ما ينقص من مكانة ابى موسى فان مكانته عند عمر أجل من أن يظن به ذلك ، وانما هو التثبت والتيقن والزجر بالنسبة للغير . حفاظا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيانة لها من الوضع أو التسرع بالرواية .

ومن أدب الاسلام فى الاستئذان انه اذا استأذن مستأذن على قوم فقيل له: من أنت ؟ أو من هذا ؟ فانه يكره أن يجيب بقوله : أنا لأنه حينئذ لم يعرف القوم بشخصه ولم تحصل فائدة من قوله أنا ، وانما الابهام باق لا سيما اذا كان الباب مغلقا أو الصوت غير كامل السماع ، أو انهم لا يعرفون صوته وحتى على افتراض معرفتهم لصوته ، فإن الأصوات تتشابه فمن الادب والخلق الاسلامى أن يذكر أسمه ، فيقول فلان باسمه ولو قال أنا فلان ، فلا بأس .. ولا بأس بقوله : أنا أبو فلان أو أبو القاضى فلان أو الشيخ فلان اذا لم يحصل التعريف بالأسم لخفائه .

عن جابر بن عبد الله قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فدعوت فقال النبى صلى الله عليه وسلم « من هذا ؟ قلت أنا قال فخرج وهو يقول أنا أنا »[1] .

فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذه الاجابة المبهمة التى لا تفيد التعريف بالنفس ، وكما جاء فى بعض الروايات الاخرى ، كأنه كره ذلك ، وقد شرع الاستئذان حفاظا على حرمات البيوت لئلا يقع البصر على الحرام ، فلا يحل لأحد أن ينظر من ثقب الباب ولا ثغرة ولا غير ذلك مما قد يكون عرضة لوقوع البصر على المرأة الاجنبية .

بل أنه قد جاز رمى عين المتطلع بشئ خفيف ولو رما ، بذلك ففقأها فلا ضمان اذا كان قد نظر فى بيت ليس فيه إمرأة محرم .

قال صلى الله عليه وسلم « من أطلع فى بيت محرم بغير أذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه »[2] الا أنه قال : « ففقئوا عينه فقد هدرت » .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

من أدب الاسرة الغيره

تلتزم الاسرة المسلمة بأداب الاسلام وأخلاقه فى كل شئونها وأحوالها وفى سائر مظاهرها وأوضاعها ، ومفهوم أن من أهم تعاليم الاسلام المحافظة على العرض والشرف وصيانة البيت الزوجى من أية فتنة والمحافظة عليه من التعرض للقيل والقال .

ولقد كان لخلق المحافظة أدبه الاسلامى الرفيع وحسه الديني المرهف الذى يحرص كل الحرص على صيانة الشرف والعرض من التعرض لأدنى ريبة أو لأقل شبهة تثار ، ولذا فقد برزت الغيرة المعتدلة فى البيت الاسلامى المحافظ كنتيجة حتمية للخلق الاسلامى وآدابه العالية . والغيرة من صفات الله تعالى حيث يأتى المؤمن ما حرم عليه وحيث يقترف ما نهاه الله تعالى عنه ولذا كان التحريم القاطع لجميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والغيرة ايضا من صفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بل أنه عليه الصلاة والسلام أشد الناس غيره . والغيرة من صفات المؤمنين الملتزمين بأخلاق الاسلام وآدابه المحافظين على شرفهم وكرامتهم . أما عن الغيرة فى جانب الله فقد قال عنها رسول الله صلي الله عليه وسلم : « ان الله تعالى يغار والمؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتى الرجل المؤمن ما حرم عليه » متفق عليه .

ويوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرته حين لا يعجب الناس من غيرة سعد فيبين أنه أغير من سعد وأن الله أغير من رسوله صلى الله

عليه وسلم قال : « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير منى » .. متفق عليه

ومن الصحابة الذين أشتهروا بشدة الغيرة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت فى الجنة قصرا فقلت لمن هذا القصر فقيل : لعمر فذكرت غيرتك ياعمر فبكى عمر وقال : « أعليك أغار يا رسول الله » متفق عليه .

وكم حرص سلفنا على خلق الغيرة واحتاطوا له أشد الاحتياط فكان الحسن يقول أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج فى الأسواق قبح الله من لا يغار .

وكان هذا الوعى من سلفنا لآداب الأسرة المسلمة سدا لباب الفتنة وليجنبوها خطورة الاختلاط وليصونوها عن كل منافذ الشر ووساوسه

والغيرة نوعان :

النوع الأول : غيرة فى ريبة وتلك هى الغيرة المطلوبة والتى اردناها بالنصوص السابقة بحيث لا يتغافل الانسان المسلم عن أمر ما من الامور التى يرتاب فيها والتى يخشى من ورائها ما يخشى فهى خلق اسلامى وغيرة محبوبة .

وأما النوع الثانى : فهى غيرة فى غير ريبة وهذه غيرة يبغضها الله تعالى يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

« ان من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ومن الخيلاء ما

يحبه الله ومنها ما يبغضه الله أما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة والاختيال الذى يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدمة والاختيال الذى يبغضه الله الاختيال فى الباطل.. » (١) .

والغيرة من غير ريبة هى ضرب من سوء الظن الذى نهى عنه الاسلام وحذر القرآن الكريم منه قال الله تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » (٢) .

وقد وضح الامام الغزالى الاعتدال فى الغيرة فى قوله : الاعتدال فى الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التى تخشى غوائلها ولا يبالغ فى اساءة الظن والتصنت وتجسس البواطن فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء .

وان الاعتدال فى الغيرة ضرورى حتى لا تخرج الغيرة عن حدودها فتصبح رميا بالكذب وضربا بالبهتان وقذفا وتخرج من حيز الظنون والأوهام الى أبعاد مظلمة قاتمة تتكدر معها الحياة الزوجية وتصبح الروضة الاسرية ضيقة الأفق ملبدة خانقة وتنقلب الى جحيم لا يطاق .

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان والنسائى .
(٢) سورة الحجرات آية : ١٢ .

ولكم دمرت الغيرة الكاذبة وغير المعتدلة بيوتا كانت عامرة وشتت زهرات الاسرة حتى اطاحها الذبول والضياع

ومن أجل هذا كله كانت وصايا الاسلام بالنسبة للغيرة المعتدلة واضحة ومحددة .

هدانا الله بهدى الاسلام وأرشد أسرنا الى ما فيه الاعتدال والصلاح والسير على صراط الله المستقيم .

الاسرة والتربية

للأسرة المسلمة طابعها الخاص الذى تتميز به عن غيرها ولها سلوكها المستقيم وخلقها القويم ، الذى ينبئ عن تمسكها بدينها وتطبيقا لأوامره وسيرها على هداه .

وللأسرة المسلمة أيضا شخصيتها المستقلة التى تعيش بها واضحة القصد ، ثابتة الخطى تفعل ما يستقيم مع أمور دينها ، فلا تتعدى حدود الله ولكنها تستقى من هدى ربها أمانها واستقامتها واستقرارها ، وتتضح ملامح شخصيتها من سلوكها ومن آدابها وأخلاقها ومستقيمة على طريق العقيدة الصحيحة التى تؤمن بها ، وترضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وهى بشخصيتها المتميزة لا تحيا تابعة لغيرها ولا ظلا لسواها من الأسر الأخرى شرقية كانت أو غربية متحضرة كانت أم غير متحضرة انها لا تقلد غيرها تقليدا أعمى ولكنها تنهج نهج الحق فى بنائها وفى سلوكها .

ومن آداب الاسرة المسلمة انها تربى افرادها تربية اسلامية صحيحة وتعودهم على السلوك القويم وفعل الخير من الصغر ، فينشأ الابناء منذ طفولتهم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى الصدق والأمانة وعلى العفة والنقاء وعلى التعاون على البر والتقوى والبعد عن الاثم والعدوان . وتعمل الاسرة – أبا وأما – جاهدين مع الابناء على إقامة شعائر الاسلام وتطبيق آدابه

واخلاقه ، متعودين جميعا على فعل الخير والتسابق الى صنائع المعروف . ويقوم الآباء فى الاسر المسلمة بتربية الأبناء تربية سليمة بعيدة عن الكذب والخيانة بعيدة عن التقاليد الوافدة الغربية التى تتنافى مع منهج الدين وآدابه ، وأخلاقه .

واذا كان على الوالدين بالنسبة للأبناء تلك الحقوق التى تتمثل فى حسن تربيتهم وتنشئتهم وحسن مراعاتهم وتوفير كل اسباب الراحة والتكوين لهم ، فإن على الابناء حقوقها كذلك بالنسبة للوالدين وهذه الحقوق تتمثل فى البر بهما والاحسان اليهما وقد امر الله سبحانه وتعالى بالاحسان الى الوالدين بعد الامر بعبادته سبحانه اذ يقول : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » .

ويوجه القرآن الكريم الابناء الى الاحسان الى الوالدين ويحذرهم من الخشونة والغلظة فى التعامل معهم ، بل على الابناء ان يحسنوا القول مع الوالدين ، فعليهم أن يقولوا لهم القول الكريم ، وان يخفضوا لهم جناح الذل من الرحمة ، وان يدعوا لابائهم وامهاتهم بالرحمة الواسعة .

قال الله تعالى : « وقضى ربك الا تعبدوا إلاإياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كماربيانى صغيرا » .

من وصايا الاسلام بحقوق الامهات

على كل مسلم ان يعرف منزلة الوالدين ، ووصية الاسلام بهما وتأكيده على البر والاحسان لهما وتحذيره الشديد من العقوق حيث عده من أكبر الكبائر .

ونريد بمشيئة الله تعالى فى هذا الموضع أن نوضح ما خص الاسلام الام من توجيهات سديدة رشيدة ومن وصايا لها أهميتها وأثرها .. وذلك لما تتحمله الام من متاعب أكثر من الاب فقد انفردت الام بمتاعب فى الحمل وفى الرضاع وفى رعايتها لمصلحة أبنائها وحسن تربيتهم وتنشئتهم وتوفير الراحة التامة لهم .

فقد عانت الام من متاعب الحمل تسعة أشهر ما عانت وتحملت مدة الرضاع ما تحملت وسهرت على رعاية ابنائها واصلاح شئونهم متقبلة كل هذه المتاعب بصدر رحب ونفس راضية وقلب مغتبط ومنشرح .

وقدأشار القرآن الكريم الى بعض ما تعانيه الأم من مشقة الحمل ومشقة الوضع عند الولادة وهى مشقة وراءهاما وراءها الشديد وذلك فى قول الله تعالى « حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » (١) ويشير القرآن الكريم فى آية أخرى الى تلك المعاناة القاسية فى الحمل و فى الفطام والفصال بعد الرضاع فيقول سبحانه وتعالى : «حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين »

---

(١) سورة الأحقاق آية : ١٥ .

وقد أستدل على رضى الله عنه بهاتين الآيتين وبقوله سبحانه : «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » . استدل بهذه الآيات على أن اقل مدة للحمل سته أشهر وهو استنباط قوى صحيح كما يقول الحافظ ابن كثير وفيما رواه ابن اسحاق بسنده عن معمر بن عبد الله الجهنى قال . تزوج رجل منا إمرأة من جهينة فولدت لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها الى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له فبعث اليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها . فقالت : وما يبكيك فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط فيقضى الله سبحانه وتعالى فى ما شاء .

فلما أتى بها الى عثمان رضى الله عنه أمر برجمها فبلغ ذلك عليا رضى الله عنه فأتاه فقال له ما تصنع ؟ قال ولدت تماما لستة أشهر وهل يكون ذلك فقال له على رضى الله عنه أما تقرأ القرآن ؟ قال بلى :

قال : اما سمعت الله عز وجل يقول « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » وقال « حولين كاملين » فلم نجده بقى إلاسته أشهر فقال عثمان رضى الله عنه ، والله ما فطنت بهذا على المرأة فوجدوها قد فرغ منها قال : فقال معمر فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه لأبيه . فلما رآه أبوه قال : ابنى والله لا أشك فيه فاتضح مما سبق ومن الآية التى تقدر مدة الحمل والفصال بثلاثين شهرا والآية التى تبين مدة الرضاع بحولين أى بأربعة وعشرين شهرا فيبقى من الثلاثين ستة أشهر هى أقل مدة الحمل وهى وإن كانت نادرة إلا أنها ممكنة كما هو استقرار بعض الأئمة ولكن المعروف أن أغلب الحمل هو تسعة أشهر كما هو المتداول وقد أكد الاسلام الوصية بالام أكثر من الاب لحاجة الام وضعها ولانها تحملت من متاعب الحمل والرضاع والتربية والاصلاح ومراعاة

شئون الابناء . الكثير والكثير.

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى قال أمك . قال : ثم من قال : أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك وفى بعض الأحاديث نلاحظ النهى عن عقوق الامهات ويخصهن ويقتصر عليهن دون الاباء مع أن عقوق الاباء محرم كذلك ليوضح ان الاستخفاف بحقوق الامهات أشد وانما كثر لضعفهن ، وعجزهن بخلاف الاباء ولينبه على تقديم برهن على بر الأب عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« أن الله تعالى حرم عليكم عقوق الامهات ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال » متفق عليه .

بل أن الاسلام يرتقى بحقوق الامهات لدرجة أنه لو كانت الام غير مسلمة فان الاسلام اجاز صلتها وبرها وعدم قطيعتها قال الله تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

وعن اسماء بنت ابى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : قدمت على أمي وهي مشركة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى قال : نعم صلى أمك » متفق عليه .

تلك بعض وصايا الاسلام فى تأكيد حقوق الامهات وفى القيام بحقوقهن عرفانا لهن بالجميل الذى لا يمكن للأبناء مهما قدموا وصنعوا ان يكافئوا أمهاتهم ولآباءهم عليه .

بين عاطفة الابوة والبنوة

كثير من الناس لا يدرك حقوق الوالدين بالمعنى الكبير العميق ، البعيد الاثر الا بعد أن يتذوق طعم الابوة فيصبح أبا .. وكذلك الحال بالنسبة للنساء كثيرات منهن لا يدركن ذلك الا بعد أن تصبح أما .

وليست هذه هى الظاهرة الوحيدة فى عالم الابوة والامومة بل ثمت ظواهر اخرى منها ان الكثيرين ايضا لا يدركون تقصيرهم فى برهم بالوالدين الا بعد موتهما ، فيندمون حيث لا ينفع الندم . وحسبنا : هاتان الظاهرتان اللتان لا ينكرهما احد ولا يمارى فى حدوثهما انسان فالابناء يظلون محدودى العواطف فى مواجهة حنان الابوين حتى يكبروا وينجبوا ويصبحوا أباء ويومها يقولون : لم ندرك قدر الوالدين ولا مكانتهما الا بعد أن ذقنا حناننا على ابنائنا وكثير من الابناء بعد وفاة الوالدين أو أحدهما يؤنبه ضميره ويتحسر على ما فاته من بر وعطف واحسان كان من الممكن ان يضاعفه فى حياة ابويه فلم يتمكن ولم يستشعر التقصير الا بعد فوات الآوان .

واذا كان هذا هو واقع الحياة واذا كانت هاتان الظاهرتان احدى الظواهر الملموسة فما أردنا بالكشف عنهما إلا ليتدارك المقصرون تقصيرهم وإلا ليضاعف المجتهدون فى برهم واحسانهم . فمن الوصايا العشرة التى وصى بها الله سبحانه وتعالى جميع رسله وبعثهم بها . وجاءت فى كل كتب الله . الاحسان للوالدين . فمن الوصايا العشرة التى جاءت فى سورة

الانعام قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » انها وصية نزلت بها الكتب السماوية ودعا اليها كل رسول من رسل الله . ثم أن الوصية بالوالدين أخذ الله بها العهد على بنى اسرائيل « واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » .

وتأتي مكانة الوصية بالوالدين كعنصر ثان بعد الايمان بالله وتوحيده مباشرة . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » .

كما تعددت الوصايا بالوالدين فى صور مختلفة رقة وحنانا ، وعطفا وإحسانا بحيث تحذر من أبسط الامور ومن ادنى شئ يؤدى وتغرى بالعاطفة الحانية التى تبدو فى صورة الذل من الرحمة وتلفت انظار الابناء فى حال كبر الاباء وهم قد أصبحوا ضعفاء فى حاجة الى ابنائهم تشبه حالة الابناء وحاجاتهم اليهم في طفولتهم « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

وهكذا تندرج بنا الوصايا الربانية في شأن الوالدين الى أن ترتقى الى درجة تلزم الابناء بأخلاص الصحبة ، وعدم المخالفة ومنتهى الطاعة المطلقة الا فى شئ واحد هو الشرك والعصيان .. « وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » ثم يقارن القرآن بعد ذلك بين نوعين من البنوة .نوع بار طائع مخلص لربه ،

عارف بجميل والديه مقر بفضل الابوين ونوع آخر بالعكس . فالنوع البار يتحدث عنه القرآن « حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وإنى من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » [١] ..

وأما النوع الثانى من البنوة فهو النوع العاق الذى فض النصح وعنه يتحدث القرآن : « والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبل وهما يستغيثان الله ويلك أمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الأولين أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين »

وهكذا نرى عاطفتى الأبوة والبنوة فعاطفة الأبوة بارة دائما احسانها مطلق دفاق لا يتوقف ولا ينضب فى حال من الأحوال .

وأما عاطفة البنوة ، فهى انواع فمنها البار المطلق الذى قام بالواجب ، وأدى رسالته ومنها عاطفة الذى هو أدنى درجة من السابق ، وذلك من يندم بعد فوات الأوان .

ومنها عاطفة العاق الذى ولى واستكبر وخسر خسرانا مبينا . وكم تتقلب اسر وأسر فى اشكال من هذه العواطف والظواهر . وكم يصطلى

---

(١) سورة الاحقاف آية : ١٦

آباء من عقوق أبنائهم وكم ينعم ويهدأ آباء ببر أبنائهم .. فإلى واحة البر الوارفة أقبلوا أيها الابناء . والى ظلال المودة والرحمة والاحسان أفيئوا لتشاركوا فى هناءة أسركم وتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم وذلك هو الفوز العظيم ..

الاسرة وعلاقتها بغيرها

للأسرة علاقات كثيرة بغيرها من الاسر الاخرى ، وأولى هذه العلاقات علاقة اسرتى الزوجين فليس الزواج علاقة رجل بامرأة فحسب ، ولكنه الى جوار ذلك علاقة وثيقة بين الاسرتين وقد أعطى الاسلام ولى المرأة حقوقه المشروعة حفاظا على المرأة وحفاظا على الاسرة ومعلوم ان الزواج اذا لم تتحقق فيه الكفاءة او كان هابطا من سوء الاختيار القاصر بين الطرفين فقط فان عاقبته الاليمة لا تقتصر على الزوجة وحدها وانما يمتد العار والعيب الى الاسرة كذلك .

فما قرره الاسلام من الولاية المستقيمة الجادة والاشراف على المرأة وتوجيهها واختيار الحياة الفاضلة لها كل هذا يتمثل فى الرعاية الحكيمة الرحيمة التى تتحقق بها مصلحة المرأة ومصلحة الاسرة وقال الحافظ ابن كثير عند الكلام على قول الله سبحانه وتعالى « الرجال قوامون على النساء » قال :يعنى أمراء عليهن أى تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته وأن تكون محسنة لأهله حافظة لماله وكذا قال مقاتل والسدى والضحاك .

ومن هنا تتضح لنا نظرة السلف العميقة فى علاقة الاسرتين ان على المرأة أن تكون محسنة لأهل زوجها حتى تظل رابطة المصاهرة نقية صافية تشرق بالود والحب والتعاون وهذا أمر له أهميته الكبيرة وله صداه على علاقة الزوج بامرأته ان مثل هذا يضفى على قلبه حبا على حب وحنانا على حنان ، حينما يرى امرأته مستقيمة مع أهله متجاوبة مع قلوبهم

مرتبطة بهم برباط المودة والتعاون وبمدى هذه الرابطة من الزوجة أو من الاسرة الصغيرة تقوى رابطة الاسرتين بينهم جميعا ولا تقتصر علاقة الاسرة بغيرها على الاسرة التى ترتبط بها برباط الزواج والمصاهرة وانما هناك علاقات أخرى شرعها الاسلام وأحاطها بسياج منيع من تعاليمه المحكمة السديدة . التى لا لبس فيها ولا غموض وانما هى واضحة مفصلة . فهناك علاقة الاسرة بجيرانها وهى علاقة يبيحها الاسلام فى الحدود المشروعة دون اختلاط الرجال بالنساء ، وإنما تقوم علاقة بعضهن مع بعض شريطة الا يتخذ ذلك ذريعة للقيل والقال وكثرة الكلام أو التباغض أو المباهاة ، وتقليد الاسر لغيرها .

فقد تكون هناك اسرة موسرة ولديها من المال ما تستطيع أن تؤسس بيتا كبيرا وتشترى اشياء ثمينة غالية غالبا وبجوارها اسرة فقيرة فتدب الغيرة أو يتولد التقليد الى غير ذلك مما يحدث فى كثير من البيوت .

ولقد دعا الإسلام النساء المسلمات الى قبول ما يقدم اليهن مهما كان قليلا وحث على التهادى فقال صلى الله عليه وسلم « يانساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » (١) ومعناه عظم قليل اللحم وهذا فيه زيادة تأكيد على الروابط الاسرية بين الاسرتين .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال له : يارسول الله : ان فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، غير

---

(١) رواه البخارى .

انها تؤذى جيرانها فقال : هى فى النار ، ثم قال : يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وانها تتصدق بالأثوار من الأقط ، أى قطع الجبن– ولا تؤذى جيرانها؟ قال : هى فى الجنة . [١] .

هذه بعض العلاقات بين الاسر وضحها الاسلام وحث على أن تكون صافية مستقيمة قائمة على أساس من الاخلاص والمودة والمحبة ..

---

(١) رواه الامام أحمد .

المرأة المسلمة .. والجهاد

المرأة المسلمة فى ميادين الجهاد بما شرعه الاسلام لها من القيام ببعض الاعمال الهامة التى لا تقل اثرا عن نتيجة القتال فى سبيل الله .

كانت المرأة المسلمة تسقى الماء وتداوى الجرحى وتناول السهام وتثير الحمية وتقوم بخدمة الجرحى وتمريضهم .

وهذا نموذج من نماذج جهادها يقول انس بن مالك لما كان يوم أحد انهزم ناس من الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم وابو طلحة بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم مجوب عليه أى بقية سلاح الكفار بما معه من ترس بحجفة « وهى الترس وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثا قال فكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل وهى الكنانة التى فيها السهام فيقول انثرها لأبى طلحة قال ويشرف نبى الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى القوم فيقول أبو طلحة - يانبى الله بأبى أنت وأمى لا تشرف لا يصيبك سهم من سهام القوم نحرى دون نحرك .

قال : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وانهما لمشمرتان .. تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه فى أفواههم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه فى أفواه القوم ولقد وقع السيف من يدى أبى طلحة إما مرتين وإما ثلاثة من النعاس .

فلم يحرم الاسلام المرأة من كرامة الجهاد ومثوبته ولم يمنعهن ان

يشاركن بسقى ومداواة الجرحى كل ذلك مع المحافظة عليهن وعدم الانكشاف والاختلاط المحرم بالرجال .

وهناك جهاد بالمال لاعداد العدة وتجهيز الجيوش وهناك جهاد باللسان لاثارة الحمية ودفع الشبة ورد الاشاعات والدعوة الى الجهاد وهذه الانواع يؤدى كل من الرجل والمرأة فيها الرسالة اللائقة بحاله ويقوم حيالها بما يمكنه من عمل .

أما الجهاد بالسلاح والاشتراك فى ضرب العدو فى الميدان فهذا لا يتفق مع طبيعة المرأة وتكوينها ولذا لم يفرضه الاسلام عليها .

ولئن شاركت بعض النساء فى الجهاد فهذا تطوع منهن وليس مفروضا كما هو الحال بالنسبة للرجال حيث فرض عليهم .

اما ما يمكن للمرأة به فى الجهاد فهو إحياء الحمية والقيام بالتمريض وسقى الماء وكثير من المهام التى يحتاج اليها الجيش فتوفر على الجيش قيام بعض الرجال بهذا العمل ليؤدى الرجال مهمة القتال على أكمل وجه .

وواضح أن هذا الاشتراك من المرأة حيث يكون الأمر فى حاجة اليها وبشرط عدم الاختلاط والفتنة ..

والله الموفق ....

دروس من حياة أمهات المؤمنين مع السيدة
خديجة رضى الله عنها

فى حياة امهات المؤمنين دروس غالية ونماذج مثالية للأمهات والزوجات يجب الوقوف عندها والافادة منها فى بناء الاسرة المسلمة ولنبدأ بأولى أمهات المؤمنين :

هى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى القرشية الاسدية أم المؤمنين وزوج النبى صلى الله عليه وسلم .. وهى أول واحدة تزوجها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأول من أسلم من النساء .

تزوجها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قبل الوحى وعمره حينئذ خمس وعشرون سنة وكان عمرها حينئذ أربعين سنة ، ومكثت معه أربعا وعشرين سنة .

وكان سبب زواج الرسول صلى الله عليه وسلم منها جاء عن ابن اسحاق قال : كانت خديجة إمرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم اياه بشئ تجعل لهم منه فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت اليه وعرضت عليه أن يخرج فى مالها الى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له : ميسرة فقبل منها وخرج فى مالها ومعه غلامها ميسرة حتى قدما الشام . فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب فاطلع الراهب

الى ميسرة فقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة قال : هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبى ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد ثم أقبل قافلا الى مكة فلما قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به بأضعاف أو قريبا وحدثها ميسرة عن قول الراهب وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة مع ما أراد الله بها من كرامتها .

فلما أخبرها ميسرة بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : انى قد رغبت فيك لقرابتك منى وشرفك فى قومك وامانتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا واكثرهن مالا ، فلما قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالت ذكر ذلك لأعمامه فخرج معه حمزة بن عبد المطلب فكلم عمها وقيل كلم أباها ولكن الصحيح أن أباها خويلد كان قد مات قبل ذلك .

وحضر وجهاء قريش وأشرافهم ورؤساؤهم يتقدمهم عمه أبو طالب فتكلم قائلا : الحمد لله الذى جئنامن ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضئ - أى امهل - معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوبا وحرمه آمنا جعلنا الحكام على الناس .. ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل الا رجح به فان كان فى المال قل ، فان المال ظل زائل وأمر حائل . ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد . وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالى

كذا وهو والله يعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل وكانت السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها قد تزوجت - قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين هما : أبو هالة بن زرارة من بنى عدى وعتيق بن عائد .

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها أول من آمنت من الرجال والنساء ، وصدقت بما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وقد رزقه الله تعالى منها أولاده : القاسم وهو الذى كان يكنى به وعبد الله يقال له : الطيب والطاهر ، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة واما ولده ابراهيم فانه كان من مارية القبطية اهداها له المقوقس وقد عاش بنات الرسول صلى الله عليه وسلم حتى دخلن الاسلام وهاجرن معه الى المدينة المنورة .

وكان للسيدة خديجة رضوان الله تعالى عليها دورها الكبير فى حياة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لا سيما عندما جاءه الوحى ورجع من غار حراء يرجف فؤاده فدخل على خديجة رضى الله عنها فقال زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة واخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة . كلا والله ما يخزيك الله ابدا - انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرء تنصرفى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ان يكتب .. الخ القصة فنرى انها استنتجت بثاقب فكرها وحصافة عقلها ونقاء قلبها ان ما جاء الى

رسول الله صلى الله عليه وسلم الا الحق وأن ربه سبحانه وتعالى لا يخزيه ابدا واستدلت على ذلك بأمور هى بحق جماع مكارم الاخلاق وامهات الفضائل وصنائع المعروف - صلة الرحم - ومساعدة من لا يستطيع ان يستقل بأمر نفسه وهو الكل وكسب المعدوم واكرام الضيف والمعونة فى النوائب وهكذا نرى فى تصرفها وحسن منطقها واستنتاجها اعظم القدوة لنساء الاسلام اللائى يضطلعن بمهمات الاسرة ويعاون الازواج على رسالة الحق والخير اما عن دورها فى تخفيف اعباء الحياة ومعاونتها للرسول صلى الله عليه وسلم وفضائلها فذلك ما سنتحدث عنه - بمشيئة الله تعالى .

مكانتها ودورها فى تخفيف الأعباء

تحدثنا فى كلامنا السابق عن جانب من جوانب حياة أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها . واتضح ما كان لها من فضل السبق فى الاسلام وحسن التصرف فى الأمور ودقة منطقها وحكمتها فى الأمور.

ولقد كان لها رضى الله عنها دور هام فى الدعوة وفى حياة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، تصديقا له وتخفيفا عن نفسه وتثبيتا وأمانا واطمئنانا فكانت تمسح عن نفسه الكثير من الهموم التى كانت تواجهه وتهون عليه أمر الناس الذين كانوا يكذبونه ويردون عليه . يقول ابن هشام : وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء به فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد وتكذيب له فيحزنه ذلك الا فرج الله عنه بها اذا رجع اليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه امر الناس رحمها الله .

وفى هذا درس بليغ للأسر المسلمة وللزوجة بصفة خاصة ان تقوم برسالتها المنزلية خير قيام وان تؤدى لزوجها ما ينبغى أن تقوم به تقوية معنوياته وازاحة القلق النفسى والهم من حياته حتى يستطيع القيام بدوره على أتم وجه .

فلا تكون الزوجة مصدر قلق وازعاج وخوف وتعب لزوجها بل عليها أن تقوم برعاية أسرتها وتوفير الراحة للأبناء وللزوج وللأسرة المسلمة خير أسوة بأمهات المؤمنين وبما كان لهن من دور عظيم .

ولقد كان للسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها مكانتها العالية ومنزلتها وحسبها فضلا وشرفا ومكانة ورفعة سامية فى الدنيا والآخرة .

ماجاء عن أبى زرعة قال : سمعت أبا هريرة قال : أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله هذه خديجة قد أتتك معها أناء فيه ادام أو طعام أو شراب فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب رواه مسلم . والقصب : هو اللؤلؤ المجون و- الصخب - الصوت المختلط المرتفع : والنصب : التعب .

ففى هذا كله بشارة للسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها بمكانة طيبة فى الجنة ، وبيت كريم فيها ، يحتوى على كل اسباب السعادة والراحة والحبور ، جزاء ما قدمت فى دنياها من اخلاص لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وكيف لا ، وقد رزقه الله سبحانه وتعالى حبها وقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تغار منها حين يذكرها عن عائشة قالت : ما غرت من نساء النبى صلى الله عليه وسلم الا من خديجة وانى لم أدركها قالت : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذبح الشاة فيقول: ارسلوا بها الى أصدقاء خديجة قالت : فأغضبته يوما فقلت : خديجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اننى قد رزقت حبها » [1] ، وفى هذا الحديث اشارة الى ان حبها فضيلة . وكان صلوات الله وسلامه عليه يكرم

---

(١) رواه مسلم .

كل صديقة لخديجة ، وكان اذا ذبح الشاة فيقول ارسلوا بها الى أصدقاء خديجة وفى هذا أو غيره دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير ، فى حياته وبعد مماته واكرام أهل ذلك الصاحب أو الزوجة .

وفى هذا درس للأزواج أن يستوصوا بالنساء خيرا ، وأن يحفظوا لزوجاتهم حقوقهن . وحرمتهن وعهدهن .

وفى هذا ما فيه من أسباب الالفة والمودة وتقوية الروابط الاسرية التى تقوى بها اواصر المجتمع الاسلامى الكبير وقد توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين وكانت وفاتها فى رمضان وعندها خمس وستون سنة ودفنت بالحجون فى مكة المكرمة ، نزل النبى صلى الله عليه وسلم حفرتها ولم تكن شرعت صلاة الجنازة ، رحمها الله ورضى عنها وأرضاها..

القدوة المثلى للمرأة المسلمة فى العلم والعمل

لبيت النبوة مكانته العالية والاسوة الحسنة يقتدى بهداه كل بيت مسلم . يريد ان يترسم معالم الحياة الايمانية المشرقة وتقتدى به كل اسرة تتطلع الى سعادة الدنيا والآخرة ولأمهات المؤمنين دور أصيل وواضح فى إرساء أسس الأسرة المسلمة فى العلم والعمل .

ومن أمهات المؤمنين السيدة الفاضلة الكريمة عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وأمها هى أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية .

بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرها تسع سنين ودخل بها فى شهر شوال من السنة الأولى . وكان قد خطبها من ابيها وهى بنت ست سنين وقيل : سبع . وكانت نامية الجسم ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا سواها .

وفيما رواه البخارى . عن عائشة رضى الله عنها قالت تزوجنى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا بنت ست سنين و لكنه دخل بها بعد ذلك كما سبق .

وقد آراه الله تعالى اياها فى المنام مرتين كما ثبت فى السنة الصحيحة قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : أريتك فى المنام مرتين اذا رجل يحملك فى شرقة من حرير فيقول هذه امرأتك فاكتشفها فاذا هى انت فأقول ان يكن هذا من عند الله يمضه .

وعندما خطبها النبى صلى الله عليه وسلم من أبيها قال : انما أنا أخوك فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

أنت أخي في دين الله وكتابه ، وهي لي حلال . رواه البخارى وقد نشأت منذ باكورة صباها وفجر حياتها ، نشأة طاهرة مباركة وكبرت وترعرعت فى منزل الوحى فكان طبيعيا أن تجمع كل المحامد الفاضلة والمعانى النبيلة ومكارم الاخلاق .

ولقد وهبها الله تعالى عقلا واعيا متفقها ، وذاكرة قوية حافظة ، فكانت عالمة بأحكام الشريعة حافظة للأحاديث مستوعبة لأمور الدين واصوله وفروعه . وكيف لا ، وقد أخذت علمها ، وروت ما روت وعاشت ما عاشت مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فروت عنه وتخلقت باخلاقه وتأدبت بآداب الاسلام وعايشت نزول الوحي فاستوعبت مالم يستوعبه غيرها .

ولقد أخذ عنها الكثير من أحكام الشريعة ، ولا سيما ما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يصنعه فى بيته ومع زوجاته .

يقول مسروق : رأيت مشيخة اصحاب محمد الاكابر يسألونها عن الفرائض ، وقال ابو موسى الاشعرى ما أشكل علينا اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قط شئ فسألنا عنه عائشة الا وجدنا عندها منه علما .

وهكذا نجد المرأة المسلمة ، والاسرة الاسلامية فى السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها قدوة طيبة ، وأسوة كريمة فى العلم بأمور الدين واحكامه والتثقف بالثقافة الاسلامية العالية الدقيقة وقد جمعت رضى الله

تعالى عنها بين الفقه والعلم وحسن القول والعمل ، يقول عطاء بن أبى رباح : كانت عائشة افقه الناس واعلم الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة بيد أن علومها كانت كثيرة وثقافتها العامة كانت شاملة فاستوعبت فقه الاحكام ، والطب والشعر . قال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحدا علم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة وأسند الزبير بن بكار عن ابى الزناد قال : ما رأيت أحدا أروى لشعر من عروة ، فقيل له ما أرواك قال: ما روايتى فى رواية عائشة ما كان ينزل بها شئ الا انشدت فيه شعرا ، ومن كتاب ، الاصابة لابن حجر .

وقد جمعت الى جانب العلم الغزير العمل الصالح ، ولا غرابة فهى زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم كريمة الصديق رضى الله عنه ونشأت فى منزل الوحى وكانت كريمة سخية ، تبذل كل ما تملكه ، وتعطى بلا حدود حتى ولو كانت فى حاجة ، انها الامثلة العالية فى الانفاق وفى العطاء . اخرج ابن سعد من طريق أم درة قالت : اتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها ، وهى يومئذ صائمة فقالت لها : أما استطعت فيما انفقت ان تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه فقالت : لو كنت ذكرتنى لفعلت فلتقتد الامهات ، والاسرة بأعلى النماذج وبأرقى اسوة للأسرة الاسلامية فى العلم والمعرفة ، وفى العمل والبذل وفى السير على الجادة والاهتداء بهدى الاسلام الواضح والله الهادى الى سواء السبيل .

فى بيوت أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم القدوة للأسرة المسلمة فى التفقه فى الدين وفى العمل بالعلم وفى استمرار العمل ولزومه

وفيما رواه الامام مسلم - فى صحيحه - عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الاعمال الى الله تعالى أدومها وان قل قال : وكانت عائشة اذا عملت العمل لزمته .

ولقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها ، عالمة متفقهة ملمة بسنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .واعية لاحاديثه النبوية الشريفة.وهى من أكثر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم-رواية للحديث النبوى الشريف

روى لها عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الفا حديث ومائتا حديث ، وعشرة احاديث واتفق البخارى ومسلم منها على مائة واربعة وسبعين حديثا وانفرد« اليخارى » بأربعة وخمسين و«مسلم» بثمانية وستين

ولا غرابة فى هذا العدد الجم الذى روته من الاحاديث فقد عاشت فى بيت النبوة وعايشت أندى لحظات الحياة فى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم : .. ومع ومضات الاشراق الروحى ، عند غدوات الوحى وروحاته.. كانت تعيش سعيدة بما ترى واعية لما تسمع .

وكان مسروق اذا روى عن عائشة قال : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء رضى الله عنها نعم فهى الصديقة وأبوها الصديق رضى الله عنه وكانت لها مكانتها من الرسول صلى الله عليه وسلم . ونزلت براءتها من فوق سبع سموات .

وفيما قال حسان بن ثابت رحمه الله :

حصان رزان ماتـزن بريبـة

وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

عقيلة اصل من لؤى بن غالب
كرام المساعى مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل بغى وباطل
فان كان ما قد قيل عنى قلته
فلا رفعت موتى الى أناملى
وان الذى قد قيل ليس بلائط
بها الدهر بل قول امرئ متحامل
فكيف ودى ما حييت ونصرتى
لآل رسول الله زين المحافل
رأيتك وليغفر لك الله حرة
من المحصنات غير ذات الغوائل

وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم الكثير الطيب وروت ايضا عن ابيها وعن عمر وفاطمة وسعد بن ابى وقاص واسيد بن خضير وجذامة بنت وهب وحمزة بنت عمرو وروى عنها عمر وابنه عبد الله وابو هريرة وابو موسى وزيد بن خالد وابن عباس وربيعة بن عمرو الجرشى والسائب بن يزيد وصفية بنت شيبة وعبد الله بن عامر بن ربيعة وعبد الله بن الحارث بن نوفل وغيرهم من الصحابة .

ومن آل بيتها : اختها أم كلثوم واخوها فى الرضاعة عوف ابن الحارث وابن أخيها القاسم وعبد الله ابن محمد بن ابى بكر وبنت اخيها الآخر حفصة واسماء بنت عبد الرحمن بن ابى عتيق وابنا اختها عبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام وبنت عائشة بنت أختها طلحة .

ومن كبار التابعين : سعيد بن المسيب وعمرو بن ميمون وعلقمة بن

قيس ومسروق وعبد الله بن حكمى والاسود بن يزيد وأبو سلمة بن عبد الرحمن وابو وائل وآخرون كثيرون ولقد كان لها دور بالغ فى تبليغ الاحكام الشرعية لا سيما النساء جاءت امرأة من الانصار تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تتطهر من الحيض ؟ فقال : خذى فرصة من مسك فتتبعى بها اثر الدم ، فلم تفهم فاستحى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذتها عائشة .

وتلك مهمة لها اكبر الاثر فى التبليغ والتعليم . اذ أن تعليم المرأة للمرأة خاصة فى مثل هذه الأمور يكون أكثر ايضاحا وأبعد عن الحرج .

ومما يدل على كثرة علمها وفقهها ما قاله أبو موسى الاشعرى :

ما اشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة الا وجدنا عندها فيه علما وتوفيت سنة ثمان وخمسين فى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان على الاكثر ، وقيل سنة سبع ذكره على المدينى عن ابن عيينة عن هشام عن عروة ودفنت فى البقيع رضى الله تعالى عنها وأرضاها ..

أ . د . أحمد عمر هاشم

فهرس الكتاب

رقم الإيداع : ٨٩/٧٨١٩

المركز الإسلامي للطباعة
٤٣٢ شارع الأهرام – الجيزة
ت : ٦٢٨٣٠٦ – ٦٢٥٠٥٢

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر
ت : ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

المركز الإسلامي للطباعة
٤٣٢ شارع الأهرام - الجيزة
ت : ٦٢٨٣٠٦ - ٦٢٥٠٥٢